فن الجناس

بلاغة — أدب — نقد

تأليف

علي الجندي

أستاذ بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

فن الجناس

بلاغة — أدب — نقد

تأليف

علي الجندي

أستاذ بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من نحو ثلاثة أعوام أخرجت الحلقة الأولى من سلسلة فنون البديع وهى فن الأسجاع فى جزأين ، واليوم أخرج الحلقة الثانية وهى فن الجناس ، متوخيا فيها ما توخيته فى أختها من دراسة دقيقة مستوعبة للمادة العلمية فى مختلف مظانها ، ثم نخلها ومعارضة بعضها ببعض وتمييز صحيحها من عليلها وإثبات ماصلح منها فى سموط منظمة عمادها التلاؤم والانسجام ، مشفوعة بالرأى الذى اعتنقته دون تعصب لمذهب على آخر .

وقد رأيت أن أضيف إلى الجناس فصولا اعتـــاد جمهور العلماء أن يباعدوا بينها وبينه ، لأن النظرة السليمة هدتنى إلى وجوب ضمها إليه لما يجمعهما من قرابة قريبة جعلتها جزءاً منه فى نظر بعض البلغاء المحققين أو كالجزء فى نظر الآخرين ، كما اقتضتنى سنة التطور أن أنشىء فصولا جديدة لم يعرض لها الأقدمون فى هذا الفن ، وهى فصول لها منزلتها فى مثل هذه الأبحاث بخاصة .

وقد روعى فى هذه الفصول جميعاً أن تخضع للمنهج العلمى ، وتدين للدراسات الحديثة ، فأقيمت على أسس من النقد العادل والموازنة النزيهة والاستنباط السديد ، وسير فى بنائها على هدى من علم النفس ، وفلسفة البلاغة والجمال ، وصناعة الأشعار والألحان .

وكان من همى ألا أعتمد على الأمثلة المأثورة ، فوشحتها بما يربى على الحصر من شعر القدامى والمحدثين والعصريين استكمالا للفائدة ، وتبيانا للتسلسل الأدبى والفنى فى هذه العصور المتعاقبة .

ولست أدعى فى ظل هذا الجهد العنيف المتصل أنى راض عما صنعت ، ولكنها محاولة المخلص ، والعصمة لله وحده والكمال قصر عليه .

١٠/١/١٩٥٤ — على الجندى

الفصل الأول

الجناس

تسميته — اشتقاقه — تعريفه

سمّى جناسا لمجىء حروف ألفاظه من جنس واحد ومادة واحدة .

ولا يشترط تماثل جميع الحروف ، بل يكفى فى التماثل ما تقرب به المجانسة [1] .

وقد اشتهر على ألسنة العامة بالفتح ، وصحّحه بعض المتأخرين بالكسر على أنه مصدر جانس [2] .

وقد اختلف العلماء فى صحته لغويا :

ففى الأساس : هو مجانس لهذا ، وهما متجانسان ، ومع التجانس التوانس ، وكيف يؤانسك من لا يجانسك !.

وفى المصباح : حكى الخليل : هذا يجانس هذا : أى يشاكله .

ونص عليه فى التهذيب أيضا .

وعن بعضهم : فلان لا يجانس الناس : إذا لم يكن له تمييز ولا عقل .

ومن الناس من يقول فيه : التجنيس ، وهو تفعيل من الجنس مصدر جنَّس

ومنهم من يقول : المجانسة : وهى المفاعلة من الجنس أيضا ؛ لأن إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى فقد وقع بينهما مفاعلة فى الجنسية .

ومنهم من يقول : التجانس ، وهو التفاعل من الجنس أيضا مصدر

---

(١) المثل السائر — ٩٩ — جنان الجناس — ١٠ — ١١

(٢) شفاء الغليل — ٦١ — ٦٦

تجانس الشيئان : إذا دخلا فى جنس واحد ، كما تقول : تحارب الرجلان تحاربا [1] .

وعلى هذا فجميع أسمائه مشتقة من « الجنس » لأن كلا من اللفظين المتجانسين من جنس الآخر [2] .

ويرى بعضهم : أنه لم يسمع من العرب ولم يشتقوا من الجنس .

فقد حكى ابن جنى عن الأصمعى : أنه كان يردّ قول العامة : هذا مجانس لهذا : إذا كان من شكله ، ويقول : ليس بعربى محض .

وحكاه عنه ابن دريد كما جاء فى المصبـــاح ، وكذا فى ذيل الفصيح للموفق البغدادى .

وقد ردّ صاحب القاموس على ابن دريد ما نقله عن الأصمعى : بأنه — أى الأصمعى — واضع كتاب الأجناس وأول من جاء بهذا اللقب .

وقد عجب الخفاجى من رد صاحب القاموس ، وقال : إن الأصمعى لم ينكر لفظ الجنس ولا جمعه ، وإنما أنكر تصرفه ، ومجرد التسمية لا يقتضى صحته .

وفى التكملة لعبد اللطيف البغدادى : أن لفظ التجنيس والمجانسة مولد لم تتكلم به العرب ، وجماعة من نقلة اللغة القاصرين عن درجة القياس ينكرون هذه اللغة ونحوها مما اشتقّ قياسا على كلام العرب ، وهذه الألفاظ مما تجوز قياسا لا سماعا ، وهو مشتق من لفظ الجنس كالتنويع من النوع .[3]

وقول المتكلمين : تجانس الشيئان ليس بعربى أيضا ، إنما هو توسع .

والمجانسة عند أرباب المعقول : الاتحاد فى الجنس كالإنسان والفرس ، فإنهما متحدان فى الحيوانية التى هى جنسهما القريب أيضا [4] .

---

(١) جنان الجناس — ١٠ — كليات أبى البقاء — ١١٢

(٢) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٣ — المرشدى على عقود الجمان — ٢ — ١٣٩

(٣) العمدة — ١ — ٢٢٧ — جنان الجناس — ١١ — خزانة الأدب للحموى — ٢٥ — شفاء الغليل — ٦١ — ٦٦— ٦٧

(٤) المرشدى على العقود — ٢ — ١٣٩

مادة الجناس :

ومن العجيب أن مادة الجناس فى تصرف حروفها من حيث تقديم بعضها على بعض وما ينجم عن ذلك من التركيب لا تخرج عن ستة أقسام بطريق الحصر .

واحد منها مهمل وهو : ج س ن لم تضع العرب له معنى ألبتة ، ولا استعملته .

وخمسة مستعملة وهى ج ن س . ن ج س . س ج ن . ن س ج . س ن ج وهى كيفما وجدت لا يخرج معناها عن انضمام الشيء إلى ما يشاكله ويتحد به ويميل إليه ويقرب منه ، فكلها قريب بعضها من بعض .

أما الأول جنس ، فهو الجنس ، وهو فى اللغة : الضرب .

والضرب أعم من النوع ؛ تقول هذا النوع من ضرب هذا : أى من جنسه .

فالجنس من كل شيء : ما ترجع الأنواع إليه .

وأما الثانى نجس ؛ فالناجس والنجيس : داء يأخذ الإنسان لا يبرأ منه . سمى بذلك لما كان ينضم إلى جسم الإنسان ويتحد به ؛ حتى كأنه جزء من حقيقته فليس له زوال .

والتنجيس : شيء كانت العرب تفعله كالعودة تدفع بها العين ، كأنهم يجلبون الصحة إلى من يفعلون به ذلك ؛ كالذى يضم الشيء إلى أخيه ويجمع بينهما .

وأما الثالث سجن ، فإنه السجن وهو الحبس ؛ سمى بذلك لأنه لما كان الذى يحبس فيه يضطر إلى مكان يلزمه ولا يفارقه ، ويمنع من التحول عنه والخروج منه ، كان المحبوس كالنوع الذى لا يخرج عن جنسه ، كما أن الإنسان لا يخرج عن الحيوانية التى هى جنسه .

وأما الرابع نسج فإنه النسج ، وهو ضم خيوط الغزل من الحرير والكتان وغير ذلك بعضها إلى بعض إلى أن تلتحم تلك الأجزاء وتعود كالشيء الواحد وتلتئم بعد الافتراق ، ولهذا قالوا : فلان نسيج وحده : إذا انفرد فى فنه

حتى كأنه ليس من أضرابه فيما امتاز به عنهم ، بل هو منضم بعضه إلى بعض كالذى نسج على حدة وحده .

وأما الخامس سنج ، فمن السناج وهو أثر الدخان من السراج فى الحائط وذلك أن الدخان لما كان فى حال صعوده من الشعلة يرى أسود ، فإذا أثر السواد فى الحائط وعلق به ، عاد كأنه قد جعل تلك البقعة من جنسه فى السواد والكمودة [1] .

ومثل هذا يسمى عندهم : الاشتقاق الكبير ، وهو أن تأخذ أصلا من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها ، وإن تباعد شىء من ذلك عنها رد بلطف الصنعة والتأويل إليها.

وإذا سقط من تراكيب الكلمة شىء فجائز ذلك فى الاشتقاق ، لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تركيب الكلمة ، بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها من تقديم حروفها وتأخيرها ، أدت إلى معنى واحد يجمعها مثل لفظة وسق ، فإن لها خمسة تراكيب وهى وسق . وقس . سوق قسو . قوس .

وجميع الخمسة المذكورة تدل على القوة والشدة .

فالوسق من قولهم : استوسق الأمر : اجتمع وقوى .

والوقس : ابتداء الجرب ؛ وفى ذلك شدة على من يصيبه وبلاء .

والسوق : متابعة السير ، وفى هذا عناء وشدة على السائق والمسوق .

والقسوة : شدة القلب وغلظه

والقوس : معروفة ؛ وفيها نوع من الشدة والقوة لنزع السهم وإخراجه إلى ذلك المرمى المتباعد

وسقط من جملة التراكيب قسم واحد وهو سقو .

وليس هذا يطرد فى جميع اللغة بل قد جاء شىء منها كذلك ، وهذا يدل

---

(١) جنان الجناس — ١١ — ١٢ — ١٣

على شرفها وحكمتها ؛ لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقاليب وهي مع ذلك دالة على معنى واحد .

وهذا من أعجب الأسرار التي توجد في لغة العرب وأغربها ، إلا أن الاستعمال في النظم والنثر إنما يقع في الاشتقاق الصغير دون الكبير ؛ وسبب ذلك : أن الاشتقاق الصغير تكثر الألفاظ الواردة عليه ، والاشتقاق الكبير لا يكاد يوجد في اللغة إلا قليلا .

وأيضا فإن الحسن اللفظي الذي هو الفصاحة ، إنما يقع في الاشتقاق الصغير ولا يقع في الاشتقاق الكبير (١) .

ويقول ابن جني في مادة قول وكلم : إن معنى قول — أينما وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخرها عنه — إنما هو للخفوف والحركة .

وجهة تراكيبها الستة ، وهي قول . قلو . وقل . واق . لقو . لوق مستعملة كلها لم يهمل شيء منها .

وأما كلم فهذه أيضا حالها ، وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة ، والمستعمل منها أصول خمسة وهي كلم . كمل . لكم . مكل . ملك ، وأهملت منه لمك فلم تأت منه في ثبت .

فهذه أحكام هذين الأصلين على تصرفهما وتقلب حروفهما ، ومنه يرى غور هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، ويعجب من وسيع مذاهبها ، وبديع ما أمد به واضعها ومبتدئها (٢) .

ويقول أيضا تحت عنوان «تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني» : هذا فصل من فصول العربية حسن كثير المنفعة قوي الدلالة على شرف هذه اللغة ، وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة فتبحث عن كل اسم منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه .

---

(١) المثل السائر — ٣٠٣ — ٣٠٤

(٢) الخصائص — ج ١ — ص ٤ — ١٢ — ١٥

وكذا تجد أيضا معنى المسك ، وذلك أنه فِعْل من أمسكت الشيء ، كأنه لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ، ولا يعدل بها صاحبها عنه .

ومنه عندي قولهم للجلد : مسك بفتح الميم ، فهو فَعْل من هذا الموضع ألا ترى أنه يمسك ما تحت جسم الإنسان وغيره من الحيوان ، ولولا الجلد لم يتماسك ما في الجسم من اللحم والشحم والدم وبقية الأمشاج وغيرها (١) .

ولا شك أن ما حاولوه من إيجاد روابط بين أصوات الكلمات ومعانيها لا يمكن أن يتحقق في كل المواد ، بل إن الكلمات التي وفّقوا للعثور على وجود صلات بينها وبين ما تدل عليه لا يصعب على المدقق الفاحص أن يزيف بعضها ، ولكن ذلك على كل حال يهدينا إلى أن كثيرا من الكلمات المتجانسة المتباينة في معانيها والتي يجمعها أصل واحد كما في الاشتقاق الكبير ، أو تتقارب في الشكل كما في جناس القلب ، بينها روابط وثيقة تتجاوز أحيانا التشاكل في النغم الموسيقي إلى لحمة القرابة في المعنى .

تعريفه :

عرفه أرباب البديع بعبارات مختلفة اللفظ متفقة المعنى :

قال ابن المعتز : هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام : أي أن تشبهها في تأليف حروفها (٢) .

وقال قدامة : هو أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة (٣) .

وقال العسكري : أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسبما ألف الأصمعي في كتاب الأجناس (٤) .

وقال ابن الأثير : حقيقته أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا (٥) .

وقال ابن سنان الخفاجي : هو أن يكون بعض الألفاظ مشتق من

---

(١) الخصائص — ٥٠٧
(٢) البديع — ١٧
(٣) نقد الشعر — ٩٦ — ٩٧
(٤) الصناعتين — ٣٠٨
(٥) المثل السائر — ٩٩

بعض إن كان معناهما واحدا ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى [1] .

وقال بدر الدين بن النحوية فى ضوء المصباح : هو أن يؤتى بمتماثلين فى الحروف أو بعضها ، متغايرين فى أصل المعنى فى غير رد العجز على الصدر .

وقال الرمانى : هو بيان المعانى بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة [2] .

ولم يرض الصلاح الصفدى كل هذه التعاريف فقال : أما حدّ الرمانى فإنه أسلمها لكنه غير جامع ؛ لأنه يخرج عنه جناس التصحيف والتصريف ، والجناس المركب ، وجناس المعنى ، والجناس المطمع .

وأما حد قدامة فإنه عرف الشىء بنفسه ، وهذا غير جائز لأن قوله : فى ألفاظ متجانسة يفضى إلى الدور ، لأننا لانعرف المتجانس إلا بعدمعرفة الجناس ، فأدى ذلك إلى الدور وهو محال .

ويمكن الجواب عن ذلك بأن يقال : إنه ماأراد المتجانس فى الاصطلاح بل المتجانس فى اللغة : أى فى الألفاظ المتشابهة .

وعلى كل حال فهو حد مضطرب إذ فيه لفظ موهم والحدود يتجنب فيها مثل ذلك .

وقوله : « على جهـــة الاشتقاق » يخرج عنه جميع أنواع الجناس إلا الجناس المشتق .

وأما حد ابن المعتز فهو أيضاً تعريف دورى وذلك غير جائز فى صناعة الحدود والرسوم .

وأما حد ابن الأثير فهو أيضاً غير جامع ، لأنه يخرج عنه مثل الجناس المزدوج والخطى والمعنوى .

وأما حد بدر الدين بن النحوية فإن قوله : « متماثلين » يشمل المماثل مطلقاً سواء أكان لفظاً أو معنى .

---

(١) أسرار الفصاحة — ١٨٣ (٢) جنان الجناس — ١٥

وقوله : « فى الحروف » فصل يخرج به المماثل معنى .

وقوله : « أو بعضها » مدخل للجناس المطمع والمخالف والاشتقاق .

وقوله « متغايرين فى أصل المعنى » لافائدة فيه ، لأن هذا معلوم من قوله متماثلين فى الحروف . أى دون معناهما لكن فيه زيادة بيان .

وقوله : « فى غير رد العجز على الصدر » لاحاجة إليه ؛ لأن تلك الأحرف التى رددتها من عجزها على صدرها فى الآية أو السجعة أو البيت معناها باق لم يتغير ، فلافائدة فى هذا الاحتراس كما سيظهر فى التمثيل .

ولو زاد على قوله : « بمتماثلين فى الحروف أو بعضها » أن يقول : أو صورتها لكان أجود ، ليدخل فيه الجناس الخطى ، لأنه إن كان ركنا الجناس متماثلين فيه فإن ذلك إنما هو فى الصورة لا فى الحقيقة ، لأن الحروف المهملة مغايرة للحروف المعجمة وصورتهما واحدة .

ثم زاد الصفدى على ذلك : بأنه لا دخول لجناس المعنى فى حد ابن النحوية ولا فيما حده الباقون [1].

وقد لفق الصفدى تعريفاً للجناس قال فيه : والذى أختاره أنا فى رسم الجناس أن أقول : هو الإتيان بمتماثلين فى الحروف أو فى بعضها ، أو فى الصورة ، أو زيادة فى أحدهما ، أو بمتخالفين فى الترتيب أو الحركات ، أو بمماثل يرادف معناه مماثلا آخر نظما .

وعقب على ذلك يحلله بقوله :

فقولى : « متماثلين » : جنس يشمل المماثل لفظا ومعنى .

وقولى : « فى الحروف » : فصل أخرج المماثل معنى كقولك : زيد وزيد وأدخل الجناس التام كقولك : يحيا يحيي ، والجناس المركب كقولك : نعمته ذاهبة ، إن لم يكن ذاهبة .

وقولى « أو بعضها » أدخل الجناس المطمع كقولك الأمواه والأموال والجناس المقارب كقولك : الهموم على قدر الهمم .

(١) جنان الجناس — ١٩

وقولى : « أو فى الصورة » أدخل الجناس الخطى كقولك : لا تضع يومك فى نومك .

وقولى : «أو زيادة فى أحدهما » أدخل الجناس المزدوج كقولك : الماء من الأحجار جار .

وقولى : « أو بمتخالفين فى الترتيب » أدخل الجناس المخالف كقولك : بيض الصحائف والصفائح .

وقولى : « أو الحركات » أدخل الجناس المغاير كقولك : اغتنم هبات الهبات .

وقولى : « أو بمماثل يرادف معناه مماثلا آخر » أدخل الجناس المعنوى كقول المتنبى :

حاولن تفديتى وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق ترائبا

أراد أن يقول : فوضعن أيديهن فوق أفئدتهن ، ليجانس بينها وبين تفديتى فلم يستقم له الوزن ، فعدل إلى ما يجاور الأفئدة وهى الترائب .

وقولى : « نظما » : إعلام بأن هذا النوع من الجناس «المعنوى» إنما يجىء فى النظم دون النثر[1] .

وتعريف الصفدى الذى باهى به مما يستعاذ بالله منه ! فهو سلسلة طويلة من المعطوفات مملة متوعرة معقدة ، والذى دعاه إلى ذلك حرصه الشديد على أن يأتى به جامعا مانعا فوقع فى أقبح مما فر منه ، ولو كان التعريف يأتى على هذه الصورة لكان من الخير أن تترك الأشياء غفلا من التعريف !

وقد عرفه السكاكى تعريفا موجزا وهو : تشابه الكلمتين فى اللفظ[2] .

وعرفه الخطيب : بأنه تشابه اللفظين فى اللفظ[3] .

وبمثل هذا عرفه السيوطى أيضا[4] .

والمراد باللفظ : النطق ، وباللفظين : ما لفظ به ، وهو أعم من أن

---

(١) جنان الجناس — ١٩ — ٢٠
(٢) المفتاح — ٢٢٧
(٣) الإيضاح — ٢٨٢
(٤) الإتقان — ٢ — ١٥٣

يكون كل منهما كلمة واحدة أو أكثر ليدخل الجناس المركب .

والتشابه فى اللفظ يخرج به التشابه فى المعنى نحو أسد وسبع ، أو فى مجرد عدد الحروف نحو ضرب وعلم ، أو فى مجرد الوزن نحو ضرب وقتل ، وتكرار اللفظ نحو رجل رجل ؛ فإن التشابه يقتضى التغاير بين المتشابهين .

ولكن هذا التعريف لم يسلم من المؤاخذة أيضا ، فقد اعترض عليه ابن السبكى : بأنه يدخل فى هذا الرسم ، التأكيد اللفظى ، هذا إلى أنه غير جامع لخروج نحو : يحيا يحيى ؛ أحدهما اسم والآخر فعل ، فإنهما فى اللفظ متحدان لا متشابهان بل شىء واحد .

ثم إن مطلق المشابهة فى اللفظ تصدق بما ليس بجناس ، كما إذا كانا متفقين فى لام الكلمة فقط أو عينها أو فائها[1] .

ولعل أحسن تعريف له وأيسره وأدناه إلى الكمال قول العلوى : هو اتفاق اللفظين فى وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما[2] .

على أن بعض البديعيين فر من تعريف الجناس الشامل لأنواعه جميعا لعدم توفيقه إلى حد يكون جامعا مانعا مع الوجازة والسهولة والإصابة ؛ فاكتفى بتعريف كل نوع منه على حدة ، ولا شك أن تعريف النوع الواحد ساذج يسير لأنه محدود .

فقال ابن رشيق[3] : التجنيس : ضروب كثيرة ، منها المماثلة ، وهى أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ، إلى آخر ما قال فى بقية الأنواع .

وقال الرازى : المتجانسان : إما أن يكونا كذا وكذا[4] . . .

وقال الحموى : وأما حدود أنواع الجناس ، فقد اختلفت فيها عبارات البديعيين ، ولكن نأتى بحد كل واحد من الأنواع فى موضعه[5] .

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٣
(٢) الطراز — ٣ — ٣٥١
(٣) العمدة — ١ — ٢٢٠
(٤) نهاية الإيجاز — ٢٨
(٥) خزانة الأدب — ٢٧

الفصل الثانى

أصالة الجناس

عدّ ابن المعتز(1) الجناس من أنواع البديع الخمسة التى تحل الصدارة ؛ وهى الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامى .

وقد عرض لتعريف التجنيس ، وشرح كيفية مجانسة الكلمة للكلمة ، وساق له أمثلة نثرية من القرآن الكريم والحديث النبوى وأقوال الصحابة والأعراب وبلغاء المحدثين ،وأمثلة شعرية من آثار الجاهليين والإسلاميين والمولّدين ، كما عرض لبعض أقسامه بالتعريف ولبعضها بالتمثيل ، ولم ينس أن يورد أنواعاً للتجنيس المعيب .

وقد أشار ابن المعتز إلى أن الجناس مع ما ذكره من أنواع البديع قد سبق إليها المتقدمون ، وأن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يَسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه .

وقد ذكر ابن رشيق : أن ابن المعتز هو أول من نحا هذا النحو فى الجناس وجمعه ، ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب ؛ يدلك على ذلك ماحكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه : وذلك أنه قال له يوما : أنا أشعر منك !

قال : وكيف تكون أشعر منى وأنا علمتك عطف الرجز !

قال : وما عطف الرجز ؟

قال : عاصم . ياعاصم . لو اعتصم .

---

(1) البديع — 1 — 17

قال : يا أبت ، أنا شاعر ابن شاعر ، وأنت شاعر ابن مفحَم !
فغلبه !

فأنت ترى كيف سماه عطفا ولم يسمه تجانسا [1] .

ويقول ابن السبكي : هو استعمال اصطلاحي يدل عليه أن ابن سيدة قال في المحكم : الجنس : الضرب من كل شيء وجمعه أجناس وجنوس [2] .

ويشير الدكتور إبراهيم سلامة : إلى أن أرسطو في الفصل الحادي عشر من الكتاب الثالث في الخطابة فكّر في الجناس حيث يقول : إن معظم النكت البلاغية التي نلمحها في الصورة والنقل ، بلاغتها في المخاتلة التي يلجأ إليها الأديب ، فإذا انتظرنا من الأديب معنى فخاتلنا عليه ليأتي بمعنى آخر مضاد له ، تأثرنا به وتأثرنا بكلامه أكثر من غيره ، وكأننا من أثر هذه الدهشة وتلك المخاتلة نقول : ما أحق ما يقول وما أصدقه ، إننا نحن الذين أخطأنا الفهم لا الأديب .

ثم يقابل الدكتور بين هذه الفقرة وبين ماقاله عبد القاهر في سر جمال التجنيس : قد أعاد الأديب عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزد شيئا وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس من حلي الشعر ومذكورا في أقسام البديع .

وقد خرج من هذه المقابلة على أن عبد القاهر تأثر خطا المعلم الأول .

ثم يقرر زيادة على ذلك : أنه ليس للجناس معنى إلا التلاعب بالألفاظ المشتركة المعنى أو قريبته .

وهذا التلاعب يعلق أرسطو عليه كثيرا ويذكره كثيرا ، وإن كانت دلالته عند أرسطو أعم وأشمل من دلالته عند العرب ، إلا أن الجناس في نظره من هذا التلاعب ؛ استمع إليه يقول — عند تحليله لإحدى خطب « فيليب » — : إن هذه الكلمة لم يحتفظ بمعناها الأول ولكنها تحملت معنى آخر عند إعادتها .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢٧ (٢) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٢

ويقول أرسطو فى موضع آخر : إن الكلمة المشتركة فى المعنى مع كلمة أخرى إذا اقتيدت بمهارة إلى معنى آخر مغاير لمعناها الأصلى ، فذلك كل ما نرجو للبلاغة .

ثم يتساءل الدكتور بعد هذا : أكان الجناس منقولا عن البلاغة اليونانية؟

وقد أجاب عن ذلك : بأن أغلب الظن أنه كذلك ، بل وكل الشواهد تدل على أنه كذلك .

وطبيعى أنه يقصد بالجناس المنقول : القواعد العامة وتطبيقها على البيان العربى .

ومع هذا يصرح الدكتور : بأنه بقى للعرب فضلان :

أولها : الدقة العلمية فى التقسيم والتحديد ، لأن بعض فقرات أرسطو لا يعبر عن الجناس وحده ، بل تشمل الاستعارة والطباق والمقابلة .

وثانيها : إيراد العرب شواهد مستمدة استمدادا مباشرا من أدبهم ومن كتابهم وآثارهم [1] .

ونحن لا ننكر تأثر العرب بآثار أرسطو بعد ترجمتها ، وبخاصة عبد القاهر حتى لقد قال الدكتور طه حسين : لم يكن عند ما وضع كتابه أسرار البلاغة فى القرن الخامس إلا فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه [2] .

ولكننا مع ذلك نميل إلى اعتقاد أن الجناس فن عربى خالص لا شوب فيه من البيان اليونانى ، لأسباب نذكرها فيما يلى :

١ — يعد الجناس فى جملته من البلاغات الفطرية التى تجرى على الألسنة بلا كد ولا تعمل ولا روية ، وآية ذلك أننا نجد الدهماء والحشوة والنساء والعامة والصبية يأتون به فى أحاديثهم ومناقلاتهم وأغانيهم وبخاصة جناس الاشتقاق والملحق به دون أن يفطنوا إلى ذلك .

فهم يقولون مثلا : الله يسلمك ردا على قولك : سلامات .

---

(١) كتاب الخطابة ـــ ٧٦ — ٧٧ — ٧٨

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ـــ ١٤١

ويقولون : نعامة ترفصك — فى حالة الغضب — ردا على قولك : نعم

ويقولون : حضر الله لك الخير ردا على قولك : حاضر .

وهكذا .

٢ — غزارة شواهده فى الأدب العربى قديمه وحديثه حتى لتكاد تجل عن الحصر مما يدل على حب العرب لهذا اللون من الكلام .

٣ — اللغات القديمة كالعربية واليونانية أكثر توقيعا وغناء من اللغات الحديثة بكثير .

٤ — اللغة العربية مثرية بالألفاظ المشتركة فى الصيغ والمختلفة فى المعنى وهذا يساعد على اصطناع الجناس .

٥ — اللغة العربية لغة أناقة وزخرف ومبالغة وتهويل ، والنغم والوزن والموسيقية والرنين من عناصرها الرئيسة ، وفيهـــا من القوافى المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره فى سائر اللغات كما يقول البستانى [1]

وذلك يجعلنا نحكم بأن هذه اللغة فى طاقتها أن ترفد المجنس بالكسر بأدوات التجنيس ، وتعينه على بلوغ الشأو فيه .

٦ — شغف العربى بالغناء والإيقاع ، والجناس شعبة من ذلك بسبب مجاورة المتماثلين من الكلمات ، حتى لتأتى الكلمة الثانية خلوا من المعنى حينا كقولهم : ذو حصاة وأصاة .

فالحصاة العقل والرزانة ، والأصاة لم يسمع لها اشتقاق [2] .

وهذا يدلنا دلالة قوية على أن العرب كانوا يهتمون بالتسجيع والتجنيس إلى الحد الذى لا يرون منه بأسا أن يتمموا بنيته بألفاظ لا معنى لها [3] .

٧ — لم نعثر على شاهد واحد من الجناس اليونانى فيما وصلنا من كلام العرب على حين نجد شيئا من ذلك فى التشبيه والمجاز مثلا ؛ فعندما يقرر أرسطو : أن المجاز يقوم على التشبيه يقول : عندما يقول : هوميروس فى حديثه عن أخيل : كر كالأسد ، فهذا تشبيه ، وعندما يقول : كر هذا الأسد

(١) مقدمة الإلياذة — ٩٥ (٢) فن الأسجاع — ١ — ١٢

(٣) الإتباع والمزاوجة — ٢٤

فهذا مجاز ، لأنه لما كان الرجل والحيوان فى هذا المثال ممتلئين شجاعة صح أن يسمى أخيل أسدا على سبيل المجاز .

خذ أى كتاب من كتب البيان العربى فستجد فيه هذا المثال ، سوى أنه قد استعمل فيه لفظ « زيد » المألوف فى شواهد البلاغة والنحو بدلا من « أخيل »[1] .

فلو أن الجناس كان منقولا عن اليونان لعثرنا على أثر هذا النقل ولو فى مثال واحد .

٨ — تعريف الجناس وتقسيمه من صنع ابن المعتز ، والقائلون بالنقل عن اليونانية معترفون بأنه لم يطلع على آثار أرسطو .

٩ — بقيت شبهة المشابهة بين ماقاله أرسطو وما قاله عبد القاهر فى سر جمال الجناس ونكشفها فيما يأتى :

(ا) ليس لما قاله أرسطو فى سر جمال الجناس قيمة عظيمة حتى يصح أن يقال : إنه مما ينبغى أن يستأثر به المعلم الأول من الأفكار الدقيقة العميقة التى عرف بها .

(ب) بعض ماقاله أرسطو فى الجناس لا يتسم بالدقة والتحديد الذى قاله العرب فيه ؛ فعبارة أرسطو عامة تشمل الاستعارة والطباق والمقابلة أيضا كما يصرح الدكتور سلامة .

(حـ) لم يعرض أرسطو فى التحدث عن سر جمال الجناس لغير النوع التام منه ، على حين ذكر بلغاء العرب أسباب سر الجمال فى كثير من أنواعه.

(د) الحكم بأن ما قاله عبد القاهر فى هذا السبيل مأخوذ من كلام أرسطو فيه حجر على الأفكار والأذواق ،وقضاء صارم بعدم توافق الخواطر وهى كثيرا ما تتوافق !

وأشهد أنى قبل الاطلاع على ما قاله أرسطو وغيره استطعت أن أعلل سر جمال الجناس بالذوق ، فما الظن بمثل عبد القاهر الموسوم بسلامة الفطرة وخصب القريحة ودقة الفكر وعمق الغوص وحسن التعليل !

---

(١) مقدمة نقد النثر — ١٢

الفصل الثالث

قيمة الجناس

اختلف البديعيون فى قيمة الجناس ، ولعلهم لم يختلفوا فى شىء إفراطا وتفريطا كما اختلفوا فيه .

قال العلوى : هو عظيم الموقع فى البلاغة جليل القدر فى الفصاحة ، ولولا ذلك ما أنزل الله كتابه المجيد على هذا الأسلوب ، ولا اختاره له كثيره من سائر أساليب الفصاحة .

وهو من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغرة فى الفرس [1] .

ولا ندرى معنى لاحتجاج العلوى بأسلوب القرآن على قيمة الجناس ؟ فالجناس أقل أنواع الحلى ورودا فى القرآن الكريم ! ويكون كلامه هذا من المبالغات السمجة ! فإن كان يعنى بذلك : البديع جملة بما فيه الجناس فلا معنى لأن يفرد الجناس بهذه المزية من بين إخوته وكان قادرا أن يحسن التعبير عما يريد .

وقال الأندلسى : إن الجناس أشرف الأنواع اللفظية [2] .

وقال ابن السبكى : وكفى التجنيس فخراً قوله — عليه الصلاة والسلام — « غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعُصيه عصت الله . »

وقال نقلا عن صاحب كنوز البلاغة — : ولم أر من ذكر فائدته ، وخطر لى أنها الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا إليها

---

(١) الطراز — ٣ — ٣٥١ (٢) شرح عقود الجمان — ١٤٩

ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء — والمراد به معنى آخر — كان للنفس تشوف إليه[1] .

وذكر بعض أهل الأدب والكلام : أن البلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز والتشبيه والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان[2] .

فعده من أقسام البلاغة .

وأكثر البلاغيين مدحا له صلاح الدين الصفدى ، وقد ألف فيه كتابه « جنان الجناس » .

وقد جاء فى مقدمته — يذكر فضل البديع — : خصوصاً نوع التجنيس الذى هو ركن شريعته وبيان شرعته ، وديباجة صنعائه فى صنعته وآية سجدته ، وغاية سجعته ، وغيات نجدته ، تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته ، وتعترف الشعراء برفع محله ومحل رفعته ، وتدخل به الألفاظ الفصيحة الأذن بغير إذن لشفاعة حقه وحق شفعته ، فله فى كل خلوة جلوة ، وفى كل خطوة حظوة ، إن دخل فى خطبة توجها ، أو قصيدة دبجها أو شبهة روجها ، أو وضع فى الطروس نمقها ، أو نسخ كلمة جاء بخير منها وحققها ، فهو فى البديع خال خده وطراز برده ، وفص خاتمه ، وجود حاتمه ، وسجع حمامه ، وسح غمامه ، وزهر كمامه ، وقمر تمامه ، متى عد فى القصيدة بيت كان الجناس طرازه ، ومتى طاف بالبلاغة متكلم كانت أركانه كعبته ، وحجابه حجازه ، ومتى كان للسحر الحلال باب كان فى الحقيقة إليه مجازه ، قد أخذت أفراد محاسنه بمجامع القلب ، ودخلت على كل لب بهمزة السلب ، فهو نوع فيه على الحسن عون يكسب اللفظ رونقا وطلاوة وبه لا تزال حور المعانى فى حلى وحلة وحلاوة[3] . .

وفى هذا الكلام ما يدل على إيثار الصفدى لهذا اللون البديعى ومبلغ تعصبه له .

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٣ — الإتقان — ٢ — ١٥٣

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى — ٢٠٢ (٣) جنان الجناس — ٨

ولم يقصر ابن الأثير فى مدحه فقال : اعلم أن التجنيس غرة شادخة فى فى وجه الكلام [1] .

وقال فى الفصل الذى سماه « فى آلات علم البيان وأدواته » : يحتاج البيانى إلى معرفة الأسماء المشتركة ، ليستعين بها على استعمال التجنيس فى كلامه ، وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات كالعين فإنها تطلق على العين الناظرة ، وعلى ينبوع الماء ، وعلى المطر وغيره [2] .

ويقول : فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين، فالبيان يحصل بالألفاظ المتباينة التى هى كافية فى الإفهام .

وأما التحسين فإن الواضع لهذه اللغة العربية التى هى أحسن اللغات ، نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ورأى أن من مهمات ذلك : التجنيس ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التى هى كل اسم واحد دل على مسميين فصاعدا [3] .

وتابعه العلوى فى مدح الاشـــتراك فقال : يرد الاشتراك من أجل الاختصار لاشتمال الكلمة الواحـدة على معان كثيرة ، ويرد من أجل التجنيس والازدواج فى أعجاز الكلم العربية ، ويرد لمقاصد عظيمة ليس من همنا ذكرها ، وفيه معان بديعة ومقاصد للفصحاء بالغة ، يدركها من رسخت قدمه فى هذه الصناعة [4] .

والغلو واضح فى قول ابن الأثير ، فلا يرتفع الجناس إلى هذه المكانة التى وضعه فيها ، بل لا يرتفع نوع بلاغى إلى الحد الذى يضع الواضع الألفاظ من أجله وتصبح اللغة خادمة له .

وكثيرا ما ينساق ابن الأثير مع المبالغـــة فيما يميل إليه حتى يجاوز الغاية المحمودة .

وقد رد عليه ابن أبى الحديد ردا مفحما فقال : لا نسلم بأن تقدير انهدام

---

(١) المثل السائر — ٩٩ (٢) المصدر المتقدم — ٨

(٣) المصدر المتقدم — ١١ — ١٢ — ١٣ (٤) الطراز — ١ — ٢٨

الألفاظ المشتركة يذهب التجنيس من الكلام ، ويزيل رونقه وبهاءه كما زعم هذا الرجل .

وبيانه أن التجنيس يحصل بتشابه لفظتين فى الحروف الأصلية وإن كانت فى إحداهما زوائد ليست فى الأخرى مثل قول أبى تمام :

متى أنت عن ذهليَّة الحى ذاهل

وقوله :

تَطُلّ الطلول الدمعَ فى كل موقف

وقوله :

منازل لم يُخف الربيع ربوعها

فذهلية : منسوبة إلى ذُهل اسم رجل ، وذاهل : فاعل من ذهِل عن الأمر يذهَل .

ويطل الطلول كذلك ، لأن يطل مضارع طل دمَه : أى أهدره ، والطلول : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار .

وكذلك الربيع وهو العشب ، والربوع : جمع ربع وهو المنزل .

فهذه كلها تتضمن التجنيس وليست من المشتركات ، لأنها ليست لفظتين متماثلتين دالتين على مسميين مختلفين كلفظة العين ، وأكثر التجنيس فى الشعر والرسائل مثل هذا ، ولا يستعمل فيه التجنيس بالمشترك إلا فى النادر .

وأيضاً فلو كان كل تجنيس فى الذهن بالمشترك فقط ، لم يكن ذلك من المقصودات الأصلية التى تقتضى وضع المشترك ، مع ما فيه من تردد فهم السامع وعدم معرفته ، فإن محذور ذلك أعظم من تزويق اللفظ بالمشتركات ، خصوصا ويمكن استدراك غير اللفظ بغير التجنيس كالمطابقة والمقابلة وغيرهما من أنواع البديع .

والعجب من قول هذا الرجل : إن عدم التجنيس يذهب حسن الكلام ، وقوله : إن واضع اللغة نظر إلى ما تحتاج إليه الفصاحة والبلاغة ، فوجد من مهمات ذلك : التجنيس الذى لا يقوم إلا بالأسماء المشتركة ، وهو يرى

القرآن عارياً عن التجنيس وهو أحسن الكلام وأفصحه وأبلغه كما قال ـ تعالى ـ « الله نزل أحسن الحديث . . . . » .

وليت شعرى كيف تحتاج البلاغة إلى التجنيس ! أتراه يعلم ما البلاغة ؟ ألم يسمع كلام عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع ومن جاء بعدهما من الكتاب ، ومن كان قبلهما من فصحاء العرب الذين كلامهم محض البلاغة ، فهل يرى لأحد منهم تجنيساً فى كلامه ؟ اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقاً غير مقصود[1] .

وقد استهجنه قوم منهم الشيخ زين الدين عمر بن الوردى فقال :

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذى امتناع

ولا تقصد مجانسة ومكّن قوافية وكله إلى الطباع

وكان الأسعد بن ممّاتى لا يصطنعه فى نظمه ، وقد هجا المجنّسين بقوله :

طبع المجنّس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف[2]

وقد عابه من النقاد العصريين الدكتور مندور فوصفه : بأنه إما عبث لفظى يعتمد على الاشتقاق ولا يستند إلى غير التداعى الشكلى كقول الشاعر : . . . خلجت على الخليج نفوسهم !

وإما لعب بالمعانى ومهارة فى استخدام مفردات اللغة المتحدة أو المتقاربة فى اللفظ والمختلفة فى المعنى كقول الآخر :

إن لوم العاشق اللوم

أو :

جلا ظلمات الظالم عن وجه أمة[3] .

وأكبر من حمل لواء ذمه ابن حجة الحموى ، وتعصبه عليه يساوى تعصب الصفدى له .

---

(١) الفلك الدائر على المثل السائر — ١٣

(٢) كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام — ٤

(٣) النقد المنهجى عند العرب — ٣٦

يقول فى التورية ـ وكان من عشاقها ـ ولكنى رأيت جماعة من القاصرين قد عدلوا عنها إلى الجناس وهو سافل بالنسبة إلى علو مقامها فى البديع !

ويقول : والجناس غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك اشتقاق الألفاظ ، فإن كلامنهما يؤدى إلى العقادة والتقييد من إطلاق أعنة البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة .

ويقول فى موضع آخر : ولا بأس به فى مطلع القصائد إن تعذّر على الناظم أن يُركبه تورية ، فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ـ كما قرر مشايخه ـ مثل التورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وما قارب ذلك من أنواع البديع .

ويقول فى موضع ثالث : ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعانى نزلت منزلة الأطلال البالية ! وما أحلى قول القاضى الفاضل :

إنما الدار قبلُ بالسكان ... ثم بعد السكان بالجيران (١)

فإذا ما الأرواح شردها الحتف م ... فماذا يراد بالأبدان

وقد انبرى الحموى للصفدى يسفه رأيه فى استحسان الجناس فقال : وكان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستحسن ورمه ويظنه شحما ، فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره ، ويأتى فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور كقوله ـ غفر الله له ـ :

وأين إذا كان الفراق معاندى ... مَطالع نام فى مَكان عَناء

وكم شمت لما قست مقدار ودكم ... بوارقَ ياس فى بوار قياس

وقوله فى الراح :

وكم لبست نفس الفتى بمدنورها ... مدارعَ قار فى مدار عُقار

(١) خزانة الأدب ـــ ٢٥ ـــ ٢٦

وقوله :

ومر على غيري سقام وصحة ولم يُرقان مثـــل ذي يرقان

قال الحموى : ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت والذى قبله : وهو الضعيف باليرقان ، وإن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين .

وقال : وما أظرف ما وقع له مع الشيخ جمال الدين بن نباته ، وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى « جنان الجناس » - وقد اشتمل على كثير من هذا النوع - قرأه : « جنان الخناس » !

وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه !

وهذا مما يؤيد قولى : إنه - أى الجناس - غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله .

ثم واصل الحموى حملته عليه فقال : ومن غريب ما يحكى : أن الشيخ صلاح الدين الصفدى مع تهافته على الجناس والتزامه بما صنعه فى جنسه وأنواعه زاحم ابن مماتى فى لفظ بيته ومعناه :

طبع المجنس فيه نوع قيادة أو ترى تأليفه للأحرف

فقال :

ألا إن من عانى القريض بطبعه يقود فأرسله لمن صد واحتشم

ألم تره إن قال شعراً مجانسا يؤلف ما بين الحروف إذا نظم

فانظر كيف أخذ المعنى وغالب الألفاظ ، ولم يتمكن من نظم ذلك إلا فى بيتين أتى فيهما بكثرة الحشو مع قلة الأدب على أهله ، فإن الأسعد أثبت القيادة لطبع المجنس ، والشيخ صلاح الدين أثبت الحكم المذكور لمن يعانى نظم الشعر[1] .

ويقول ابن رشيق — فى بعض أنواعه — : وهذا أسهل معنى لمن حاوله وأقرب شيء من تناوله من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو مما لا

(١) خزانة الأدب — ٢٧

يشك فى تكلفه ، وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون فى نثرهم ونظمهم حتى بردوا بل تدرّكوا ، فأين هذا العمل من قول أبى نواس :

سكرت من لحظه لا من مدامته ... ومال بالنوم عن عينى تمايله
وما السلاف دهتنى بل سوالفه ... ولا الشمول أزدهتنى بل شمائله
ألوى بصبرى أصداغ لوين له ... وغلّ صدرى ما تحوى غلائله

فما كان من التجنيس هكذا فهو الجيد المستحسن ، وما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة فيه [1] .

وهناك رأى وسط بين الرأيين يدور مع حسن الجناس كيفما دار ، وهو أعدل الآراء وأصوبها .

يقول عبد القاهر . . . تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه إذ الألفاظ خدم المعانى والمصرفة فى حكمها وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشىء عن جهته وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين [2] .

ويقول الخفاجى : والمحمود منه ما قل ووقع تابعاً للمعنى غير مقصود فى نفسه .

ويقول : وهذا إنما يحسن فى بعض المواضع إذا كان قليلا غير متكلف ولا مقصودا فى نفسه .

وقد استعمله العرب المتقدمون فى أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلهج به مسلم بن الوليد الأنصارى ، وأكثر منه ومن استعمال المطابق والمخالف وهذه الفنون المذكورة فى صناعة الشعر ، حتى قيل : انه أول من أفسد

(١) العمدة — ١ — ٢٢٦ (٢) أسرار البلاغة — ٥

الشعر ، وجاء أبو تمام فزاد على مسلم فى استعماله والإكثار منه حتى وقع له الجيد والردىء الذى لا غاية وراءه فى القبح[1] .

ويقول التنوخي : وهو من أقسام البديع ويتعلق بتحسين الألفاظ ؛ فإذا تكلفه المتكلم — غير مخل بالبيان — اجتمع الحسن والبيان ، وهو أشرف من البيان ولا حسن ، وإن أخـــل متكلفه بالبيان كان البيان أشرف منه[2] .

ويقول ابن السبكي : كل مايستحسن من البديع إذا كثر سمج كالتجنيس والمطابقة[3] .

ويقول الشهاب محمود : إنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة[4] .

ويقول السيوطى : نبهت من زيادتى على أن الجناس نوع متوسط فى البديع ليس كالتورية والاستخدام والطباق ونحوها ، واتفقوا على أنه يحسن إذا قل ، فإن كثر سمج وخرج إلى حد النزول[5] .

ويقول المرشدى : لاينبغى أن يقع الصنف الواحد بين أكثر من لفظين وألا يحذو الثالث إلا حيث يكون المعنى يقتضى اقترانات أشياء يصدق عليها لفظه باشتراك وتواطؤ ، فيكون فى اقتران تلك الأشياء — على وجوه من التعلق — تحسين للمعنى ، فيعبر عن تلك الأشياء على جهة تحسين أو ترديد ونحوه ، فأما مافوق ذلك فمكروه عندهم ، وأما مقدار مايستعمل فى القصيدة من أصناف التجنيس فينبغى أن لا يعتنى بكثرته كل العناية، وأحق التجنيس أن يحتمل تكراره المشتق والملحق به ، وأحقها بالإقـــلال المركب والمصحف[6] .

ويقول العباسى[7] : ثم إن التجنيس إنما يستحسن إذا كان سهلا لا أثر

---

(١) أسرار الفصاحة — ١٨٣ — ١٨٧
(٢) الأقصى القريب — ١١١ — ١١٢
(٣) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٣
(٤) خزانة الأدب للحموى — ٢٥
(٥) عقود الجمان — ٢ — ١٥١
(٦) المرشدى على العقود — ٢ — ١٤٨
(٧) معاهد التنصيص — ٨٢

للكلفة عليه ، وأما إن خرج عن هذا الحد فإنه معيب عند أهل النقد ، ويذهب بهجة الشعر وحسنه ، وهذا وقع فى أكثر شعر المتأخرين .

وقد حكى صاحب الحديقة : أن ابن حنديس أخبره أن عبد الله بن مالك القرطبي عمل قصيدة يقول فيها :

وحييت إذا حيَّيت حادى عيسهم   فكأن عيسى من حداة العيس

فقال فيه بعض الشعراء :

ثقلت بالتجنيس خفة روحها   ما كان أغناها عن التجنيس

ولحبك التجنيس جئت ببدعة   فجعلت عيسى من حداة العيس

وقد حمل ابن خلدون حملة شعواء على كتاب المشرق وشعرائه فى عهده لكلفهم بهذا التصنيع .

وعلل ذلك باستيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقة مقتضى الحال وعجزهم عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة .

ورماهم بأنهم لا يبالون أن يخلوا بالأعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معاً ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادق التجنيس[1] .

ويرى الحموى : أن الجناس يمكن إضفاء الحسن عليه إذا تضمن تورية وقد فصل رأيه بقوله . . . غير أن هنا بحثا لطيفا ، وهو أنه قد تقرر أن ركنى الجناس يتفقان فى اللفظ ويختلفان فى المعنى ، لأنه نوع لفظى لا معنوى وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ، والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة ، فإذا جعلت الجناس تورية انحصر المعنيان فى ركن واحـــد وخلصت من عقادة الجناس وحركت الإذواق ، وأبهجت خواطر السامع بما أتحفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها .

---

(١) المقدمة — ٦٦٤

ومثّل لذلك بما كتبه القاضى بدر الدين بن الدماميني إلى الحافظ شهاب الدين بن حجرَ الشافعى :

حمى ابن عليّ حوزة المجد والعلا ... ومن رام أشتات المعالى وحازها

وكم مشكلات فى البيان بفهمه ... تبيّنها من غير عُجْب ومازها

مازها : أى عزلها وفرزها من قولك : مازفلان كذا عن كذا .

أو مازها من الزهو : أى لم يزه ولم يتكبر .

وقد أجابه ابن حجر :

بروحىَ بدر فى الندى ما أطاع من ... نهـــاه وقد حاز المعالى فزانها

يسائل أن ينهى عن الجود نفسه ... وها هو قد برّ العُفاة ومانها

مانها من المئونة تقول : مانه يمونه .

أو من النهى،نهاه ينهاه وما : نافية .

ويعقب على ذلك بقوله : إن جميع من نهلت من شرابهم الصافى لم يرض بالجناس التام إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه ، لعلمهم بعلو رتبتها عنه ، والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلى حسن موقعها .

وإذا راجعت النظر فى كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناساً (١) .

ويقول السيوطى (٢) أيضاً : فإن جعل الجناس تورية وانحصر المعنيان فى ركن واحد ، فقد علت رتبته وارتفعت وصارت تسمى بالتورية التامة كقول ابن مكانس :

أقول لجي قم وميسْ يا معذبى ... كميسة خود حرك السكر راسها

ولا تَسنه عن شىء إذا ما حكيتها ... فقام كغصن البان ليناً وما سها

من الميس وهو التبختر ، أو من السهو .

والحق أن كلا الشيخين : الصفدى والحموى ركبا متن الشطط ، وجانبا القصد فى التعصب للجناس والتعصب عليه ، وأن المذهب الوسط هو المختار ،

(١) خزانة الأدب — ٤١

(٢) عقود الجمان — ٢ — ١٥١

فالجناس لا يستحسن على إطلاقه ولا يستقبح كذلك ، وإنما هو حلية كسائر الحلى البديعية تحمد إن وقعت موقعها وجاءت قليلة غير متكلفة وكان الكلام فى حاجة إليها وإن شذت فقل لا ينبو عنها .

وآية ذلك مجيئه فى القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والأعراب الأقحاح الذين يمرق الكلام من ألسنتهم مروق السهم ولا يتأتى لأحد أن ينسب إليهم التنوّق والتزويق ، وكذا فى شعر الشعراء الفصحاء البلغاء جاهلية وإسلاماً .

وإذا أنعمنا النظر فى جمال الجناس حين يقع جميلا ، أمكن أن نرجعه إلى ثلاثة أسباب :

١ — تناسب الألفاظ فى الصورة كلها أو بعضها ؛ ومما لاشك فيه أن التوافق فى الزى والهندام ، واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة وتأنس به وتغتبط ، ويطمئن إليه الذوق ويسكن ؛ لأنه نظام وانسجام وائتلاف ، وهى أشياء مركوز حبها فى الغرائز لخلعها على النفوس راحة وبشاشة وهدوءاً وقراراً .

٢ — التجاوب الموسيقى الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصاً ؛ فيطرب الأذن ويونق النفس ويهز أوتار القلوب .

ويلاحظ أن التناغم هنا أوسع وأشمل منه فى السجع ؛ لأنه فى الجناس لابد أن يصدر عن عدة حروف فيكون أشبه شىء بتخت موسيقى تام مختلف الأدوات متناسق الأصوات .

٣ — هذا التلاعب الأخاذ الذى يلجأ إليه المجنس « بالكسر » لاختلاب الأذهان واختداع الأفكار .

فبينما هو يريك أنه سيعرض عليك معنى مكرراً ولفظاً مردداً لا تجنى منه غير التطويل والانقباض والسآمة ، إذا هو يروغ منك فيجلو عليك معنى مستحدثاً يغاير ماسبقه كل المغايرة وإن حكاه فى نفس الصورة وذات المعرض ، فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السارة اللذيذة التى أجدت عليك

جديداً مفيداً لم يقع فى حسابك ، ولا ريبة أن كل طريف يفجأ النفس ويباين ما كانت تنتظره تتنزّى له وتتفتح وتستقبله بالبشر والفرح ، وفى هذا ورد قوله - تعالى - فى أهل الجنة : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً » .

فقد قال المفسرون : إنما كانت ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا فى اللون دون الطعم ؛ لأن الإنسان إذا ظفر بشىء من جنس ماسلف له به عهد وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة وفضيلة ثابتة وتفاوتاً بينه وبين ما عُهد بليغاً ، أفرط ابتهاجه واغتباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه وتحقق مقدار الغبطة به[1] .

وفى ذلك يقول أرسطو : إن معظم النكت البلاغية التى نلم بها فى الصورة وفى النقل ، بلاغتها فى المخاتلة التى يلجأ إليها الأديب ، فإذا انتظرنا من الأديب معنى نخاتلنا عليه ليأتى بمعنى آخر مضاد له تأثرنا به وتأثرنا بكلامه أكثر من غيره ، وكأننا من أثر هذه الدهشة وتلك المخاتلة نقول : ما أحق مايقول وما أصدقه نحن الذين أخطأنا الفهم لا الأديب[2] .

وقد أتى عبد القاهر بهذا المعنى فى قوله : قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً وقد أحسن الزيادة ووفاها[3] .

هذا إلى أن الجناس نفســـه قد يحوى معنى طريفاً شريفاً يضاف إلى ما تقدم من هذه المزايا .

ومعنى ذلك أن الجناس الجيد يثير إعجابنا من نواح عدة : ناحية التماثل فى الصورة ، وناحية الجرس الموسيقى ، وناحية التآلف والتخالف بين ركنيه لفظاً ومعنى ، وناحية مايحويه كل ركن من المعنى الأصلى .

وليس هذا بالشىء القليل .

---

(١) الكشاف — ١ — ٤٣

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — ١٧٠

(٣) أسرار البلاغة — ٥

الفصل الرابع

الجناس بين الطبع والصنعة

الجناس ككل الحلى البديعية عماده الطبع المواتى الذى يقذف به سهوا رهوا فى حالات الصفاء والتسامى واعتدال المزاج.

أى حينما يكون الخاطر مستعداً لتلقى النفحات العلوية من سماء الوحى البيانى .

وكل ما يروقنا من أنواع الجناس قد أتى على هذه الشاكلة واتسم بهذه الصفة ، ولا يعوزنا كثير من التأمل إلى معرفة هذا الضرب الممتاز ، لأنه ينادى على نفسه بنفسه ، ولا يحتاج إلى الفحص والتدقيق .

ولا مرية أننا نحس فى هذا الضرب جمالا تسكن إليه نفوسنا وتنفرج به صدورنا ، منشؤه هذا التعاطف الموسيقى الذى أضفاه الجناس على حروف الألفاظ المتجانسة كلها أو بعضها بطريقة من هذه الطرق التى تدخل فى فنون المخاتلة والتخدير والاستدراج .

وكثيراً ما يكون الكلام محتوياً على معنى عادى لا يوصف بابتكار ولا دقة ، ولكنه بتأثير الإيقاع والتنغيم والتلاحم الموسيقى يملك عليك نفسك ، فلا يسعك إلا أن تعجب به وتنزله منزلة رفيعة وتعده من القلائد والعيون .

خذ مثلا قول البارودى :

زمزمى الكأس وهات   واسقنيها يا مهاتى

أى معنى طريف وعميق تحت هذا البيت ؟

ولكنك ــ لاشك ــ تشعر بحلاوة ونداوة لهذا التجانس بين هات

ومهاتى ، بدليل أنك لو قلت : واسقنيها يا حبيبى أو معشوقى أو ظبيتى لذهب كل هذا الجمال الصوتى .

ثم انظر إلى قول حافظ – يداعب السيد البيلاوى فى معاتبة – :

لو أننى جئت « للبابا » لأكرمنى وكان يكرمنى لو جئته « الباب »

وقوله :

لى كساء أنعم به من كساء أنا فيه أتيه مثل الكسائى

ففى البيت الأول لم يزد حافظ على أن يفهمنا أن نقيب الأشراف لم يكرمه ، وأنه لو كان جاء رئيس الديانة الكاثوليكية أو البهائية لأكرماه !

ولكن الجمال كله والحسن أجمعه والبلاغة بحذافيرها فى هذا الانسجام الذى يقرط آذاننا ، ويرف على أكبادنا من انتظام البابا والباب فى سلك واحد .

وآية ذلك أنك لو بدلت بإحدى الكلمتين كلمة لا يتحقق بها التجانس مع الاتفاق فى المعنى ، فقلت مثلا رئيس الفاتكان أو رئيس البهائية .

أو مع الاختلاف فى المعنى فقلت : شيخ الإسلام أو مفتى الديار بدل البابا والباب ، لبطل السحر والساحر ، وصار البيت إلى منزلة دون الوسط .

وقل أكثر من ذلك فى بيته الثانى ، فإننا لا نعرف أن الكسائى كان تياها مختالا كما يصفه البيت ، وليس هناك من رابطة قريبة أو بعيدة تصل بين حافظ الشاعر المصرى ، والكسائى شيخ نحاة الكوفة وأحد القراء السبع حتى يستعير لنفسه منه هذا التيه المزعوم !

ولكن لا خلاف أن هذا التناغم بين الكساءين – وإن كان أحدهما ثوبا والآخر شخصا – قد سكر أبصارنا وخدر عقولنا وخدعنا عن الحقيقة الناصعة ، فاستسلمنا فى ظل هذه الإغفاءة اللذيذة إلى الوهم والباطل .

واعتبر هذا فى كل الأبيات ذات المعانى الأوساط والتجنيس البارع الفائق ، فإنك واجد أن هذا النغم الشاجى يصرفك إلا عن حسنه والاستمتاع بنشوته ، مكتفيا من المعنى بأن يكون صحيحاً سليما من الأحالة

والتناقض ، وما إلى ذلك من وجوه الفساد التى لا تغطى على اختلالها حلية مهما جلت وكملت .

فأما حين يكون الجناس من عمل التصنيع واعتصار الفكر واستكراه القريحة ، فإنه يثقل على السمع ويسمج فى النفس ، ولا تشفع له هذه الطنطنة المجلوبة لأنها خلت من ومضات الوحى وعبقات الإلهام ولمسات العبقرية !

وهذا النوع كثير فى أشعار المولدين وبخاصة الذين نشئوا فى عصور التقهقر البيانى .

وقد جاء منه فى أشعار المتقدمين نبذ يسير [1] .

فمن ذلك قول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاوٍ مشل شلول شلشل شول

قال أبو بكر الوزير : الشاوى : الذى شوى ، والمشل : المطرد ، والشلول الخفيف ، والشلشل ، والشول : الخفيف القليل ، والألفاظ متقاربة أريد بذكرها والجمع بينها المبالغة .

ويقول قدامة : وكلها بمعنى واحد ، وهو الرجل الخفيف فى الحاجة ، الحسن، للصحبة الطيب النفس [2] .

ويقول الآمدى : وهو عند أهل العلم من جنون الشعر !

ثم يقول : قرأ هذه القصيدة على أبى الحسن على بن سليمان النحوى قارىء ، فلما بلغ إلى هذا البيت قال أبو الحسن : صرع والله الرجل [3] .

ويقول ابن قتيبة : وهذه الألفاظ الأربعة فى معنى واحد ، وقد كان يستطيع أن يستغنى بأحدها عن جميعها [4] .

وقول أبى تمام :

وأهل موقان إذ ماقوا فلا وزر أنجاهم منك فى الهيجا ولا سند [5]

---

(١) الصناعتين — ٣٢٣

(٢) نقد الشعر — ٨٩

(٣) الموازنة — ٢٠٥

(٤) الشعر والشعراء — ١٢

(٥) موقان بالضم : كور بأرمينية ، وماق : حمق فى غباوة .

وقوله :

إن من عــق والديه لملعو ن ومن عق منزلا بالعقيق

وقوله :

خشنت عليه أخت بنى خشين وأنجح فيــك قول العاذلين

فهذا تجنيس فى غاية الشناعة والركاكة والهجانة كما يقول الآمدى ، ولا يزيد زيادة على قبح قوله :

فاسلم سلمت من الآفات ما سلمت سِلام سلمى ومهما أورق السَّلم[1]

فإن هذا كله من كلام المبرسمين ، وقد عابه عبد الله بن المعتز [2] .

ويقول الآمدى فى موضع آخر : فأما قوله :

خشنت عليه . . . .

فهو لعمرى من تجنيساته القبيحة ، وعهدت مجان البغداديين يقولون : قليل نُوره [3] ، يذهب بالخشونة [4] .

وقوله :

ليَـنـا بالرقمتـــين وأهلنــا سقى العهدمنك العهدُوالعهدوالعهد

سحاب متى يسحب على النبت ذيله فلا رجل ينبوعليه ولا جعد [5]

قيل العهد الأول المسقى : الوقت ، والثانى : الحفاظ من قولهم : فلان ماله عهد ، والثالث : الوصية من قولهم : عهد إلى فلان وعهدت إليه : أى وصانى ووصيته . والرابع : المطر .

وقيل : أراد بالعهد المكرر : مطر بعد مطر بعد مطر ، وفسره بالبيت الثانى .

---

(١) السلام بالكسر : الحجارة ، وسلمى أحد جبلى طيء ، والسلم بفتح السين واللام : شجر .

(٢) الموازنة — ٢٥٤ (٣) النورة بالضم : طلاء يذهب الشعر .

(٤) الموازنة — ٤٣٧

(٥) رجل كفهد وجبل وكتف : بين السبوطة والجعودة .

(٦) الصناعتين — ٢٢١ (٧) الموشح — ٣٣٣

وقيل : أراد سقى أيامنا التى عهدناك عليها : عهد الوصال ، وعهد اليمين التى حلفنا ، والعهد الأخير : المطر وجمعه عهاد .

ويقول العسكرى : وقد استثقل قوم هذا التجنيس وحق لهم .

وقوله فى وصف الفرس :

بحوافر حُفْر وصلب صُلَّب ... وأشاعر شُعر وحلق أحلق

وقد جعل البيت كله تجنيسا ولعله لم يسبق إليه !

وقد عابه الآمدى : بأن الحوافر لا تحفر الأرض ، وأكثر ما فى ذلك أنها تثير الغبار .

ثم قال : وهو استقصاء المعنى .

ويقول العسكرى : وبعضهم يستحسن ذلك وبعضهم يكرهه [1] .

ومثله قوله :

لسلمى سُلامان وعمرة عامر ... وهند بنى هند وسعدى بنى سعد

ومما جنس فيه تجنيسين قوله :

فَفصلن منه كل مجمع مَفْصل ... وفعلن فاقرة بكل فَـقار [2]

وقوله :

ومها من مها الخدور وآجا ... ل ظباء يُسرعن فى الآجال

وقد روى عنه أنه قال : وددت أن لى بنصف شعرى نصف بيت أبى سعد المخزومى :

حدَق الآجال آجال

ولم يزل يجول فى نفسه حتى قال البيت المتقدم .

قال على بن هارون [3] : وهذا مما غلط فيه أبو تمام ؛ لأن الآجال جمع إجْل وهو القطيع من البقر ، يقال : سرب من قطا ، وسرب من نساء ، وسرب من ظباء ؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

---

(١) ديوان المعانى ٢ — ١١٥

(٢) الفاقرة : الداهية التى تكسر الفقار ، وهو عمود الظهر .

(٣) الموشح — ٣٢٩

فلم تر عيني مثل سرب رأيته خرجن علينا من زقاق ابن واقف

ويلاحظ أن أبا تمام : أشد شعراء العباسيين ولوعا بالجناس وبخاصة جناس الاشتقاق وشبه الاشتقاق .

وقد أدّى هذا الإفراط إلى كثرة وقوع الجناس القبيح فى شعره مما أخذ عليه !

قال الآمدى : ورأى أبو تمام أيضاً المجانس من الألفاظ شرفاً فى أشعار الأوائل — وهو ما اشتق بعضه من بعض — ومثل هذا فى أشعار الأوائل موجود ، لكن إنما يأتى منه فى القصيدة البيت والبيتان على حسبما يتفق للشاعر ويحضر فى خاطره ، وفى الأكثر لا يعتمده ، وربما خلا ديوان الشاعر المكثر منه فلا ترى فيه لفظة واحدة ، فاعتمده الطائى وجعله غرضه وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على مثل قوله :

يا ربع لو ربعوا على ابن هموم

وقوله :

أرامة كنت مألف كل ريم

وقوله :

يابعد غاية دمع العين لو بعدوا

وأشباه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى ، لكان قد أتى بالغرض وتخلص من الهجنة والعيب[1] .

ويقول — فى معرض الجناس القبيح — : وهذا إنما جاء عن هؤلاء مقللا نادرا ، لأنك لو اجتهدت أن ترى لواحد منهم حرفا ما وجدته ، والطائى استفرغ وسعه فى هذا الباب ، وجدّ فى طلبه واستكثر منه ، وجعله غرضه ، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه ، وصوابه أقل من خطائه[2]

ويقول ابن الأثير : وقد أكثر أبو تمام من التجنيس فى شعره ، فمنه

(١) الموازنة — ٢٤٨ — ٢٥٢ (٢) المصدر السابق — ٢٥٥

ما أغرب فيه وأحسن ، ومنه ما أتى به كريها مستثقلا ، وله من هذا الغث البارد شيء كثير لاحاجة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلا يستدل به على أمثاله(1) .

وإذا كان أبو تمام بطل الجناس المشتق ، فإن الصاحب بن عباد بطل الجناس الناقص .

ومن هذا النوع المعيب قول أبي الغمر الطهوى — يصف السحاب — :

نسجته الجنوب وهى صناع فترقى كأنه حبشى
وقرى كل قرية كان يقرو ها قرى لايجف منه قرى(2)

وقد وصفه العسكرى : بأنه مستهجن لايجوز لمتأخر أن يجعله حجة فى إتيان مثله ، لأن هذا وأمثاله شاذ معيب ، وإنما الاقتداء فى الصواب لا فى الخطأ(3) .

وقول الحريرى فى مقاماته :

وازورّ من كان له زائرا وعاف عافى العرف عرفانه

وقد وقع فيه التنافر .

وقول بعض الوعاظ فى جملة كلامه : جنى جنات وجنات الحبيب !

وقد قيل : إن رجلا كان فى مجلسه ، فلما سمع منه ذلك ماد وتغاشى ، فقال له رجل كان إلى جانبه : ما الذى سمعت حتى حدث بك هذا ؟

فقال : سمعت جيما فى جيم فى جيم فصحت .

وهذا من أقبح عيوب الألفاظ(4) .

وقول بعضهم :

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده ووكل أجفانى برعى كواكبه
فيا عاذلى دعنى عساه يعود لى ويامهجتى صبرا على ماكواك به

(1) المثل السائر — ١٠٠

(2) قرى الضيف : أحسن ضيافته ، ويقروه : يقصده ، والقرى على وزن فعيل : مسيل الماء .

(3) الصناعتين — ٣٢٤

(4) المثل السائر — ١١٨

وقول آخر :

فهـاتني قهوة قشرية نضجت بكر المدام وشنف لي الفناجينا
تدعو إلى نحو ما فيه البقاء ولو دعت إلى نحو ما فيه الفناجينا
لو أن ألفا أحاطوا حول ساحتها قصد النجاة رأيت الألف ناجينا

وقد ذيله بهذا البيت زين العابدين الطبرى الحسنى [1] :

يا ربة الأنس حلينا حماك فإن نطلب بجودى وإن نسأل فناجينا

وقول وجيه الدين الحنفى :

من كان صاحب قدر أو كان صاحب قُدره
فليتخذ من نضار لطابة الأنس قِدره
فالشىء يزداد ظرفا إن ناسب الشىء قدره

ولا يقع مراء فى أن مثل هذا التجنيس غاية ما يصل إليه التمحل والتكلف، وأن سماعه مفسدة للذوق، ومجلبة للاشمئزاز، وخدش للحاسة الفنية.

وقد أورد العسكرى [2] طرفا من التجنيس القبيح وعقب على ذلك : « بأن بعض المتأخرين — يعنى المتنبى » — قال ما هو أقبح من جميع ما مر فى قوله — وليس من التجنيس — :

ولا الضعف حتى يتبع الضعفَ ضعفُه
ولا ضعفَ ضعف الضعف بل مثلَه ألف

وهو من قصيدة يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى المالكى . وقبله :

ولا واحدا فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضعف

أى لست واحدا من جماعة الناس ولا بعضا من كلهم، ولكنك ضعف جميعهم لأنك تنوب عنهم .

ثم يقول : لا توزن بضعف الخلق حتى يزاد عليهم ضعف آخر فيصيروا ضعف ضعفه، فتكون أنت ضعف ضعف الضعف .

---

(1) سلافة العصر — ٥٧ (2) الصناعتين — ٣٢٤

ثم عدل عن ذلك فقال : لايكفى هذا بل أنت ألف ضعف من مثل هذا الضعف .

وليس فى استطاعة ناقد أن يجد من ألفاظ اللغة مايسعفه فى ذم هـذا البيت ورمى صاحبه بالسخف !

ومن الشعر الحـــديث عرض الدكتور طه حسين لقول شوقى فى هزيمة اليونان :

ما كان نهر سقاريا سوى سقر   طغت فأغرقت الإغريق فى اللهب

فقال : وكنت تقول : كان البـــديع فى عصر أبى تمام يعجب جمهرة المتأدبين ، فأخذ منه أبو تمام بحظ لايخلو من إسراف وهو لايعجبنا ، فما اضطرار شوقى إليه لولا التقليد السخيف !

وأى جمال فى قوله :

ما كان نهر سقاريا . . .

لو أنه وضع اليونان موضع الإغريق لاجتنب هـذا الجناس الثانى ، ولاحتفظ لبيته بشىء من الجمـال الشعرى ، فالصورة لابأس بها ولـكن جناسان خليقان أن يفسدا أجمل الصور وأروعها[١] .

وأحسب أن الدكتور متأثر فى هذا النقد إلى حد ما بقول الآمدى فى بيت أبى تمام :

سلم على الربع من سلمى بذى سلم   عليه وسم من الأيام والقـدم

فالآمدى يذكر : أن هذا الابتداء ليس بالجيد ، لأنه جاء بالتجنيس فى ثلاثة ألفاظ وإنما يحسن إذا كان بلفظين ، وقد جاء مثله فى أشعار الناس والردىء لايؤتم به .

وأنا أخالف الأستاذ العميد فى رأيه ، فليس كل اجتماع لجناسين مما يستقبح ، وأخلق — إذا صح هذا — أن يكون الجناسان من نوع واحد :

(١) حافظ وشوقى ٤٣ — ٤٤   (٢) الموازنة — ٤٠٧

أي أن يكونا متفقين في النوع والحروف على شريطة التصنيع كقول أبي تمام :

ويوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقاً وابلا قصفاً[1]

وقوله :

خان الصفاء أخا خان الزمان له أخا فلم يتخون جسمه الكمد[2]

وقول أبي الفتح البستي في السلطان عين الدولة :

سما وحمى بنى سام وحام فليس كمثله سام وحام

ولكن هنا في بيت شوقي جناسان مختلفان في الحروف كل واحد منهما يحتل شطرا من البيت .

ثم إن كلمة « أغرقت » تلهمنا أن نأتي بكلمة « الإغريق » وجمالها في أنها اسم لليونان فلا اجتلاب لها ولا تكلف فيها .

هذا إلى أن ممنا نهر — وهو سقاريا — يغرق فيه الإغريق حيث دارت المعركة على ضفافه .

وأحسب أن هذا الجناس متعين ليوازن في المصراع الثاني أخاه في المصراع الأول — سقاريا وسقر — حتى لا تشيل كفته .

وحسبك أن تضع اليونان موضع الإغريق لتشعر شعورا قوياً أن هذا الشطر قد خف عن أخيه في ميزان الموسيقى والنغم .

وإنك لتحس بالحسن والفخامة في قول أبي تمام الآتي ، مما اجتمع فيه أكثر من جناس مع الاستعارة :

راحت لأربعك الرياح مريضة وأصاب مغناك الغمام الصيب

وقوله :

إذا ألجمت يوماً لُجَيم وحولها بنو الحصن نجل المحصنات النجائب

فإن المنايا والصوارم والقنا أقاربكم في الروع دون الأقارب

وهو مثل بيت شوقي تماماً .

---

(١) أرشق : اسم مكان ، والرشق : الرمي ، والقصف : الشديد الصوت .

(٢) يتخون : ينتقص .

كما استحسن قوله — وإن عابه الآمدى — :

مُلِّيتَك الأحساب أى حياة وحيا أزمة وحية وادى[1]

فالعبرة عندنا بالتكلف وعدمه ، وهو المعيار الدقيق فى الحكم بالحسن والقبح .

والآن وقد مضى قولنا فى الجناس المعيب نأخذ فى بيان النوع الجيد منه وقد أسلفنا أن قوامه الطبع وترك الخاطر يقذف به من غير استكراه واجتلاب ، فإن كانت هناك صناعة فهى فى مساندة الطبيعة على تحسين القالب ، وتجميل الصورة ، وصقل الهندام ، دون أن يكون لها عمل أساسى فى الجوهر واللباب .

وفى ظل هذا القانون العام نجدنا مسوقين إلى استحسان قول بعض الأعراب — يذم رجلا — : إذا سأل ألحف ، وإن سئل سوف ، يحسد على الفضل ، ويزهد فى الإفضال .

وقول جرير : لولا ماشغلنى من هذه الكلاب ، لشببت تشبيباً تحن منه العجوز إلى شبابها .

وفى رواية : لشببت شباباً .

والشباب : الغزل ، والجناس على هذه الرواية أحكم وأجمل .

وكتب العتابى إلى مالك بن طوق : أما بعد فاكتسب أدباً تحى نسبا ، واعلم أن قريبك من قرب منك خيره ، وأن ابن عمك من عمك نفعه ، وأن أحب الناس إليك أجداهم بالمنفعة عليك .

وكتب آخر : العذر مع التعذر واجب .

وقال آخر : اللُّها تفتتح اللَّها .

وقال آخر : عليك بالصبر ، فإنه سبب النصر ، ولاتخض الغمر ، حتى تعرف الغور .

وقال آخر : راش سهامه بالعقوق ، ولوى ماله عن الحقوق .

---

(١) مليتك : تمتعت بك .

وزار إبراهيم بن المهدى صديقا له فوجده سكران ، فترك عند رأسه رقعة كتب فيها ، رحنا إليك وقد راحت بك الراح .

وقال آخر : قد رخصت الضرورة فى الإلحاح ، وأرجو أن تحسن النظر كما أحسنت الانتظار .

وقال بعض العلماء : ربما أسفر السفر عن الظفر ، وتعذر فى الوطن الوطر .

ومن الشعر قول الشنفرى :

وبتنا كأن البيت حجّر فوقنا ... بريحانة ريحت عشاء وطُلت

وقول أوس بن حجر :

غُرٌ غرائر أبكار نشأن معا ... خشن الخلائق عما يتقى زور[1]

وقول الحطيئة :

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وقول النعمان بن بشير لمعاوية :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا ... وليلك عما ناب قومك نائم

وقول حيان بن ربيعة الطائى :

لقد علم القبائل أن قومى ... لهم حد إذا لبس الحديد

وقول زياد الأعجم — وفيه استعارة — .

ونبئتهم يستنصرون بكاهل ... وللؤم منهم كاهل وسنام[2]

وقول سعيد بن حميد الكاتب :

طلعت أوائل للربيع فبشرت ... نور الربيع بجدة وشباب

وغدا السحاب يكاد يسحب فى الربا ... أذيال أسحم حالك الجلباب

وقول أبى تمام :

ولم أر كالأشعار تدعى حقوقها ... مغارم فى الأقوام وهى مغانم

وقول ابن هرمة :

وأطعن للقرن يوم الوغى ... وأطعم فى الزمن الماحل

(١) الزور : المائلات .

(٢) كاهل الأولى : اسم قبيلة .

وقول عبد الله بن طاهر :

وإنى للثغر المخوف لكالىء ... وللثغر يجرى ظَلْمه لرشوف

وقد زعم الحاتمى : أنه أفضل تجنيس وقع لمحدث [1].

وقول البحترى :

فقف مسعدا فيهن إن كنت عاذرا ... وسر مبعدا عنهن إن كنت عاذلا

وقوله :

من كل ساجى الطرف أغيد أجيد ... ومهفهف الكشحين أحوى أحور

وقوله :

يذكرنيك والذكرى عناء ... مشابه فيك طيبة الشكول

نسيم الروض فى ريح شمال ... وصوب المزن فى ريح شمول

وقد ذكر العسكرى : أنه من أحسن ما قيل فى هذا الباب [2].

وقوله :

كل عذر من كل ذنب ولكن ... أعوز العذر من بياض العذار

وقوله :

مابعينى هذا الغزال الغرير ... من فتون مستجلب من فتور

وقول على بن جبلة :

وكم لك من يوم رفعت بناءه ... بذات جفون أم بذات جفان [3]

وقول شوقى :

ولا أكذب البارى بنى الله هيكلى ... صنيعة إحسان ورق حسان

أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى ... وأعنو إذا اقتاد الجميل عنانى

وقوله :

وطنى لديك وأنت سمح مفضل ... تنسى الذنوب وتذكر الأعذار

تاب الزمان إليك من هفواته ... بوزارة تمحى بها الأوزار

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢١ (٢) الصناعتين — ٣١٧

(٣) ذات الجفون : الكتيبة ، وذات الجفان : الوليمة .

ولو أنعمت النظر في سر استملاح ما تقدم كله ، لبدالك أنه البراءة من التكلف والسلامة من التعسف :

وتسمح النفس به بلا كد وتعب .

وقد يحدث أحياناً أن يأتى الجناس غير مقصود قطعاً ، ولا نشك أن من ذلك ماحكاه ابن المعتز : من أنه قدم فى بعض المجالس إلى صديق لنا بخور ، فقال له غلام صاحب المنزل : تبخر فإنه ندّ .

فلما ألقاه على النار لم يستطبه فقال : هذا ندّ عن الند ! [1]

وقول اعتماد جارية المعتمد بن عباد له فى بعض مرضه : ياسيدى نحن لانقدر على مرْضاتك فى مرَضاتك !

وقول رجل من قريش لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟

فقال : خالد بن صفوان بن الأهتم .

فقال الرجل : إن اسمك لكذب ! ماخلد أحد ، وإن أباك لصفوان وهو حجر ، وإن جدك لأهتم وإن الصحيح خير من الأهتم .

فقال خالد : من أى قريش أنت ؟

قال : من بنى عبد الدار .

فقال خالد : مثلك يشتم تميماً فى عزها وحسبها ، وقد هشمتك هاشم ، وأمّتك أمية [2] ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصى فجعلتك عبد دارها وموضع شنارها ، تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا وتغلقها إذا خرجوا !

فهذا من الردود المفحمة التى لا تسعف إلا شديد العارضة ، حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، لمّاح الذكاء ، لأن الرد الذى لايجىء فى حينه يعد عيا ولا يعتد به ، وفى ذلك يقول مسلمة بن عبد الملك : ماشىء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله أحب إلى من جواب حاضر ، فإن الجواب إذا تعقب لم يك شيئاً .

---

(١) الند : عود يتبخر به ، وند : نفر وشرد .

(٢) أمه : أصاب أم رأسه .

ولا شك أن المصادفة هنا دخلا فى هذا الجناس ، فقد هيأه لخالد — على بلاغته المأثورة — أنه كان فى الإمكان أن يشتق من هذه الأسماء ما يفحم به خصمه .

وأحسبه نظر فى ذلك الاشتقاق إلى قول الرسول - صلوات الله عليه - « عُصيَّة عصت الله ، وغفار غفر الله لها »[١] .

وفى رواية : « وأسلم سالمها الله »[٢]

وفى رواية أخرى : « وتجيب أجابت الله ورسوله »[٣] .

ومن هذا النوع قول جرير :

تقاعس حتى فاته المجد فقعس ... وأعيا بنو أعيا وضل المضلل

وقول المعرى :

أرى ابن أبى إسحاق أسحقه الردى ... وأدرك عمرُ الدهر نفس أبى عمرو[٤]

وقول رجل إلى المأمون يتظلم من عامل له : يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فضه إلا فضها ، ولا ذهبا إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا علقا إلا علقه ، ولا عرضا إلا اعرض له ، ولا ماشية إلا امتشها[٥] ولا جليلا إلا أجلاه ، ولا دقيقا إلا أدقه .

فعجب من فصاحته وقضى حاجته[٦] .

واقتدى به البديع الهمذانى ، فكتب إلى سعيد الإسماعيلى - يصف نهب اللصوص له فى أثناء رحيله من جرجان إلى نيسابور — : ... أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر ، فما ترك لى فضة إلا فضها ، ولا ذهبا إلا ذهب به ، ولا علقا إلا علقه ، ولا عقاراً إلا عقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالا إلا مال إليه ، ولا حالا إلا حال عليه[٧] ، ولا فرسا إلا افترسه ، ولا سبَدا إلا

(١) البديع — ٥١ (٢) الصناعتين — ٣١١

(٣) المرشدى — ٢ — ١٤٢

(٤) ابن أبى إسحاق : ابن مرار الشيبانى الكوفى ، وأبو عمرو : ابن العلاء .

(٥) امتشها : أخذ كل ما فى ضروعها . (٦) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٨

(٧) حال عليه : أتى عليه .

استبدبه ، ولا لبدا إلا لبّدفيه [1] . ولا بزة إلا بزها ، ولا عارية إلا ارتجعها ولا وديعة إلا انتزعها ، ولا خلعة الا خلعها .

وأنا داخل نيسابور ولا حلية إلا الجلدة ، ولا بردة الا القشرة . [2]

ومن الأجوبة الملهمة التي هي بسبب وثيق من قول خالد بن صفوان المتقدم : أن معاوية قال لابن عباس أو لعقيل بن أبي طالب : مالكم يابنى هاشم تصابون في أبصاركم !

فقال عقيل : كما تصابون في بصائركم يابنى أمية !

فهذا مما لايشاكل حسناً وجودة ، وهو أولى ببنى هاشم المقاول الأبيناء فإن العمى كما يصيب الأبصار يصيب البصائر ، بل هو فى الأبصار أشد اقال تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

ولعل المجيب أخذه من الآية الكريمة .

ومن ذلك : أن رجلا من بنى هاشم يسمى عبد الصمد رفع صوته في مجلس المأمون ، فقال له : لا ترفع صوتك يا عبد الصمد ، إن الصواب في الأسد ، لا في الأشد .

ومما يعد من الإلهام ما جرى به لسان « صدقة بن عامر » فقد مات له بنون سبعة ، فلما رآهم سجوا قال : اللهم إنى مسلم مسلّم !

فهذا كلام خرج من قلب مثقل بالهم ! يعسر على صاحبه معه أن ينطق بكلام عادى فضلا عن التحبير والتنميق ، والهموم قيد الحواس كما يقول الحكماء .

ولذلك عدوا من بلاغة ابن زيدون : أنه ماتت له بنت ، فلما وقف لتلقى العزاء شاكرا للمعزين كان يرد على كل معز بغير ما يرد على الآخر .

ويقول الصفدى [3] معلقا على ذلك : بأنه من التوسع في العبارة ، والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام ، وهو أمر صعب للغاية ، وأرى أنه أشق مما يحكى عن واصل بن عطاء فى تجنب الراء !

---

(١) السبد : القليل من الشعر ، واللبد : الصوف .

(٢) رسائل البديع على هامش خزانة الحموى — ١١٢

(٣) نفح الطيب — ٢ — ٣٢٣

ثم يقول : وأقول فى حقه : أقل ما كان فى تلك الجنازة ، وهو وزير ،
ألف رئيس مما يتعين عليه أن يتشكر له ويضطر إلى ذلك ، فيحتاج فى هذا
المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير إلى الغاية لا سيما من
محزون فقد قطعة من كبده !

ولكنه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب

ومن ذلك أن عياش بن الزبرقان بن بدر قاد خمسا وعشرين فرسا إلى
عبد الملك بن مروان ، فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع
آبائه وأمهاته ، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التى حلف بها على
الفرس الآخر !

فقال عبد الملك : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبى بمعرفته
بأنساب الخيل [١] !

وفى مثل هذا التجنيس غير المقصود يقول عبد القاهر : ومن ههنا كان
أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ماوقع من غير قصد
من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمتــه وإن
كان مطلوباً بهذه المنزلة وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبدا من قول
الشافعى رحمه الله ، وقد سئل عن النبيذ : أجمع أهل الحرمين على تحريمه [٢] .

ورواية ابن المعتز ـ وهى الصواب ـ أنه عبد الله بن إدريس ، وهو غير
الإمام الشافعى [٣] .

ونص جوابه : جلَّ أمره عن المسألة ! أجمع أهل الحرمين على تحريمه

وقد علق على ذلك ابن المعتز بقوله : ولم يقصده — أى الجواب — فيما
أظن ولكن كما تهيأ له فى الكلام .

ومن ذلك : أن أبا الفتح البستى قال يوما : لأبى نصر العتبى :
يا شيخ ما تقول فى الكرنب .

---

(١) البيان والتبيين ١ — ٢٤٥ (٢) أسرار البلاغة ٧
(٣) البديع — ٧١

فقال المتبي على الفور :

أطعمه إن لم يكن كرى بي [1] .

ومن أمارات الجناس المطبوع عندي :

١ — أن ينبذ به القائل من غير تمهل ولا تفكير كما ينبذ بكلام التخاطب لا يتردد ولا يتلكأ ولا يفكر ، بل كأنه يغترف من غدير صاف رقراق وقد مرت الأمثلة الكثيرة على ذلك .

٢ — أن يكون الكلام في حاجة إليه ، بحيث إذا حذف منه لم يكن له من الرونق والماء والبهاء ما كان له من قبل ، كقول ذي القرنين : السعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه ، لأنا إذا عرفناه أطلنا يومه ، وأطرنا نومه !

وقول الإمام علي : كل شيء يعز حين ينزر ، والعلم يعز حين يغزر .

« فنومه » في كلام الإسكندر : و « يغزر » في كلام الإمام وقعا موقعهما الذي لا محيد عنه إذا حرص على تمام المعنى ، زيادة على ما فيهما من حلاوة الإيقاع وجمال التنغيم .

وقول زهير بن أبي سلمى :

كأن عيني وقد سال السليل بهم   وجيرة ما هم لو أنهم امم [2]

فالشاعر لم يجمع بين سال والسليل اعتباطا ، ولم يكن من همه أن يوفر الموسيقية للشعر فقط ، ولكن لأن المعنى فوق ذلك يستوجب « سال » بالذات فالسليل واد بعينه ، ومن شأن الوادي أن يمتلىء بالسيل فيسيل به .

ثم إن لفظة « سال » تفيد أن السير كان حثيثا في غاية السرعة كأنه مرور السيل على وجه الأرض ، ثم هو مع ذلك فيه لين وسهولة .

ولا شك أن السيل السريع من الأحباب فيه إيلام للمحبين ، لأنه يزعجهم عن الوداع ، ويحرمهم التعلل برؤية المفارقين ولو بعض الوقت ، وقد جاء في ذلك قول الشاعر :

---

(١) الكرنب بفتح الكاف والراء : لغة في الكرنب .

(٢) في بعض الرويات : وعبرة ما هم ، وأمم : قريب .

وإن لم يكن إلا تعلل ساعة قليلا فإنى نافع لى قليلها

فأنت ترى أن « سال » متعينة هنا لهذه الأغراض كلها ، وأن التجنيس ليس أحق بها من المعنى نفسه .

ويقول ابن الأثير فى « سال » من قول كثير :

وسالت بأعناق المطى الأباطح .

إن هؤلاء القوم لما تحدثوا ، وهم سائرون على المطايا ، شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمة فاسترخت فى أيديهم ، وكذلك شأن من يشره وتغلبه الشهوة فى أمر من الأمور .

ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأزمة عن الأيدى، أسرعت المطايا فى المسير ، فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض فى سرعته .

وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه ، والذى لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى ، فالعرب إنما تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعانى التى تحتها ، فالألفاظ إذا خدم للمعانى ، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم فاعرف ذلك [1] .

وقول أبى تمام يمدح المعتصم بعد فتح عمورية :

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الخصب

يريد أن تشميره فى إنقاذ الثغور التى أذلها العدو وداس حماها ، شغله عن تقبيل ثغور الحسان ورشف رضابها البارد .

وإنما حسن ذلك ، لأن المحارب المتفانى يجب ألا يلتى باله إلى شىء من ألوان الترف والنعيم وضروب المتع واللذات كما قال الأخطل فى بنى أمية :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

وكما قال ابن عمار يمدح المعتضد الأندلسى :

فأكثر مايلهيك عن كأسها الوغى وعن نغمات العود نغمة مستنجد

---

(١) المثل السائر — ١٤١

ومثله قول البحترى :

ورمى بثغرته الثغور فسدها طلق اليدين مؤملا موهوبا

فالثغور تقتضى حمايتها شجاعة وإقداما وإطراحا للخوف حتى لا يبالى من يقوم بذلك أوقع على الموت أم وقع عليه الموت !

وقد جرت العادة أن يقال : إن فلاناً يتلقى الرماح بثغرة نحره - وهى نقرته - إذا كان محربا باسلا ، مبالغة فى وصفه بالجراءة والإقدام على الهلكة بدون تهيب ولا وجل كما قال الشاعر :

يلقى الرماح بصدره وبنحره ويقيم هامتــــه مقام المِغفر

فالتجنيس بين ثغور البلاد وثغور الحسان فى بيت أبى تمام :

عداك حر الثغور . . . . .

وبين الثغرة والثغور فى بيت البحترى :

ورمى بثغرته الثغور . . . . .

لم يأت عبثاً وإنما حدا إليه المعنى أولا ، فالفارس المغوار يصرفه حفظ الثغور عن رشف الثغور ، وثغور المخافة لاتسد إلا بثغرات النحور !

ومما جاء غاية الغايات فى ذلك قول أبى الحسن :

ما ترى الساقى كشمس طلعت تحمل المريخ فى برج الحمل

والشاهد فى «تحمل» و «الحمل» .

فبهذا التجنيس تم المعنى وظهر حسنه ، إذ كان برج الحمل بيت المريخ وموضع شرف الشمس ، فصار بعض الكلام مرتبطاً ببعضه ، مظهراً لخفى محاسنه ، وحصل التجنيس فضلة على المعنى ، لأنه لو قال فى وزن موضع «الحمل» : الكبش ، لكان كلامه مستقيما .

فهذا التجنيس - كما ترى - وقع من غير تكلف ولا قصد ، ولكن الأكثر أن يكون التجنيس مقصوداً اليه ، مأخوذاً منه ما سامحت به القريحة وأعان عليه الطبع (1).

---

(1) العمدة - 1 - 226

فأين هذا من قول منصور بن الفرج :

أكابد منك أليم الألم فقد أنحل الجسم بعد الجسم

الجسم بفتح الجيم والسين : العظم بكسر العين وفتح الظاء .

وهى كلمة ثقيلة غريبة نابية فى موضعها ، جيء بها لا لمزية ولكن قصداً للجناس فقط ، وقد كان فى الإمكان أن يقول : بعد السمن ، فيخلص من هذا العيب .

وقول أبي سعيد المخزومى فى طاهر بن الحسين :

ولو رأى هرم معشار نائله لقيل فى هرم قد جن أو هرما

أراد أن يجانس بين هرم بن سنان المرى المعروف بالجود ، وبين الفعل الماضى «هرم» فجاء بهذا الجناس الهرم المتداعى مبنى ومعنى !

وقول أبي تمام فى مدح ابن الزيات :

ترى حبله عريان من كل غدرة وقد نصبت تحت الحبال الحبائل

جنس تجنيس اشتقاق بين حبال وحبائل ، وقد ارتكب من أجل ذلك استعارة غير معقولة من أجل هذا التجنيس حين جعل الحبل يتصف بالعرى : يريد أنهم غادرون .

والعجيب : أن خياله صور له أن تحت الحبال حبائل منصوبة ، وهذا يحتاج إلى فضاء واسع وحيز كبير ، ويقتضى أن يكون للحبال عرضا [1] .

وقوله :

قرت بقران عين الدين وانشترت بالأشترين عيون الشرك فاصطلما [2]

قران : اسم موضع كانت به معركة ، وانشتار العين : انشقاقها واسترخاؤها والأشتران : قائدان للمعتصم أبليا فى ذلك اليوم بلاء حسنا .

والشاعر قصد التجنيس بين انشتار العين والأشترين فسار فى التعسف إلى المدى المستطيل !

---

(١) هامش هبة الأيام للأستاذ محمود مصطفى .

(٢) رواية الديوان : اشتترت ، واصطلم : استؤصل .

فانشتار عيون الشرك غاية فى الغثاثة والقباحة ، وأيضاً فإن انشتار العين ليس بموجب للاصطلام (١)

ذلك لأن الاصطلام : قطع الشيء من أصله ، والانشتار لا يترتب عليه هذا الاستئصال الكلى ، فالنتيجة التى رتبها على هذا الانشتار المزعوم باطلة .

ومن هذا النوع الرذل قول منصور بن الفرج :

إن كان يوم صائراً لمنية   إلفاً فيوم تفرق الإلفين

والنسج ردىء والمعنى مستغلق ، وقد عبر عن ذلك المتنبى بعبارة واضحة سهلة رصينة حيث يقول :

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت   لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

وقول آخر وفيه طباق مع التجنيس :

كم رأس رأس بكى من غير مقلته   دما وتحســــبه بالقاع مبتسما

الرأس الثانية : الرجل العظيم ، وأهل الحبشة يشيع بينهم هذا الاستعمال .

يريد : كم رأس رجل عظيم تدفق الدم منه فوق الأرض المستوية التى يحارب عليها ، ويظن أنه يبتسم لا أنه يبكى دما من فمه المفتوح .

فهذا البيت الحبشى لا يقل عن سابقه قول منصور بن الفرج سوء صياغة وشدة غموض ، مع فسولة المعنى .

وقول أبى القاسم بن إدريس الرُّندى فى عبد المؤمن من أول قصيدة :

ما الفخر إلا فخر عبد المؤمن   أثنى عليه كل عبد مؤمن

وفيه يقول جعفر بن سعيد : دعاه التجنيس إلى الضعف والخروج عن المقصود ، والأولى لو قال :

شاد الخلافة وهو أول مبتنى (٢)

ومثل هذه التجنيسات ، هى التى يقول فيها أبو الفتح البستى :

فى الناس من تجنيسه تجنيس   أبداً كما تدريسه تدريس (٣)

---

(١) الموازنة — ٢٥٢   (٢) نفح الطيب — ٢ — ٤٤٦

(٣) لعل تجنيس الثانية من الجنس بالفتح وهو الجمود ، وتدريس من الدرس بإسكان الراء وهو الجرب .

وهكذا لا تجد تجنيسا حسنا إلا وجدت المعنى يناصر اللفظ فى هذا الحسن ويساوقه، وأنهما توافيا على أذنك وعقلك فى وقت معا، وأن المزية لها جميعا، وأنهما متآخيان مترابطان لا يؤثر أحدهما أن ينفرد بالأفضلية دون صاحبه.

ولذلك كان الجانس عند قدامة داخل فى باب ائتلاف اللفظ والمعنى(١).

وقد قرر عبدالقاهر ذلك بقوله: فأما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً.

أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله:

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمَذهب أم مُذهب(٢)

واستحسنت تجنيس القائل:

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث — هو الفتح البستى —:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ وحده، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول وقويت فى الثانى، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأن لم يزد وقد أحسن فى الزيادة ووفاها(٣).

والمعنى: تحيرت الظنون فى تعليل جوده المتجاوز الحد، أهو طريقة خاصة، أم هو جنون الكرم الذى اعتراه.

(١) نقد الشعر — ٩٦

(٢) المذهب بفتح الميم: الطريقة والأصل والمعتقد، وبالضم: شيطان الوضوء والجنون وإلى الأخير ذهب الصولى.

(٣) أسرار البلاغة — ٥

ويرى الدكتور سلامة : أن الشاعر يريد أن العظيم أحيا مذهب السماحة والكرم ، فلما مات مات بموته الكرم ، وماتت السماحة ، فيحار أبو تمام أمام كلمة مذهب : هل الميت هو مذهب السماحة ، أو هو مذهب السماحة بعينهما [1] .

ولهذا ترى الجناس يترك إذا كان وجوده يضعف المعنى كما فى قوله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .

فلم يقل : بمصدق لنا ، وبه يؤدى المعنى مع رعاية التجنيس .

والسر فى ذلك : أن فى مؤمن لنا من المعنى ماليس فى مصدق ؛ لأن معنى قولك : فلان مصدق لى : قال لى : صدقت .

وأما مؤمن فمعناه مع رعاية التصديق : إعطاء الأمن .

ومقصودهم : التصديق وزيادة طلب الأمن ؛ فلذلك عبر به .

وقوله — تعالى — : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

قال أحد الأدباء . لو قال : أتدعون بعلا ، وتدَعون أحسن الخالقين لكان فيه مراعاة تجنيس .

وقد أجاب الرازى : بأن فصاحة القرآن ليست لرعاية هذه التكلفات ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ .

وأجاب غيره : بأن مراعاة المعانى أولى من مراعاة الألفاظ، ولو قال: أتدعون وتدعون لوقع الالتباس على القارىء فيجعلهما بمعنى واحد تصحيفا.

ويعلق السيوطى على ذلك : بأن الجواب غير ناضج .

وأجاب ابن الزملكانى : بأن التجنيس تحسين ، وإنما يستعمل فى مقام الوعد والإحسان لا فى مقام التهويل .

ولا يعجبنى هذا التعليل الذى يجعل الجناس خاصا بمقام دون مقام ، ويكفى فى الرد عليه أنه جاء فى مقام التهويل حيث يقول تعالى. « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » .

---

(١) بلاغة أرسطو — ٧٠

(٢) بعل : صنم كان لقوم إلياس عليه السلام .

وأجاب الخوبى : بأن « تدع » أخص من « تذر » لأن تدع بمعنى ترك الشيء مع الاعتناء به بشهادة الاشتقاق نحو الايداع ، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ، ولهذا يختار لها من هو مؤتمن عليها ، ومن ذلك الدعة بمعنى الراحة .

وأما « تذر » فمعناها : الترك مطلقا ، أو الترك مع الإعراض والرفض الكلى ، قال الراغب يقال : فلان يذر الشيء : أى يقذفه لقلة الاعتداد به ، ومنه الوزرة : قطعة من اللحم ، سميت بذلك لقلة الاعتداد بها .

ويقول السيوطى : ولاشك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول ، فأريد هنا تبشيع حالهم فى الإعراض عن ربهم ، وأنهم بلغوا الغاية فى الإعراض[1] .

٣ — أن يحقق الجناس — بعد استكمال جمال اللفظ وصواب المعنى — نوعاً من الجرس الرخيم والموسيقية الشاجية تكون نافلة محمودة لا يضام لها واحد من اللفظ والمعنى .

وذلك كقول محمد بن عبد الله بن كناسة الأسدى الكوفى[2] — يرثى ابنا له اسمه يحي — :

وسميته يحي ليحيا فلم يكن	إلى رد أمر الله فيه سبيل
تيممت فيه الفال حين رزقته	ولم أدر أن الفال فيه يفيل

وفى بعض الروايات[3] :

تفاءلت لو يغنى التفاؤل باسمه	وما خلت فالا قبل ذاك يفيل

ففى البيت نوعان من الجناس :

الأول : جناس تام مستوف بين يحي : الاسم ، ويحيا : الفعل .

والآخر : شبه جناس الاشتقاق بين الفأل : ضد الطيرة ، ويفيل : بمعنى : يخيب .

---

(١) الإتقان — ٢ — ١٥٤ — ١٥٥ (٢) هو ابن أخت ابن أدهم الصوفى المشهور .
(٣) الصناعتين — ٣١٧

ولا مرية أن الأذن تستروح إلى التنغيم فى هذين الجناسين وتجد لها طربا ونشوة ، وإنك لواجد مثل ذلك فى قول والبة يرثى أخاه :

وكنت لى مألفـــا إذا نفر   من بعض إخوان ودهم نفروا

وقول أبى تمام — وهو من الابتداءات المليحة — :

سعدت غربة النوى بسعاد   فهى طوع الإتهام والإنجاد

ولو أنت مثلا قلت : سميته يحيى ليعيش أو ليعمر ، ولم أدر أن الفأل فيه يخيب .

وقلت : إذا نفر من بعض إخوان ودهم بعدوا .

وقلت : نعمت غربة النوى بسعاد ، أو سعدت غربة النوى بنُعم ، لأحسست أن الكلام قد هبط دون الدرجة التى كان فيها ، وأن قسطا عظيما من الصدى المتجاوب بين الألفاظ قد ذهب ، وأن غير قليل من الإيقاع المطرب قد تلاشى ، وأن قدراً وافراً من النشوة المرقصة قد فارقت عطفيك مع أن المعنى لم يتغير والبيت لا يزال محتفظا بوزنه .

الفصل الخامس

قسم ابن المعتز الجناس إلى قسمين (١) .

١ — أن تكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها ، مثل قول الشاعر (٢) .

يوماً خلجت على الخليج نفوسهم (٣) .

٢ — أن يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر (٤) .

إن لوم العاشق اللوم (٥) .

ولم يتعرض ابن المعتز لتسمية هذين القسمين ، والأول : يسميه البديعيون : جناس الاشتقاق ، والآخر : شبه جناس الاشتقاق ، أو الجناس المطلق كما يأتى .

ولكننا نجد فى الأمثلة الكثيرة التى أوردها مايشمل غير هذين القسمين كالجناس التام المستوفى مثل قول محمد بن كناسة المتقدم :

وسميته يحيا ليحيا . . .

وكالجناس المحرف مثل قول أبى العيناء : وكيف أظهرتم حب النسا وبكم عرق النسا !

غير أن ذلك قليل فمعظم أمثلته منصبة على القسمين السابقين ، ولا غرابة فى ذلك فجناس الاشتقاق وشبهه أكثر الأنواع لسهولة مسلكه وقربه من الفطرة .

---

(١) البديع — ٥٥ (٢) هو إسحاق بن حسان الخريمى .

(٣) خلج : جذب ، والخليج : بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير .

(٤) هو مسلم بن الوليد . (٥) اللوم : اللؤم .

هذا إلى أن الشعراء إذ ذاك لم يكونوا أوغلوا فى الجناس وشققوه أنواعاً كثيرة ، ومارسوه صناعة عتيدة تقصد لذاتها كما فعل المتأخرون فى عصور تقهقر الشعر .

وذهب قدامة إلى أن الجناس التام المماثل : من المطابقة ، فأما الجناس عنده فهو :اشتراك المعانى فى ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق [1] .

ويؤخذ من أمثاله أن الاشتقاق يشمل المطلق ، وعلى هذا يكون متفقا مع ابن المعتز فى تقسيمه الجناس إلى هذين الأصلين، ومخالفاً له فى غيرهما عما مثل له ابن المعتز ولم يذكره باسمه .

وقسمه أبو هلال العسكرى [2] ابتداء إلى قسمين كما صنع ابن المعتز تماما، وأخذ تعريفه لهما مع زيادة شرح بها ماهيتهما .

ولكنه زاد عليه بالتمثيل لأنواع أخرى من الجناس كالناقص والمعكوس والمضارع واللاحق وإن لم يسمها بأسمائها التى عرفت بها فيما بعد اكتفاء بتعريفها .

ويظهر فضله فى كثرة ما أورده من الأمثلة النثرية والشعرية ، وإن كان بعضها مأخوذا من كتاب البديع لابن المعتز .

كما أنه لم ينس أن يمزجها بشىء من النقد يبين به وجوه الحسن والقبح فيها .

ولكن يؤخذ عليه أنه ساق الأمثلة فوضى بلا ترتيب ولا نظام، فاختلط بعضها ببعض اختلاطاً غريباً يصعب معه رد كل مثال إلى نوعه من الجناس .

هذا إلى أن الأمر انتشر عليه فى تمييز بعض الأقسام من بعض كالجناس الناقص والمضارع .

غير أن ذلك يغتفر له ، فقد كانت هذه الفنون فى طفولتها ، ولم يكن التأليف قد وضحت سمته واستقامت طريقته .

---

(١) نقد الشعر — ٩٧ (٢) الصناعتين — ٣٠٨

وذكر القاضى الجرجانى[1] من أنواع الجناس : المطلق والتام المستوفى والناقص والمصحف .

وعرض لنوع آخر سماه المضاف سنتكلم عنه فى موضعه .

وعرض ابن رشيق[2] للجناس فقال : إنه ضروب كثيرة ذكر منها المماثلة والمحقق والمضارع والناقص والمصحف والقلب والاشتقاق والمطاق .

ولكنه أورد هذه الأنواع على غير تنسيق فدخل بعضها فى بعض ، وساق لها الأمثلة الكثيرة على غير هدى فسادها التناقض !

فمثلا عرف المماثلة : بأن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى كثنية بمعنى عقبة ، وثنية بمعنى ناقة .

وهذا هو الجناس التام .

ثم عاد فقال : هذا وما شاكله يسمى التجنيس : المحقق ، وقد عرفه : بأنه ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع مثل الآنف والأنف والهيم والهام .

فخلط كما ترى الجناس التام بجناس الاشتقاق وشبهه !

فابن رشيق كالعسكرى فى تصنيفه تعوزه الدقة والضبط والنظام والترتيب .

ولكنه يزيد عنه فى الإكثار من النقــد والتوسع فى الموازنة ، والاستطراد إلى ذكر أشياء لاتخلو من الفائدة .

وقسم رشيد الدين الوطواط التجنيسات إلى سبعة أقسام ، وهى التجنيس التام والناقص والزائد والمركب والمكرر والمطرف والخط[3] .

وقسمه ابن الأثير[4] إلى قسمين :

١ — تجنيس على الحقيقة وهو مايعرف بالجناس التام .

٢ — وتجنيس بالمشابهة ، وهو ماعدا ذلك .

ولم ينس أن يفاخر بنفسه وينوه بفضله فى هذا التقسيم ، فذكر : أن

---

(١) الوساطة — ٤٢ (٢) العمدة — ١ — ٢٢٠

(٣) حدائق السحر — ٩٤ (٤) المثل السائر — ٩٩

العلماء من أرباب هذه الصناعة قد تصرفوا فيه فغربوا وشرقوا ولا سيما المحدثون منهم ، وأن الناس قد صنفوا فيه كتباً كثيرة وجعلوه أبواباً متعددة واختلفوا في ذلك وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض ، فمنهم عبد الله ابن المعتز وأبو على الحاتمي والقاضي الجرجاني وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم .

وقد كنا نظن أنه سيختصر هذه التقاسيم ، ولكن رأيناه يقسّم الجناس سبعة أقسام ، أولها القسم الذي عده جناساً حقيقياً ، ثم أتبعه بذكر الستة الباقية المشبهة له .

ويلاحظ أنه لم يذكر من أسمائها غير نوعين : المجنب — وهو نوع من الجناس الناقص — ، والمعكوس : وهو جناس القلب .

وأما الباقي فقد مثل له ووصفه ولم يسمه ، وزاد على ذلك أنه خلط بعضها ببعض ، فأدخل في القسم الذي عده ثانيا : الجناس اللفظي والمضارع والناقص .

فمخالفته لمن سبقه لم تأت بنتيجة غير زيادة العدد وتشويش الذهن ، وإن امتاز بلمحاته الفنية الدقيقة واستقلاله برأيه ، وتحكيمه الذوق الخالص في شئون البيان .

وعد السكاكي [1] الأنواع المعتبرة منه في باب الاستحسان : التام والناقص والمذيل ، والمضارع أو المطرف ، واللاحق ، والمزدوج أو المكرر أو المردد ، والمشوش .

وفرع عن اللاحق : التصحيف ، وعن التام : المتشابه والمفروق .

وألحق بالتجنيس : الاشتقاق وشبهه وهو المطلق .

وذكر الحلبي [2] من أنواعه : المستوفى التام ، والناقص والمذيل والمركب والمزدوج والمصحف والمضارع والمشوش والاشتقاق وشبهه والتصريف والمخالف وتجنيس المعنى .

---

(١) المفتاح — ٢٢٧ — ٢٢٨ (٢) حسن التوسل — ٤٢

وذكر الحموى [1] : الجناس المركب والمطلق والملفق والمذيل واللاحق والتام والمطرف والمصحف والمحرف واللفظى والمقلوب والمعنوى .

وذكر الصفدى [2] : أن الجناس جنس تحته أنواع ، وهى : التام والمغاير والمركب والمزدوج والمطمع والخطى والمخالف والمقارب والمعنوى .

وهذه الأنواع أيضا أجناس لما تتنوع إليه .

والمطمع عنده يشمل المضارع واللاحق .

وأطلق على الاشتقاق وشبهه : اسم الجناس المقارب والاشتقاق والاقتضاب .

وذكر الخطيب [3] : التام والمحرف والناقص ، وما يشمل المضارع واللاحق والقلب .

وألحق بالجناس : الاشتقاق وشبهه كما فعل السكاكى .

وهذا الاختلاف مرجعه إلى زيادة فى بعض الأنواع عند نفر من العلماء كالمشوش والمصحف والمعنوى .

أو إلى عد بعض الفروع أصلا بذاته كالمركب والملفق ، فبعض العلماء جعلهما من أقسام التام : وبعضهم عدهما قسمين مستقلين .

أو إلى التنويع فى التسمية ، فقد يطلق بعضهم على أحد هذه الأنواع اسما ويطلق عليه غيره اسما آخر .

وبمقارنة ما كتب عن الجناس وإنعام النظر فيما ورد منه فى الشعر ، يتبين لنا أن تقسيم الخطيب أحمد هذه التقسيمات جميعا وأبعدها عن الإسراف ، فالأنواع التى ذكرها كثيرة الورود قوية الصلة بالطبع .

ولهذا يمكن أن نعدها أصول الجناس .

والآن نشرع فى بيان الجناس على جهة التفصيل .

---

(1) خزانة الأدب — ٢٥
(2) جنان الجناس — ١٣
(3) الايضاح — ٢٧٢

الفصل السادس

الجناس التام

هو ما اتفق ركناه لفظا واختلفا معنى بلا تفاوت فى تركيبهما ولا اختلاف فى حركاتهما .

والاتفاق اللفظى يشمل أربعة أنواع :

١ — نوع الحروف .

٢ — عدد الحروف .

ولا عبرة باللام التعريفية ، لأنها فى حكم الانفصال لزيادتها على الكلمة كقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين نازعوا جرير بن عبد الله البجلى زمام ناقته : « خلوا بين جرير والجرير » (١) .

وقول ابن الخازن من شعراء وفيات الأعيان فيمن أضافه وأدخله بستانه وحمامه :

وافيت منزله فلم أر حاجباً	إلا تلقانى بسن ضاحك
والبشر فى وجه الغلام أمارة	لمقدمات حياء وجه المالك
ودخلت جنته وزرت جحيمه	فشكرت «رضوانا» ورأفة «مالك» (٢)

والشاهد فى المالك ومالك .

ومثله قول أبى نصر العتبى :

ياذا الذى فتن الورى وبوجهه	أحيا رسوما للمحاسن عافيه
يحكى محياه خلال عذاره	علم السلامة فى طراز العافيه

---

(١) الجرير : الحبل .

(٢) رضوان : خازن الجنة ، ومالك : خازن النار .

ومن الشعر الحديث قول الأسمر :

محمود والمحمود أنت صنعت ما تبقى مآثره على الأجيال

وقول محمود غنيم :

سنسلك يوما سبيل الجدود فلسنا بأسعد منهم جدودا

ولا عبرة كذلك بأن يكون أحدهما مضافا والثاني معرفا كقول أبي تمام :

فأصبحت غرر الأيام مشرقة بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

وقول إسماعيل صبري :

عذابي به عذب كبرد رضا به وعذرى أضحى واضحا في الهوى العذرى

٣ — هيئة الحروف .

والمراد بها حركات الكلمة وسكناتها ، ولا تعتبر حركة الحرف الأخير ولا سكونه ؛ لأنه عرضة للتغير إذ هو محل الإعراب والوقف ، فلا يشترط اتفاق الكلمتين في هيئته ، كقول أبي جعفر محمد بن العباس الوزير يهجو :

من احتاج إلى السيف فما في فيك يكفيك
وما جارحة فيك لنا أجرح من فيك
وأطراف المساويك اتفى عن مساويك

والشاهد في البيت الأخير .

وقول أبي الفتح البستي :

وغزال كل من شبهه بهلال أو ببدر ظلمه
قلت إذ قبلت وهما فمه قد تعديت وأسرفت فمه[1]

وقول آخر :

وسكنت قلبا خافقا ياساكنا في غير ساكن

وقول الأسمر :

لم يفرق ما بين بيض وسمر لم يجرد للبغي بيضا وسمرا

(١) اسم فعل أمر بمعنى انكفف .

٤ — ترتيب الحروف كما فى الأمثال السابقة جميعها .

ومن هنا يظهر وجه تسميته بالتام .

ومن البديعيين من يسميه : الكامل[1] .

ومنهم من يسميه : المستوفى[2]

ومنهم من يسميه : المستوفى والكامل[3] .

ومنهم من يسميه : المستوفى التام[4] .

ومنهم من يسميه : المماثل ، أخذا له من المماثلة أو التماثل ، وكلاهما الاتحاد فى النوع جرياً على اصطلاح المتكلمين[5] .

واستبعده العصام واستظهر أنه من المماثلة بمعنى المشابهة .

وإنما يسمى التشابه الكامل بالتماثل الكامل ، فكأنه بالغ فى الكمال إلى حد قام به تماثل كما يقال : جل جلاله[6] .

وبعض البغداديين يسمى تساوى اللفظتين فى الصفة مع اختلاف المعنى : المماثل ؛ كهوجل وهوجل فى قول الأفوه الأودى :

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل عيرانة عنتريس

لأن لفظة الهوجل واحدة ، والمراد بالأولى : الأرض البعيدة ، وبالثانية : الناقة العظيمة .

ويسمى المجانس : ماتوافقت فيه اللفظتان بعض الاتفاق[7] .

والجناس التام أكثر مايقع فى الألفاظ المشتركة .

وهو وحده التجنيس الحقيقى عند ابن الأثير ، وما عداه فليس منه فى شىء وإنما يسمى تجنيساً بالمشابهة[8] .

---

(١) جنان الجناس — ٢٠

(٢) أسرار البلاغة — ٥ — العمدة — ١ — ٢٢١ — حسن التوسل — ٤٣

(٣) الطراز — ٢ — ٣٥٦

(٤) حسن التوسل — ٤٣

(٥) مواهب الفتاح — ٤ — ٤١٥

(٦) المرشدى — ٢ — ١٤٠

(٧) سر الفصاحة — ١٨٥

(٨) المثل السائر — ٩٩

والجناس التام عند الجمهور أربعة أنواع :

١ ـ التام المماثل أو المتماثل ؛ وهو ما اتفق ركناه فى الاسمية أو الفعلية أو الحرفية .

مثال الاتفاق فى الاسمية قول الجاحظ ـ يعاتب صديقا له ـ : يعاتب فى حرف ، ويعبد المودة على حرف .

وقول بعضهم : زائر السلطان كزائر الليث الزائر !

وقول آخر : المرأة السليطة حية تسعى ، مادامت حية تسعى !

وقول الميكالى : لست منى بوائل ، ولو كنت كليب وائل .

وقول البحترى :

إذا العين راحت وهى عين على الجوى
فليس بسر ما تُسر الأضالع

العين الثانية : الجاسوس .

وقول ابن الرومى ـ وهو من ملحه ـ :

للسود فى السود آثار تركن بها وقعا من البيض يثنى أعين البيض

السود الأولى : الليالى ، والأخرى : شعرات الرأس واللحية ، والبيض الأولى : الشيبات ، والأخرى : النساء الحسان .

وقول المتنبى :

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرن أنت وهن منك أواهل

وقول الثعالبى :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

الأولى : جمع بلبل وهو الطائر المعروف ، والثانية : جمع بلبال بالفتح وهو شدة الهم والوسواس ، والثالثة جمع بلبلة وهى : الإبريق يشرب منه الخمر فأطلق اسم البلبلة عليها .

وقول أحمد بن أبى بكر الكاتب :

قطعت من آمـــل المفازه قطعا به آمل المغـــازه [1]

وقول النامى :

لشئون عينك فى البكاء شئون وجفون عينك للبلاء جفون

وقول المطرانى من شعراء اليتيمة :

تزهو علينـــا بقوس حاجبها زهو تميم بقـــوس حاجبها

الحاجب الأول : حاجب العين ، والآخر : حاجب بن زرارة سيد بنى تميم ، وكان رهن قوسه عند كسرى فى قصة معروفة .

وقول الأستاذ عبد المطلب :

بين القدود الهيف والمران نسب به يحـــلو لك المران

وقوله : يرثى الأستاذ اللواتى :

أعينى أين أدمعك اللواتى جرين دما غداة قضى اللواتى

وقول الحريرى :

وذى ذمام وفت بالعهد ذمته ولا ذمام له فى مذهب العرب

الذمام الأول : الحرمة ، والآخر : جمع ذمة بفتح الذال ، وهى البئر قليلة الماء أو غزيرته .

ويلاحظ فيما تقدم من الأمثلة : أن الاتفاق فى الاسمية لا فرق فيه بين أن يكون الركنان مفردين أو جمعين أو مختلفين كالمثال الأخير .

ومثال الاتفاق فى الفعلية قول شعبة بن عبد الملك من شعراء اليتيمة :

فديت من زارنى على حذر من الأعادى وقلبــه يجب

فلو خلعت الدنيـــا عليه لما قضيت من حقه الذى يجب

وقد جاء هذا التجنيس عينه فى شعر آخر :

يا إخـــوتى مذبانت النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب

فارقتكم وبقيت بعـــدكم ما هكذا كان الذى يجب

---

(1) آمل : اسم بلد .

وقول أبي محمد الخازن من شعراء اليتيمة أيضا :

لا يحسن الشعر ما لم يسترقّ له	حر الكلام وتستخدم له الفكر
انظر تجد صور الأشياء واحدة	وإنما لمسان تعشق الصور
والمدعون من الإبداع قد كثروا	وهم قليلون إن عُدّوا وإن حصروا
قوم لو انهم ارتاضوا لما قرضوا	أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

والشاهد في البيت الأخير .

ولم يمثل شُراح التلخيص لهذا النوع .

وقد أورد ابن السبكي هذا المثال له : تربت يمين المسلم، وتربت يمين الكافر .

أي استغنت الأولى وافتقرت الثانية .

وقد ذكر قبله : أنهم لم يمثلوا للفظين من نوعي «الفعل» وهو كثير [1] .

والحق : أن هذا النوع قليل ، ويضاف إلى ذلك أن مثال ابن السبكي لا يستقيم ، لأن الوارد في اللغة : ترب كفرح : خسر وافتقر ، وأترب : قل ماله وكثر « ضد » .

تقول : ترب فلان بعدما أترب : أي افتقر بعد غنى ، ومن المجاز : تربت يداك : إذا دعوت عليه كأنك قلت : تبّت وخسرت !

فلو أنه قال : أتربت يمين المؤمن ، وأتربت يمين الكافر لتم له ما أراد .

ومثال الاتفاق في الحرفية قولهم : قد يجود الكريم وقد يبخل الجواد .

فإن الأولى للتكثير والأخرى للتقليل ، فالمعنى مختلف مع اتفاق اللفظين في نوع الحروف [2] .

وقولهم : مامنهم من قائم .

فإن الأولى تبعيضية والأخرى زائدة [3] .

والحق أن هذا إغراق في التكلف والتعمل يأباه الطبع السمح والفطرة السليمة والذوق الروحاني .

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٦

(٢) حاشية الدسوقي — ٤ — ٤١٦ (٣) المرشدي — ٢ — ١٤٠

فليس من الضروري أن نوجد جناس الحروف بالقوة ، فلا تكتسب البلاغة بهذا شرفاً أو تزداد ثروة ، ولا يعدو الأمر أن يكون احتيالاً على إيجاد ما ليس بموجود ، وبعض العدم خير من الوجود .

وقد فطن إلى ذلك بعض البلغاء فقال ابن يعقوب : وأما مثاله في الحرفين فلم يوجد إلا أن يكون في حرف بالنسبة لحقيقته ومجازه إن صح[1] .

وقال الصفدي : وهذا القسم لا يمكن تصوره ، لأن الحروف معلومة الصيغ مضبوطة ، فلا يتفق ورود كلمتين قد تساوت حروفهما وصيغتاهما في الكلام العربي كما تقدم في اتفاق الاسم والاسم ، والفعل والفعل .

وقد يتصور في مثل إنّ إنّ زيداً قائم .

بمعنى : نعم إن زيداً قائم ـ على لغة من قاله ـ وإنما ذكرته لكون القسمة العقلية اقتضته[2] .

ومن أمثلة الجناس التام المماثل في القرآن الكريم : « ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » .

.. الساعة الأولى : القيامة ، والثانية : يحتمل أن يراد بها هذه الساعة الاصطلاحية : أي التي هي جزء من أربعة وعشرين جزءاً ينقسم إليها الليل والنهار .

ويحتمل أن يراد بها : الساعة اللغوية ، وهي اللحظة من الزمان وهذا هو الأقرب .

على أن ذلك موضع خلاف بينهم ، فابن الأثير يقول ، وقد استعمل المشترك في الكلام العزيز ، قال ـ سبحانه ـ : « ويوم تقوم الساعة . . . » .

فالساعة الأولى : هي القيامة ، والساعة الثانية : هي المقدار المخصوص من الزمان .

وقد رد عليه ابن أبي الحديد بقوله : لذاهب أن يذهب إلى أن الساعة في الموضعين بمعنى واحد ، هو هذا المقدار المعين من الزمان .

---

(١) مواهب الفتاح — ٤ — ٤١٦ (٢) جنان الجناس — ٣

وسميت القيامة : ساعة لما يجرى فيها من الأهوال والأمور الشاقة ، وهذه عادتهم إذا استعظموا أمرا يقع فى زمان مخصوص اكتفوا بذكر ذلك الزمان ، فمن الدلالة عليه قولهم : يوم الجمل ، ويوم ذى قار ، وليلة الهرير ، وقوله ـ سبحانه ـ : « هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

ولم يقل أحد : إن لفظة يوم مشتركة ، وأنها فى هذا الموضع بمعنى القيامة ، وفى غيره بمعنى الزمان المخصوص ، وعلى هذا يكون معنى قوله : تقوم الساعة : تحضر الساعة التى وعدوا بالمجازاة فيها ، فلا تكون اللفظة مشتركة كما زعمه هذا المصنف .

أو يكون مجازا فى القيامة ، حقيقة فى الوقت المخصوص ، فلا يتم أيضا مايريده من الاشتراك .

ويؤكد بطلان الاشتراك : أن العرب لم تكن تعرف القيامة فيضعوا لها لفظة الساعة ، كما وضعوا لفظة الفرس لهذا الحيوان المخصوص ، اللهم إلا أن يقال : إنها حقيقة شرعية فيكون ذلك تسليما لما يقوله المعترض ، لأن الحقيقة الشرعية مجاز حقيقى فى أصل الوضع[1] .

وقيل أيضاً : إنه لاجناس فى الآية أصلا ، لأن استعمال لفظ الساعة فى القيامة مجاز لوقوعها فى لحظة ، فسميت القيامة ساعة لملابستها للساعة .

واللفظ الحقيق مع مجازيه لا يكون من التجنيس كما لو قيل : رأيت أسدا فى الحمام وأسدا فى الغابة .

وكما لو قلت : ركبت حمارا ورأيت حمارا : تعنى بليدا .

ويقول الدسوقى : وقد يجاب على تقدير تسليم أنه لاجناس بين اللفظ الحقيقى ومجازيه : بأن الساعة صارت حقيقة عرفية فى القيامة .

أى : إن الجناس بين لفظين حقيقيين لا بين لفظ حقيقى ومجازى .

وقد اعتمد الصفدى الجناس فى مثل هذا فقال : ومن منع أن هذا النوع ليس من الجناس فليس من التحقيق فى شىء .

---

(١) الفلك الدائر — ٣

ويرى بعض الباحثين : انه لم يقع فى التنزيل الحكيم جناس تام
هذه الآية [1] .

ولكن ابن حجر قد استنبط جناسا آخر تاما ، وهو قوله ـ تعالى
« يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلّب الله الليل والنهار إن فى ذ
لعبرةً لأولى الأبصار [2] » .

ومما جاء فى الحديث الشريف : « دعوا جريرا والجرير » .

وقد تقدم .

ويقول السيوطى : لم أقف على هذا الحديث ، ولكن وجدت قول
صلى الله عليه وسلم ـ : « من تعلم صَرْف الكلام ليسحر به قلوب الناس
يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » .

الصرف الأول : فضل الكلام كما فسره أبو عبيدة ، والآخر : النا
أو التوبة [3] .

وفى القاموس : الصرف فى الحديث : التوبة ، والعدل : الفدية .

أو الصرف : النافلة ، والعدل : الفريضة أو بالعكس .

أو الصرف : الوزن ، والعدل : الكيل .

ومن الحديث قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أمر بمعروف فليك
أمره ذلك بمعروف » .

وقوله : « أول من يدخل النار سلطان لم يعدل فى سلطانه » .

٢ ـــ التام المستوفَى بصيغة اسم المفعول .

وهو أن يكون ركناه من نوعين مختلفين كاسم وفعل ، واسم وحرف
وفعل وحرف .

والمستوفَى لغة : ما أعطى حقه وافيا ، وقد سمى هذا النوع بذلك إيذا

---

(١) الصناعتين ـــ ٤١٠ ـــ المثل السائر ـــ ٩٩
(٢) الإتقان ـــ ٢ ـــ ١٥٣ ـــ خزانة الأدب للحموى ـــ ٣٧
(٣) شرح عقود الجمان ـــ ٢ ـــ ١٤٩

بانه ـ وإن اختلف اللفظان نوعا ما ـ لم ينتقص شيء من حق الجناس .

أو سمي بذلك لاستيفاء كل من اللفظين أوصاف الآخر وإن اختلفا في النوع (١) .

أو لأن حروف كل منهما مستوفاة في الآخر (٢) .

مثاله في الاسم والفعل ـ وهو كثير ـ قول أبي تمام ـ يمدح يحيى بن عبدالله البرمكي من رجالات الدولة العباسية ـ :

ما مات من كرم الزمان فإنه   يحيا لدى يحيى بن عبـــد الله

وإنما عد في هذا الباب لاختلاف المعنيين ، لأن أحدهما فعل والآخر اسم ، ولو اتفق المعنيان لم يعد تجنيساً وإنما لفظة مكررة كقول امرىء القيس :

فلما دنوت تســـدّيتها   فثوباً لبست وثوباً أجر (٣)

فقد تكرر في هذا البيت ذكر الثوب كما تكرر ذكر يحيى في بيت أبي تمام ، إلا أن هذين اتفق معناهما واختلف ذانك المعنيان فعدّ الأول من البديع (٤)

وقول المعري :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا   ونحن في حفر الأجداث أحيانا

وقول ابن السيد البطليوسي :

هم سلبوني حسن صبري إذ بانوا   بأقـــار أطواق مطالعها بان

وقول أبي الفتح البستي في السلطان عين الدولة :

قلت لطرف الطبع لما ونى   ولم يطع أمري ولا زجري (٥)

مالك لا تجري وأنت الذي   تجري مدى العلياء إذ تجري

فقـــال لي دعني ولا تؤذني   إلى متى أجـري بلا أجر

وقوله :

رضيت بعيش كفاف حلال   وبعت المدام بماء زلال

---

(١) حاشية الدسوقي ـ ٢ ـ ٤١٦   (٢) الوساطة ـ ٤١

(٣) التسدي : الركوب .   (٤) الوساطة ـ ٤١

(٥) الطرف بالكسر : الفرس

فمن يك يصاو له ما يصيب حراما فإن حلالى حلالى

وقوله :

صدَف الحبيب بوصله جفنا رقادى إذ صدف

ونثرت لؤلؤ أدمع أضحى لها جفنى صدف

وقول الميكالى :

شافه كفى رشأ بقبلة ما شفت

فقلت إذ قبّلها ياليت كفى شفتى

وقّول أبى سعد الهروى :

يا من تذكرنى شمائله ريح الشمال تنفّست سحرا

وإذا امتطى قلم أنامله سحر الأنام به وما سحرا

وقول داود الأنطاكى :

هواك مازج روحى قبل تكوينى وأنت ظلما بنار الهجر تكوينى

صبرت فيك على أشياء أيسرها ذهاب نفسى وقوم عنك تلوينى

وقول آخر :

دهرنا أمسى ضنينا باللقا حتى ضنينا

ياليالى الوصل عودى واجمعينا أجمعينا

ومثاله فى الاسم والحرف : ما جاء فى الحديث الشريف : « إنك لن تُنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ـ تعالى ـ إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك » .

رواه الشيخان .

« فى » الأولى : حرف ، والأخرى : الفم .

وقول المتنبى :

يرى أن ما ما بان منك لضارب بأقتلَ مما بان منك لعائب

ما الأولى : عاملة عمل ليس ، وما الثانية : اسم موصول ، واسم إن ضمير الشان محذوف .

(١) المرشدى ــ ٢ ــ ٤٠

يريد : أن هذا الممدوح — وهو طاهر بن الحسين العلوى — بلغ من كمال مروءته : أنه يرى أن ما ظهر من مقاتل الإنسان للضارب كالعنق والرأس مثلا ، ليس بأقتل له مما ظهر للطاعن فى عرضه ، لأن العيب عنده أشد من القتل كما يقول بعضهم :

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

وقد أخذه المتنبي من قول أبي تمام :

فتى لا يرى أن الفريصة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل[1]

فمسخه من صورة حسنة إلى صورة قبيحة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جُعَلا ، وهذا من أرذل السرقات[2].

وقد تكلف المتأخرون لهذا النوع مثالين جاءا بغيضين ثقيلين كما يجىء كل متكلف ، وهما قولهم :

ماما فعلت قبيح[3] !

ما الأولى : نافية ، والأخرى موصولة .

أى ما الذى فعلت قبيح .

وهو احتذاء لقول المتنبي السابق فى التعسف والهجنة والسخف !

وقولهم : رُبّ رجل شرب رُبّ رجل آخر[4] !

رب الأولى : حرف جر ، والأخرى : العصير المستخرج من العنب .

أى رب رجل شرب عصير عنب رجل آخر !

وهو أسخف وأثقل وأبرد من المثل السابق .

ويعترف الصفدى : بأنه لم يقف على شاهد لهذا النوع ، ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز فقال : ولكن يمكن أن يتصور فى مثل قولك : بلغنى أن أنَّ زيد مثل عمرو !

---

(١) الفريصة : الودج . (٢) المثل السائر — ٣٣٤

(٣) عروس الأفراح — ٤ — ٤١٧

(٤) مواهب الفتاح — ٤ — ٤١٧ — حاشية الدسوقى — ٤ — ٤٧

ثم انبرى يشرح هذا المثال الغريب فقال : إن « أن » الأولى : حرف توكيد ونصب .

و « أن » الثانية : مصدر أن يئن أنا وهو الأنين .

كأنك قلت : بلغنى أن أنين زيد مثل أنين عمرو !

وليس بعد هذا غاية فى البرود والتفاهة !

ومثاله فى الحرف والفعل ـ وهو مما تعمّله المتأخرون أيضاً ـ قولهم :
علا زيد على جميع أهله ، أو علا على رأس الجبل .

وقد عثر له الصفدى على مثال جاء مقبولا فى جملته وهو :

ولو أنّ وصلا علّلوه بقربه لما أنّ من حمل الصبابة والجوى[1]

ولعل السر فى خفة هذا البيت ـ مع ظهور التصنيع فيه عما مرّ من الأمثلة ـ تباعد ركنى الجناس : أى « أنّ » ، و « أن » الفعل .

والحق أن هذا النوع ـ فيما عدا الاتفاق فى الاسم والفعل ـ يعد نادرا لا يصح احتذاؤه ، لأن الطبع لا يسمح به عن طواعية ، وحسبنا أن ابن السبكى يقول : ولم يمثل البلغاء لغيره[2] .

يعنى الجناس المتفق فى الاسمية والفعلية .

ومما يخطر بالبال هنا : أن عكس التسمية بين المماثل والمستوفى كان أولى ، لأن الأول وقع فيه استيفاء التشابه بين اللفظين بخلاف الأخير ، فكان يحسن أن يسمى المستوفى لا المماثل .

ولكن لعلهم لاحظوا فى التماثل حصول الاستواء من كل وجه ، لأن التماثل عند المتكلمين لا يكون إلا عند التساوى من كل وجه لا ما به الاختلاف .

٣ ـ التام المركب ، أو جناس التركيب .

وقد صدّر به صفى الدين الحلى بديعيته هو والجناس المطلق ، واقتدى به فى ذلك الحموى وحده .

---

(١) جنان الجناس ـ ٢ (٢) عروس الأفراح ـ ٤ ـ ٤٧

(٣) المرشدى ـ ٢ ـ ٤٠ .

وقد عده الخطيب وشراح التلخيص من الجناس التام .

وعده الصفدى وغيره جنسا مستقلا .

وهو ما كان أحد ركنيه مركبا والثانى بسيطا : أى مفردا .

سمى بذلك لتركب أحد لفظيه .

والمراد بكونه مركبا : أن يكون مؤلفا من كلمتين مستقلتين : أو كلمة وجزء كلمة ، أو جزأين من كلمتين .

والمراد بكونه مفرداً : أن يكون كلمة واحدة .

وقد يكون الإفراد حقيقـة ، وقد يكون تنزيلا كما فى قولك : جاملنا ؛ لأنهم عدو الضمير المنصوب المتصل بمنزلة جزء من الكلمة ، فصار المجموع فى حكم المفرد .

مثاله قول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذا هبه   فدعه فدولته ذاهبـــه

فالأول مركب من ذا . بمعنى صاحب ، وهبة : بمعنى العطية .

والآخر : اسم فاعل مؤنث من الفعل وهب .

وقول لسان الدين بن الخطيب .

بتنا نكابد همّ القحط ليلَتنا   وأيّـد الهمّ والسهد البراغيثا

وكان يحمل ما كنا نكابده   من المشـقة لو أن البرا غيثا

البرى بفتح الباء : التراب ، ورسمت بالألف ليتم التجانس .

وغيث : فعل مبنى للمجهول : أى أصابه الغيث .

والركن الأول كلمة ، والثانى كلمتان .

وقول السراج القارىء البغدادى :

ياساكنى الدير حلولا به   تُسطرهم فيــه النواقيس

قيسوا لنـا القرب وكم بينه   وبين أيام النوى قيســوا

وجناس التركيب قسمان :

ا — ملفوف .

وهو ما كان ركنه المركب مؤلفاً من كلمتين تامتين كقول طاهر البصري :

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني

والشاهد في الشطر الثاني ، فإن الركن المركب وهو «أودعاني» . مركب من «أو» العاطفة و «دعاني» فعل الأمر .

وقول الشاب الظريف :

أسرع وسر طالب المعالي بكل واد وكل مَهْمَهْ[1]

وإن لحا عاذل جهول فقل له يا عذول مه مه

ب — مرفوّ .

وهو ما كان ركنه المركب مؤلفاً من كلمة وبعض أخرى ، أو من كلمة وحرف من حروف المعاني .

سمي بذلك أخذاً من قولهم رفأ الثوب . إذا جمع ماتقطع منه بالخياطة فكأنه ببعض الكلمة رفىء[2] .

وذلك مثل قول الحريري :

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه بدمع يحاكي الوبل حال مَصابه

ومثل لعينيك الحمامَ ووقعه وروْعة مَلقاه ومطعَم صابه

فالأول مفرد ، والثاني مركب من كلمة وبعض أخرى ، وهي : «صاب» و «ميم مطعم» الأخيرة .

وقول[3] أبي القاسم الموازيني الحلبي — في الخطيب بن هاشم لما تولى خطابة حلب — :

قد زها المنبر عُجبا إذ ترقيت خطيبا

---

(١) المهمة : القفر .

(٢) حاشية الدسوقي — ٤ — ٤١٩ (٣) وفيات الأعيان — ٢ — ٢٢

أُنْسِى تَضُمّ خطيبا أمنك م ضُمّخ طيبا

ومثال ما رفىء بحرف من حروف المعانى ووقع الحرف مقدماً قول أبى الفتح البستى :

عدوّك إما مُعلن أو مكاتم وكلّ بأن يخشى وأن يتقى قمن

فكن حذراً ممّن يكاتم سرّه فليس الذى يرميك جهراً كمن كمن

ومثال ما وقع فيه الحرف مؤخراً قول القاضى الأرجانى :

وبيض الهند من وجدى هواز بإحدى البيض من عُليا هوازن

لأن التنوين يقع آخرا ، وهو نون ساكنة زائدة فى النطق .

ثم إن كلا من الملفوف والمرفوء إن توافق ركناهما خطا فهو المتشابه.

سمى بذلك لتشابه اللفظين فى الكتابة .

ولم يذكر الحلى فى بديعيته المركب المتشابه .

وإن اختلفا خطا فهو المفروق لافتراقهما فى الكتابة .

وقد اقتصر عليه الحلى فى بديعيته .

ولم يفرق الصفدى بين المفروق وبين المتشابه ، بل أدخلها تحت نوع واحد وهو المفروق ، وساق أمثلتهما معاً من غير تمييز[1] .

مثال المركب الملفوف المتشابه قول الشاعر :

عضنا الدهر بنابه ليت ما حل بنابه

مركب ، لأن أحد ركنيه مركب من كلمتين والآخر مفرد .

وملفوف، لأن ركنه المركب مؤلف من كلمتين تامتين وهما : «بنا» و«به»

ومتشابه ، لتوافق الركنين خطا .

وقول الصفدى .

يا من إذا ما أتاه أهل المودة أو لم

أنا محبك حقـــاً إن كنت فى القوم أولم

---

(١) جنان الجناس — ٢٤

والشاهد فى البيت الثانى .

ومثله ما أورده الحموى[1] قال : حفظت من شيخنا العلامة شمس الدين الهيتى الحسنى النحوى — وأنا فى مبادىء العمر والاشتغال — من الجناس المركب المتشابه قول القائل من «دوبيت» ، وكان يقول: لا أعرف لها ناظما :

فى مصر قاض من القضاة ولَـهْ فى أكل مواريث اليتامى ولَـهْ
إن رمت عدالة فقل مجتهدا من عدَّ له دراهما عدَّله

ومثال المركب الملفوف المفروق قول الشاب الظريف :

إن الذى منزله من سحب عينى أمرعا
لم أدر من بعدىَ هل ضيَّع عهدى أم رعا [2]

مركب ، لأن أحد ركنيه مركب « أم رعا » والآخر مفرد « أمرعا » .
وملفوف ، لأن ركنه المركب مؤلف من كلمتين تامتين .
ومفروق ، لتخالف ركناه فى الكتابة .

وقول لسان الدين بن الخطيب :

مالى أهذب نفسى فى مطامعها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى
إذا سبقت على دهرى بتجربة تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى

وقول شاعر :

وشادن من بنى الكتاب مقتدر على البلاغة أحلى الناس إنشاء
فلا يجاريه فى ميـــدانه أحد يُريك سحبان فى الإنشاء إن شاء

وقول ابن الوردى :

وشـــادن قلت له هـل لك فى المنـادمه
فقال كم من عاشق سفكت فى المنى دمه

وقول قاضى القضاة تقى الدين الحنفى :

قلت للعـاذل الملح على الدمع م وإجرائه على الخـــد نيلا
سل سبيلا إلى النجاة ودع دمع م عيونى يجرى لهـم سلسبيلا

(١) خزانة الأدب — ٢٨ (٢) أمرع : أخصب .

وقول الميكالى :

كتبت إليه أستهدى وصالا ... فعللنى بوعد فى الجواب
ألا ليت الجواب يكون خيرا ... فيطفىء ما أحاط من الجوى بى

وقول ابن أسد الفارقى :

يا من تدلّ بمقلة ... وأنامل من عندم
كفى جعلت لك الفدا ... ألحاظ جفنك عن دمى

ومن المطبوع الطريف [1] : أن اعتماد جارية المعتمد بن عباد قالت له — وهما فى سجن أغمات بمراكش زمن محنته — : يامولاى لقد هُنَّا هنا ! فأعجبه كلامها وقال يحكيه :

قالت لقد هُنّا هنا ... مولاى أين جاهنا
قلت لها إلهنا ... صيّرنا إلى هنا

والشاهد فى البيت الثانى .

ورواية الصفدى : [2]

قلت لها إلى هنا ... صيّرنا إلهنا

ومثال المركب المرفوء المتشابه قول القاضى الأرجانى :

أمّلتهم ثم تأملتهم ... فلاح لى أن ليس فيهم فلاح

مركب ، لأن أحد ركنيه مركب وهو « فلاح » الفعل ، والآخر مفرد وهو « فلاح » الاسم .

ومرفوء ، لأن الركن المركب مؤلف من كلمة وهى الفعل « لاح » وحرف من حروف المعانى وهو الفاء .

ومتشابه ، لتشابة الركنين فى الخط .

وقول الميكالى :

يا مبتلى بضناه يرجو رحمة ... من مالك يشفيه من أوصابه
اصبر على مضض الهوى فلربما ... تحكى مرارة صبره أوصابه

---

(١) نفح الطيب — ٢ — ٤٥١ (٢) جنان الجناس — ٢٣

وقول السيوطي :

وكلما ملت نحو حِبّ لا بدّ لي فيه من رقيب
وليس ينأى فواعنائى وليس ينفك قدر قيب[1]

وهو مثل سابقه إلا أنه مرفوء هنا لتألف ركنه المركب من كلمة وهي «قيب» وبعض أخرى وهي الراء من «قدر» .

ومثال المركب المرفوء المفروق قول الحريري :

والمكر مهما اسطعت لا تأته لتقتني السؤدد والمكرُمهْ

مركب ، لأن أحد ركنيه مركب والآخر مفرد .

ومرفوء ، لأن الركن المركب مؤلف من كلمة وبعض أخرى .

ومفروق ، لتخالف الركنين في الخط «المكر مه — المكرمه»

وقد سلك الحلي [2] في التام المركب سبيلا قصدا فقسمه ابتداء إلى ضربين :

أ — ما هو متشابه لفظا وخطا كقول شمس الدين بن عبد الوهاب :

طار قلبي يوم ساروا فرَقا وسواه فاض دمعي أو رقا
حار في سقمي من بعدهم كلّ من في الحيّ داوَى أو رقا
بعدَهم لا طُلّ وادي المنحنى وكذا بان الحمى لا أو رَقا

والشاهد في «أورقا» بمعنى : أو سكن ، وفي «أورقا» : من الرقية ، وفي «أورقا» : ظهر ورقه .

ب — ما هو متشابه لفظا لا خطا ، ويسمى التجنيس المفروق كقولك :
كنت أطمع في تجريبك ، ومطايا الجهل تجري بك .

وقول الشاعر :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت في تهذيبها
فإذا عرضت القول غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذي بها

ثم يقول : ومن أنواع المركب : المرفوء ، وهو أن يجمع بين كلمتين

---

(١) القيب : لعله أراد به قاب القوس ولكن الوارد أن القيب : المقدار .
(٢) حسن التوسل — ٤٤ — ٤٥

إحداهما أقصر من الأخرى فتضم إلى القصيرة حرفا من حروف المعانى ، أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدل ركنا التجنيس كقولهم : يا مغرور أمسك ، وقس يومك بأمسك .

ويقرب منه قول البديع الهمذانى : إن لم يكن لنا حظ فى دَرَك درَّك ، فخلصنا من شرَك شرك .

وقول الحريرى : إن أخليت منَّا مَبارِك مَبارّك ، فخلّصنا من مَعارك معارّك .

وقول الميكالى :

تفرّق قلبي فى هواها فعندها	فريق وعندى شُعبة وفريق
إذا ظمئت نفسى أقول لها اسقنى	وإن لم يكن ماء لديك فريق

وقول آخر :

بنيسابورَ سادات كرام	ترى أحلامهم أحلام عاد
إذا بدءوا بعُرف تمّموه	وعادوا بعده أحلى مَعاد

ويلاحظ أننا أشبعنا القول فى الجناس المركب ، وتوسعنا فى إيراد الأمثلة وتبسّطنا فى شرحها ، لأننا أردنا أن نرفع عن القارىء مئونة البحث والمقارنة .

فهو نوع متشعّب النواحى دقيق المسالك ، تعزّ الإحاطة به إلا بعد دراسة وتدبر .

ومهما يكن فليس كل ما جاء منه مقبولا تهفو إليه النفوس وتطرب له الأسماع ، ويكفى أنه لم يأت منه شىء فى القرآن الكريم والحديث الشريف .

وبعض أنواعه لاتتحقق إلا بالتكلف الواضح ، ثم هى - إلى ذلك - تخدش الحاسة الفنية ، وقد لاحظ ذلك الحموى فى النوع المرفوء منه فقال : وهذا النوع لايخلو من تعسف وعَقادة فى التركيب [1] .

---

(١) خزانة الأدب — ٢٩

ويقول ابن رشيق : وقد أحدث المولدون جناسا منفصلا يظهر أيضا في الخط كقول أبي تمام :

رقدوك في يوم الكُلاب وشقّقوا   فيه المزاد بجحفل كاللاب (١)

وليس بتجانس صحيح على ما شرطه المتقدمون ، ولكنه استظرف فأدخل في هذا الباب تملُّحا ، وأكثر ما يستعمله الميكالى وقابوس بن وشمكير وأبو الفتح البستى .

فمن ذلك قوله :

عارضاه بما جنى عارضاه   أو دعانى أمت بما أودعانى

وقوله :

وإن أقرّ على رِقّ أنامله   أقرّ بالرِقّ كتّاب الأنام له

وربما صنفوا مثل هذا في القوافي فتأتى كالإيطاء وليس بإيطاء إلا في اللفظ مجازا ، وليس بتجنيس إلا كذلك كقول عمر بن على المطوعى :

أمير كله كرم وسعد   بأخذ المجد منه واقتباسه

يحاكى النيل حين يُسام نَيْلا   ويحكى باسلا في وقت باسه

فجاءت القافيتان كما ترى في اللفظ ، وليس بينهما في الخط إلا مجاورة الحرف (٢) .

٤ — التام الملفق :

وهو أن يكون كل من ركنيه مركبا من كلمتين أو من كلمة وبعض أخرى . وباشتراك التركيب في الركنين يتميز من المركب ؛ فإنه ما ركّب أحد ركنيه فقط .

وغالب المؤلفين لم يفرقوا بينهما (٣) .

وقد عده ابن رشيق وبعض أصحاب البديعيات نوعا آخر .

---

(١) الكلاب بالضم : ماء كان عليه يوم من أيام العرب : واللاب : جمع لابة وهى الحرة بفتح الحاء .

(٢) العمدة — ١ — ١١٥   (٣) نفح الطيب — ٣ — ٨٦٣

وفيه يقول ابن حجة الحموى : وهو صعب المسلك عزيز الوقوع ، ولكن له رونق وموقع فى الذوق ؛ لطلاوة تركيبه وغرابة أسلوبه .

وهو نوعان :

(أ) ملفق موافق .

وهو ما توافق ركناه خطا مثل قول أبى على بن أبى الحصين — وقد ولى قضاء المعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة وأقام فى الحكم خمس سنين — :

وليت الحكم خمسا بعد خمس لعمرى والصِّبا فى العنفوان
فلم تضع الأعادى قدر شانى ولا قالوا فلان قد رشانى

(ب) ملفق مفارق .

وهو ما تخالف ركناه خطا كقول شرف الدين بن عنين :

خبِّروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا

وقول أبى الفتح البستى :

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

وقول أبى الفضل الميكالى :

لنا صديق يجيد لقما راحته فى أذى قفاه
ما ذاق من كسبه ولكن أذى قفاه أذاق فاه

وقوله :

إذا تغديت صدر يومى ثم تأذيت بالغداء
أقول إذ مسنى أذاه أرى غدائى أراغ دائى[1]

وقوله يمدح والده :

ولما تنازع صرف الزمان فزعنا إلى سيد نابه
إذا كشر الدهر عن نابه كشفنا الحوادث عنا به

والشاهد فى البيت الأخير .

---

(١) أراغ : طلب .

وقول حاتم بن أحمد الحسيني :

لآلي ثغور أم بدور تشف عن لآلي بحور أم بروق نحور

سما لثمها عني فيا لهفي على فوات نحور من فواتن حور

وقوله :

مقاتل يهدى عرف معروفه إلى مجال سعود في مجالس عود

وكم مُقعد قد قام مذ شد سمعه مناطق عود من مناط قعود

وقد أولع الناس بهذا النمط كثيرا .

وأول من نظمه المطوعي من شعراء اليتيمة في قوله :

أرى مجلس السلطان تفضى عفاته إلى روض مجد بالسماح مجود[1]

وكم لجباه الراغبين لديه من مجال سجود في مجالس جود

وفي جنان الجناس جاء صدر البيت الأول :

أخو كرم يفضى الورى من بساطه . . . .

وأكثر منه الصلاح الصفدي فجاء بالغث والسمين[2] .

وقد أوضحه بقوله : بأن يقع ركنا الجناس مركبين وكل ركن مركب من جزأين مستقلين ، لكن يكون الجزء الواحد في هذا الركن أزيد منه في الآخر .

ثم يقول : وهذا النوع عزيز الوقوع جامد الينبوع[3] .

ويقول الحموي : ولم يلم بالملفق أحد من أصحاب البديعيات غير صفي الدين الحلي ، وما ذاك إلا لأنه قال في خطبة بديعيته : إنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن .

وأما العميان فإنهم عدوه في بديعيتهم من المركب .

وللحموي ملاحظة دقيقة نقلها عنه غير واحد من أهل البديع ، وهي أنهم : لو سمّوا الملفّق مركبا والمركب ملفقا لكان أقرب إلى المطابقة في

---

(١) المجود : المطور .
(٢) سلافة العصر — ٤٥٤
(٣) جنان الجناس — ٥٦

التسمية ، لأن الملفق مركب فى الركنين ، والمركب ركن واحد منه كلمة مفردة، والثانى مركب من كلمتين وهذا هو التلفيق[1] .

وهى ملاحظة سديدة تذكرنا بما قيل فى تسمية المماثل والمستوفى ، ولكن هناك وجدوا الجواب ولم يجدوه هنا .

ويقول الخفاجى فى هذا النوع : ومن المجانس : فن ورد فى شعر أبى العلاء وسماه لنا بجانس التركيب ، لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان كقوله :

مطايا مطايا وجدكن مُنازل مَنازل عنها ليس عنى بمقلع

ثم يقول : وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئاً من قبيله .

وهو عندى غير حسن ولا مختار ، ولا داخل فى وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة[2] .

قيمة الجناس التام :

هذا وللبلغاء أقوال تكشف عن منزلة الجناس التام فى نفوسهم ، وتبين مبلغ شأنه فى البلاغة وسر جماله وحسنه .

يقول عبد القاهر — عند تكلمه على مزية الجناس المطبوع — : فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة، من حلى الشعر ومذكوراً فى أقسام البديع[3] .

ويقول : واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى استجابة الفضيلة ، وهى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه كقوله :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفو الجارى هذا المجرى كقوله :

(١) خزانة الأدب — ٣٣

(٢) سر الفصاحة — ١٨٨ (٣) أسرار البلاغة — ٥

أودعانى أمت بما أردعانى

فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضاً[1] .

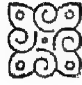
ويقول الصفدى : هو أعلى الجناس مرتبة[2] .

ويقول الحموى — على كراهته للجناس جملة — : هو أكمل الأنواع إبداعاً ، وأسماها رتبة ، وأولها فى الترتيب[3] .

ويقول ابن يعقوب والدسوقى : ووجه حسنه مطلقاً : أن صورته صورة الإعادة ، وهو فى الحقيقة للإفادة[4] .

ويقول المرشدى : وهو أحسنها[5] .

يعنى أنواع الجناس .



(١) أسرار البلاغة — ١١ (٢) جنان الجناس — ٢٠

(٣) خزانة الأدب — ٣٧ (٤) مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى — ٤ — ٤١٩

(٥) المرشدى على العقود — ٢ — ١٤٠

الفصل الثاني

الجنـــــاس المحرّف

سمى بذلك لانحراف هيئة أحد اللفظين عن الآخر .

ويسمى أيضا : جناس التحريف ، والجناس المغاير والمختلف .

وسماه الرازى والسكاكى وبعض أتباعه والوطواط : الناقص [1] من أجل الاختلاف فى الحركة ، لأنه لو اتفقت حركات الحروف فى الكلمتين لكان تجنيساً تاما .

وقد وهم المرشدى فقال عن السيوطى : إنه تبع الخطيب فى تلخيصه وإيضاحه بجعل الجناس المحرف من أقسام الجناس التام [2] .

وهذا ليس بصحيح فقد عده الخطيب قسما مستقلا ، وإنما بدأ به بعد التام لقربه منه [3] .

وتعريفه : ما اختلف فيـــه اللفظان فى هيئات الحروف « حركاتها وسكناتها » فقط .

أى مع التساوى فى نوعها وعددها وترتيبها ، سواء أكانا من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من غير ذلك ، فإن القصد اختلاف الحركات .

ويستوى فيه :

١ ــ أن يكون الاختلاف فى هيئة الحركة فقط كقول أبى تمام :

هُنَّ الحَمام فإن كسرت عِيافة ... من حائهن فإنهن حِمام

---

(١) نهاية الإيجاز ــ ٢٨ ــ المفتاح ــ ٢٢٧ ــ شرح الفوائد الغيائية ــ ١٧٩ ــ حدائق السحر ــ ٩٥

(٢) المرشدى على العقود ــ ٢ ــ ١٤٣ (٣) مواهب الفتاح ــ ٢ ــ ٤١٩

وقول المعرى :

لغيرى زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل

وقول ابن النبيه :

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه حلوا فقد جهل المحبة وادّعى

وقول ابن جابر الأندلسى :

حل عقد الصبر منى عِقدها إذ سبت قلبى بما فى قُلبها [1]
تحسب الدر على لبتها أنجما قد حُلى الدر بهـا

وقول ابن رشيق :

أيها الليــل طر بغير جناح ليس للعين راحة فى الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه بان عنى ذوو الوجوه الصِّباح

وقول ابن الأفطس :

لبيض الطُّلى ولسود اللِّمَم بعقلىَ مذ بِنَّ عنى لَمَم [2]

وقول أبى الربيع فى مدينة «الشاش» وراء النهر :

الشاش فى الصيف جنهْ ومن أذى الحر جُنَّهْ
لكننى تعتريني بها لدى البرد جِنّهْ

وقول آخر :

يا شادياً مت قبله قد صار فى الحسن قبلهْ
امنُن علىّ بقُبلهْ تشفى فؤاد مُولّه

وقد اجتمع فى المثالين التحريف فى كل الحركات .

وقول أبى سليمان الخطابى :

سلكت عِقابا فى طريق كأنها صياصى ديوك أو أكفّ عُقاب [3]
وما ذاك إلا أن ذنبا أحاط بى فكان عقابى فى سلوك عِقاب

والشاهد فى البيت الأول .

---

(١) القلب بالضم : السوار . (٢) الطلى : الأعناق جمع طلية .
(٣) العقاب بالكسر : جمع عقبة ، والصياصى : جمع صيصة ، وصيصية : شوكة الديك .

وقول أبي روح الهروى :

أبو روح أدام الله عِـزّه ... ألدّ إذا انبرى للخصم عَزّه
وذاك لأنه هجـر الملاهى ... فصار «كثيرا» والعلم «عزه»

وقول الوطواط :

لمولانا كمال الدين مجد ... أشمّ ومنصب عال وعزّه
يحب جواره زُهر المعالى ... كحب «كثير» أطلال «عزه»

وقول شيخ الشيوخ بحماة :

لعينى كل يوم فيه عَـبره ... تصيرنى لأهل العشق عِبره

وقول الشاب الظريف :

لا أجازى حبيب قلبى بظلمه ... أنا أحنى عليه من قلب أمه
جوره مثل عدله عند من يهواه م ... مثلى وظلمه مـثل ظلمه

وقول أبي الفتح البستى :

ولم أر مثل الشكر جَنة غارس ... ولا مثل حسن الصبر جُنّة لابس

ومن النثر قول القاضى الفاضل — وهو مما تكلفه — : لازالت الملوك ببابه وقوفا ، والأقدار له سيوفا ، والخلق له فى دار الدنيا ضيوفا ، ودَين دِين الحق إذا جردوا لتقاضيه سيوفا سيوفى .

والشاهد فى دَين ودِين ، وسيوفا وسيوفى .

وقول الثعالبى :

الصديق الصدوق أول العَـقد وواسطة العِـقد .

ومن لطائف البهاء زهير :

زها ورد خديك لكنه ... بغير النواظر لم يُـقتطَف
وقد زعموا أنه مُضعَف ... وما علموا أنه مُضعِف

٢ — أن يكون الاختلاف فى هيئة الحركة والسكون ، بأن يكون الحرف الواحد فى إحداهما متحركا وفى الأخرى ساكنا كقولهم : البدعة شَرَك الشِرك .

وقول أبي العلاء :

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشّعر أو بيت من الشَعَر

ومما تكلفه الصفدى :

رَطْب الرُّطَب ، ضرب من الضَّرَب

٣ — أن يكون الاختلاف بالتشديد والتخفيف كقول العِبادى في قصة إسماعيل — عليه السلام — : وقف الخليل بين مُنْية ومَنِيَّة . . . فلما تلَّ الولد للجبين ، نزلت السَّكينة على سِكِّينه .

وقول الشاعر :

أمسى يحدثنى فقلت لصاحبي أمحدَّث أم مُحدِث من فيه

يا ويح ريحان يحيّينا به والويل للكأس التى تسقيه

وقد مثّل له السكاكى بقوله : الجاهل إما مُفرط أو مفرّط .

وقال عنه : والمشدد فى هذا الباب يقوم مقـــام المخفف نظرا إلى الصورة فاعلم [١] .

وإنما نص على هذا لئلا يتوهم أنه من الجناس الناقص ، بناء على أن الحرف المشدّد فيه حرفان .

فبين أنه من الاختلاف فى الهيئة مع اتحاد موضع الاختلاف ، لأن الحرف المشدد فى حكم الواحد فى هذا الباب لوجهين :

أحدهما : أن اللسان يرتفع عن النطق عن الحرفين دفعة واحدة كالحرف الواحد ، وإن كان فى الحرفين ثقل ما إلا أنه لم يعتبر لقرب أمره .

وثانيهما : أنهما فى الكتابة « الصورة » شىء واحد ! وأمارة التشديد منفصلة ، فجعلا كالحرف الواحد .

لهذا جعل مثل ذلك من التجنيس الذى لم يقع الاختلاف فيه إلا فى الهيئة لا فى العدد[٢] .

وقد اعترض السبكى : بأنه لا معنى للنظر إلى الصورة والجناس لفظى ،

(١) المفتاح — ٢٢٧

(٢) مواهب الفتاح — ٤ — ٤٢٠

ثم إن الاختلاف فى الحركة والسكون لا وجود له كذلك .

وبما قاله ابن السبكى صرح به المطرزى فى أول شرح المقامات[1] .

ومن الغريب أن الدسوقى جعل التقسيم ثلاثيا ؛ بالحركة فقط ، أو بالسكون فقط ، أو بالحركة والسكون معا[2] .

وفاته أن الاختلاف بالسكون فقط يستحيل وجوده ؛ لأن السكون لايختلف كالحركة .

وليس من هذا النوع ماكان من باب فعل وفعّل ؛ إذ فعل بالتشديد مبالغة فى فعل بالتخفيف كقولك : قتل وقتّل .

أما إذا كان مثل اعتدى واعتدّ فهو منه لتغاير المعنى ؛ فالأول من الاعتداء ، والثانى من الاعتداد كقول ابن حيّوس :

يبالغ فى قتل العدا فهو معتدٍ ... ويسرف فى بذل الندى غير معتدّ

عوائد فى الأعداء كافلة بها ... عواد متى تنهَدْ إلى الشمّ تنهدّ[3]

وقد أورد كمال الدين الدميرى فى كتابه المسمى « حياة الحيوان » عند كلامه على « المها » : أبياتا تنسب إلى جميل بثينة ، أولها : تام ، وآخرها مطرف ، وباقى الأبيات من النوع المحرف الذى نحن بسبيله .

وقد أعجب بها الحموى وقال عن تحريفها إن حلاوته المعتدلة تمتزج بالأذواق وهى :

خليلىّ إن قالت بثينة ماله ... أتانا بلا وعد فقولا لها لها

أتى وهو مشغول لعُظم الذى به ... ومن بات طول الليل يرعى السها سها

بثينة تُزرى بالغزالة فى الضحا ... إذا برزت لم تبق يوما بها بها

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة ... كأن أباها الظبى أو أمها المها

دهتنى بود خاتل وهو متلفى ... وكم قتلت بالود مَن ودَّها دَها

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤٢١ (٢) حاشية الدسوقى — ٤ — ٤٢٠

(٣) جنان الجناس — ٢٣

والحقيقة أن هذه الأبيات متكلفة مضطربة النسج ، وجناسها لا تمتزج حلاوته بالأذواق؛ لخلوه من هذه الحلاوة المزعومة ولثقله وبرده وسخفه !

و « جميل » الناشىء فى بادية الحجاز فى العصر الأموى لا يعرف مثل هذا التصنع الصارخ ، وشعره فى أيدينا وبينه وبين هذا الشعر اختلاف بيِّن لا يخفى على من له حظ من النظر .

ومما جاء منه فى القرآن الكريم : « ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين » .

ولا يقال : إن اللفظين متحدان فى المعنى لأنهما من الإنذار فلا يكون بينهما تجنيس .

فاختلاف المعنى ظاهر ؛ إذ المراد بالأول : الفاعلون ، وبالثانى : المفعولون ، وهم الذين وقع عليهم الإنذار [1]

ومما جاء فى الأثر : قوله — عليه الصلاة والسلام — : « اللهم كما حسَّنت خَلْقى فحسِّن خُلُقى » .

وقوله — لجرير بن عبد الله البجلى — وقد كان عمر يلقبه يوسف هذه الأمة : « أنت امرؤ قد حسَّن الله خَلقك فأحسن خُلُقك » .

وقوله : « الدَّين شين الدِّين » .

وقوله : « إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف » .

ومن آثار الصحابة قول معاذ : الدَّين يهدم الدين .

ومن أقوال البلغاء : الجواد محتكر برّ لا محتكر بُرّ .

مزية الجناس المحرف .

وقد ذكروا فى مزيته أن فيه إظهار أمور مختلفة من مادة واحدة .

وأن فيه إلى ذلك حسن الإفادة الصرفة مع إيهام بعض الإعادة ؛ لأن فيه إيهام الاستئناف المشتمل على إعادة ما [2] .

ومما تجب ملاحظته كثرة هذا النوع من الجناس وبخاصة فى أشعار المولدين ومن جاء بعدهم ؛ لأن الطبع ينساق إليه فى يسر وسهولة .

---

(١) خزانة الأدب — ٤٥ (٢) الرشدى — ٢ — ١٤٢

الفصل الثامن

الجناس الناقص

الجناس الناقص يقابل التام، وحدّه : أن يقع تجانس اللفظين فى الحروف والحركات مع الاختلاف فى عدد الحروف .

سمى بالناقص ؛ لأن اختلاف الركنين فى عدد الحروف يلزم منه نقصان أحدهما عن الآخر لا محالة .

ويمكن أيضا قياسا على ما تقدم أن يسمى الزائد ؛ لأن الاختلاف فى عدد الحروف يلزم منه زيادة أحدهما على الآخر حتما .

وقد سماه الوطواط لذلك الزائد(١) .

وسماه الحلبى الزائد والناقص(٢) .

ومن أسمائه أيضا المزدوج(٣) والمذيل(٤) .

وتسميته بالناقص أولى ؛ لنقصان التشابه بين ركنيه بسبب اختلافهما فى عدد الحروف .

وليس المراد بالزيادة هنا أن الحرف زائد على الحروف الأصلية «فعل» بل المراد أنه لا مقابل له من المجانس ، بحيث إذا سقط الحرف الزائد كان الباقى مساويا للفظ الآخر ، فحصل منهما تجانس تام .

والاختلاف بين اللفظين يقع على ضربين :

١ — أن يقع الاختلاف بحرف واحد وهو ثلاثة أقسام :

(ا) أن يكون الحرف الزائد فى أول أحدهما كقولك : مالُك كالُك.

---

(١) حدائق السحر — ٩٦

(٢) حسن التوسل — ٤٣

(٣) جنان الجناس — ٢٧

(٤) حدائق السحر — ٩٦

ومثاله من الشعر ما أنشده عبد القاهر :

وكم سبقت منه إلى عوارف ثنائي على تلك العوارف وارف
وكم غرر من بره ولطائف لشكري على تلك اللطائف طائف

وسماه السيوطي مردوفا ؛ لأن حرف الزيادة — كالكاف الأولى في الكلمة الثانية من هذا المثال — مردوف بما وقع فيه التجانس [1] .

ومنهم من يسميه المكرر والمردود أو المردد .

(ب) أن يكون في الوسط كقولهم : جدي جهدي ، بفتح الجيم فيهما .
والأول معناه : الغنى والحظ ، والثاني : التعب والمشقة .

ولا عبرة بتشديد اللام كما مر في المحرف .

وكقولهم :

لا تفش سر صاحب السرير ، ولا تخض معه من الغدر في غدير .

وقول عبد المدان :

كفانا إليكم جدنا وحديدنا وكف متى ما تطلب الوتر تنقم

وقد سماه السيوطي المكتنف ؛ لأن حرف الزيادة فيه متوسط بين ما اكتنفاه [2] .

(ج) أن يكون آخرا ، وقد اقتصر عليه الوطواط في التمثيل .

مثاله من النثر : هو حام حامل لأعباء الأمور ، وكاف كافل لمصالح الجمهور .
أنا من زماني في زمانة ، ومن إخواني في خيانة .

ومن رسالة للبديع يفضل فيها العرب على العجم : العرب أوفى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، وأبلى وأبلغ ، وأشجى وأشجع ، وأسمى وأسمح ، وأعطى وأعطف ، وألطى [3] وألطف ، وأحصى وأحصف . . . .

ومن الشعر كقول كعب بن زهير :

---

(۱) شرح العقود — ۲ — ۱٥٠ (۲) المصدر السابق والرقم .
(۳) ألطى : ألصق .

ولقد علمت وأنت غير عليمة ألا يقرّبني الهـوى لهوان

وقول البحتري :

فإن صدفت عنّا فربت أنفس صواد إلى تلك النفوس الصوادف

وقول المرغيناني :

فديناه من خل موافٍ موافق ومن صاحب وافٍ مصافٍ مصافق [1]

وقول ابن شرف المارديني :

هلال في بروج السعد سار غزال في مروج العز سارح

وقول ابن جابر الأندلسي :

فياراكب الوجناء هل أنت عالم فداؤك نفس كيف تلك المعالم

وقول البهاء زهير :

أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر
طرفي وطرف النجم فيك م كلاهما ساه وساهر
يهنيك بدرك حاضر يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبين لناظري من منهما ساه وساهر

وقول آخر :

عذيريَ من دهر موار موارب له حسنات كلهن ذنوب

وقول آخر :

وسألتها بإشارة عن حالها وعليّ فيها للوشاة عيون
فتنفست صُعُداً وقالت ما الهوى إلا الهوان أزيل عنه النون

وقد سمى الخطيب وشراحه هذا النوع الأخير : «المطرف» لتطرف الزيادة فيه.

ويرى الصفدي : أن أحسن هذه الأنواع الثلاثة في الذوق : ما وقعت الزيادة فيه أول الركن الأول كقول ابن نباته :

عطفت كأمثال القسي حواجبا فرمت غداة البين قلبا واجبا

وقول آخر :

---

(١) المصافق : المرافق .

قام يسعى ما بين شَرب أعزه   من بنى الترك أغيد فيه عِزه

ومن مشهور قولهم : النبيذ بغير النغم غم ، وبغير الدسم سم .

وكان شرف الدين محمد بن الوحيد الكاتب يقول : إن هاتين السجعتين ما وقع لها ثالثة ، وقد عملت لها ثالثة وهى قولى : وبغير المليح قبيح .

وقد علق الصفدى على قول ابن الوحيد : بأن الأمر لو كان راجعا إلى السجع والوزن لعمل الناس مجلدات من هذا النوع .

ثم يقول : وقد تكلفت أنا لها الثالثة وهى : وبغير النهم هم !

أعنى : أن الإكثار من الشراب سبب الانشراح والسرور على العادة من كلام الذين أولعوا بالشراب ، وبالغوا فى الإكثار منه وحضوا عليه كأبى نواس وغيره[1] .

٢ — أن يكون الاختلاف بين اللفظين بزيادة أكثر من حرف .

وهو أيضاً ثلاثة أقسام :

(ا) أن تقع الزيادة فى أحدهما ، ويسمى متوجاً :مثل حديث الديلمى : « ضع بصرك موضع سجودك » .

وقول أبى الفتح البستى :

أبا العباس لا تحسب بأنى   لشيئ من حلى الأشعار عارى

فلى طبع كسلسال مَعين   زلال من ذُرى الأحجار جارى

إذا ما أكبت الأدوار زَندا   فلى زند على الأدوار وارى

وقد سماه السكاكى فى كنز البلاغة ترجيعاً ، لأن الكلمة رجعت بذاتها مع زيادة[2] .

والزيادة قد تكون حرفا مثل : « إن ربهم بهم . . . . » .

أو حرفين كأحجار وجار فى الشعر المتقدم .

---

(١) جنان الجناس — ٢٧

(٢) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٣ — شرح عقود الجمان — ٢ — ١٥٠

وسماه ابن الأثير بالمجنَّب ، وذلك أنه جمع بين كلمتين إحداهما كالتبع الأخرى والجنيبة لها .

ثم قال : وهذا القسم عندى فيه نظر ؛ لأنه بلزوم ما يلزم أولى منه بالتجنيس ؛ ألا ترى أن التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ وهو أوله[1] .

(ب) أن تقع الزيادة فى الوسط ، وفيه يقول السيوطى : ينبغى أن يسمى الزائد .

ولم يمثل له هو ولا غيره .

ونمثل له نحن بما يأتى : شُكْنِى المدَر[2] ، مصادر الغرر . بناء المساجد ، مجد خالد . الشكر عَرف العوارف . الندب[3] لا تؤثر فيه النوادب .

والشاهد فى مدر ومصادر ، ومساجد ومجد ، وعرف وعوارف وندب ونوادب .

(ج) أن تقع الزيادة فى الآخر ، ويسمى المتمَّم[4] .

والأشهر تسميته بالمذيل للمناسبة بين الاسم اللغوى والاصطلاحى ؛ لأن تلك الزيادة فى آخره كالذيل .

وذلك كقول النابغة :

لها نار جن بعد إنس تحوّلوا   وزال بهم صرف النوى والنوائب

وقول الخنساء - وهو أرق ما سمع فى هذا الباب - :

إن البكاء هو الشفاء   من الجوى بين الجوانح

وقول حسان :

وكنا متى يغز النبي قبيلة   نصل جانبيه بالقنا والقنابل

وقول آخر فى رثاء :

فيا لك من حزم وعزم طواهما   جديد الردى تحت الصفا والصفائح

---

(١) المثل السائر — ١٠٥   (٢) المدر : المدن جمع مدرة .

(٣) الندب : الخفيف الظريف النجيب .   (٤) جنان الجناس — ٢٨

ويرى ابن السبكى أن التسمية بالمذيل أدق وأظهر فى مثل الأمثال المتقدمة ، لأن اللفظ الثانى هو الذى وقع فيه التذييل ، بخلاف ما إذا قيل : الجوانح والجوى ، والمدامع والمدى ، كقول ابن جابر الأندلسى :

بين الجوانح لو علمت من الجوى ... نار عليها سكب دمعى يصنع

فدع المدامع فى مدى جريانها ... فالدمع بعد فراقهم لا يمنع

فإن الكلمة الأخيرة فيه غير مذيلة ، والتذييل إنما يكون فى الآخر [1].

ويلاحظ ابن يعقوب : أن الخطيب لم يمثّل للقسم الثانى من الناقص « المذيل » ـ وهو ما وقع الاختلاف فيه بزيادة أكثر من حرف ـ إلا للنوع الذى وقعت فيه الزيادة أخيراً .

ويعلل هذا بأنه لم يوجد فى كلامهم أو قَلّ بحيث لا يعتبر [2] .

وقد قدمنا أن ما وقع الاختلاف فيه بالزيادة فى الوسط ، هو الذى لم يوجد فى كلامهم ومثلنا له من عندنا .

والحق أن أهل البديع اضطربت أقوالهم فى المذيل والمطرف وبخاصة الأخير ، وكثرت بينهم الخلافات على غير طائل .

فالرازى والصفدى عندهما المطرف هو المضارع ، وهو : ما يقع فيه الاختلاف بين اللفظين بحرف واحد مع تقارب المخرج .

والسكاكى عنده المطرف هو : المضارع أيضاً ، ولكن الاختلاف عنده يقع بحرف أو حرفين مع تقارب المخارج .

والوطواط عنده المطرف : ما يقع الاختلاف فيه بين الركنين فى الحرف الأخير منهما خاصة .

وأصحاب البديعيات عندهم المطرف : ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفا فى أوله ليصير له كالطرف ، كالساق والمساق .

وعد ابن حجة مطابقة المطرف فى التسمية طرفة .

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤٢٥

(٢) مواهب الفتاح — ٤ — ٤٢٤ (٣) خزانة الأدب — ٤٣

ولعله يشير إلى أن اللغة تساعد على ذلك ، ففى القاموس : طرّف الخيل رد أوائلها .

والخطيب عنده المطرف : ما تكون زيادة الحرف فى آخره كقواض وقواضب .

والمذيل عند الرازى والسكاكى والعلوى : ماوقعت فيه الزيادة بحرف فى أحد الركنين بقطع النظر عن موقعها .

وعند الخطيب تكون الزيادة بأكثر من حرف مثل الجوى والجوانح .

وعند الصفدى : ماوقعت فيه الزيادة بالحرف فى الآخر كالهوى والهوان . وسمى ما وقعت فيه الزيادة بحرفين فى الآخر : المتمم ، وخطأ من سماه مذيلا كالخطيب ومن تبعه .

وعند الوطواط : ما وقعت فيه الزيادة بحرف فى الآخر كالصفدى ، وقد سماه الزائد ، وأصحاب البديعيات اشترطوا أن تكون الزيادة فى الآخر سواء أكانت حرفا أم حرفين .

قيمة المطرف :

وجه الحسن فى المطرف عندهم : أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم والباء من قواضب فى قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجىء ثانية وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

أما مثل قول الشاعر :

وكم سبقت منه إلى عوارف ثنائى على تلك العوارف وارف

وكم غرر من بره ولطائف لشكري على تلك اللطائف طائف

فإن اختلاف الكلمات من أولها بحرف من مبدأ الكلمة فى الجملة، لا يقوى تلك القوة كأنك ترى اللفظة أعيدت عليك مبدلا من بعض حروفها غيره أو محذوفا منها ، ولكنه لا يبعد كل البعد عن اعتراض طرف من هذا التخيل فيه .

والذى يجب عليه الاعتماد فى هذا الفن أن التوهم على ضربين :

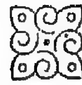
ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً .

وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولكنه شىء يجرى فى الخاطر وأنت تعرف ذلك وتتصور وزنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشبه التام ، والشيئين يشبه أحدهما الآخر على ضرب من التقريب [1] .

وقد لاحظ ذلك ابن السبكى فقال :إن ذلك الحسن لا يتم إلا إذا تقدمت الكلمة الخالية من الزيادة كقواض وقواضب فى بيت أبى تمام المتقدم ، وهى لا تتقدم دائما [2].

وقد تقدم تفصيل ذلك وبيان الفرق فى الحسن بين الزيادة فى الأول والآخر .

على أن الصفدى كما سبق عدّ أجود هذه الأنواع كلها أن تكون الزيادة فى أول الركن الأول كقولهم: النبيذ بغير نغم غم. . .



(١) أسرار البلاغة — ١٢ — ١٣ — مواهب الفتاح — ٤ — ٤٢٤

(٢) عروس الأفراح — ٤ — ٤٢٤

الفصل التاسع

جناس القلب

ويسمى أيضاً : الجناس المقلوب ، والجناس المخالف والمعكوس وجناس العكس .

وحدّه : أن يتفق الركنان فى نوع الحروف وعددها وهيئتها وشكلها، ويختلفا فى الترتيب فقط .

وهو قسمان :

١ — قلب كل .

وهو أن تكون المخالفة فى جميع الحروف ، بأن يقع الحرف الأخير من الكلمة الأولى أولا من الكلمة الثانية ، والذى قبله ثانياً وهكذا .

ووجه التسمية فيه ظاهر لانعكاس ترتيب الحروف كلها .

مثاله من النثر قول بعضهم : كفه بحر ، وجنابه رحب .

ومن الشعر قول العباس بن الأحنف [1] :

حسامك منه للأحباب فتح   ورمحك منه للأعداء حتف

والشاهد فى « بحر ورحب» و «فتح وحتف » .

وإن وقع أحد ركنيه أول البيت والآخر آخره سمى مقلوبا مجنحاً [2] لأن اللفظين فيه صارا للبيت كالجناحين للطائر فى وقوعهما متوازيين فى الطرفين المتقابلين .

ولم يفرق الخطيب فى التلخيص وشراحه فى ذلك بين قلب الكل وقلب

---

(١) هكذا فى معاهد التنصيص ، وفى حدائق السحر نسبه الوطواط لنفسه .

(٢) هذه التسمية من اختراعات الصفدى كما صرح بذلك — جنان الجناس — ٣٣

البعض الذي سيأتي ، ولكن الرازي والصفدي والمرشدي خصوه بقلب الكل.
ويسمى المقلوب المجنح بالمعطف أحياناً .
وقد جعله الوطواط قسما مستقلا وإن كان عبارة عن مقلوب الكل [1].
وذلك كقول الشاعر :

لاح أنوار الهدى   من كفه في كل حال

والشاهد في لفظي «لاح» و «حال» .
وقول الشاب الظريف [2] مع زيادة التورية :

أسكرني باللفظ والمقلة الكحلاء   والوجنة والكاس
ساق يريني قلبه قسوة   وكل ساق قلبه قاس

والشاهد في «ساق» و «قاس» .
وقول بعضهم :

ساق هذا الشاعر الحين   إلى من قلبه قاسي
سار حيّ القوم فالهمّ   علينا جبل راسي

وقول الصفدي :

رضّت فؤادي غادة   ما كنت أحسبها تضر
ردّت رسولي خائباً   فـدامعي أبداً تدر

وقول آخر :

رقت شمائل قاتلي   فلذاك روحي لا تقر
رد الحبيب جوابه   فكأنه في اللفظ در

والمجنح عند أكثر العلماء مختص بالشعر .
ولكن ابن السبكي لا يرى ذلك ، فقال معترضا على قول الخطيب في التلخيص : «وإذا وقع أحد المتجانسين جناس القلب في أول البيت ...»

---

(١) حدائق السحر — ١٠٩
(٢) هكذا في خزانة الأدب للحموي — ٤٩ ونسبه الدسوقي في حاشيته لابن نباتة — ٤ — ٤٤٩

ينبغى أن يقول : أو أول الفقرة ليعم النظم والنثر [١] .

وقد أورد المرشدى هذه الزيادة فى كلامه على المجنح [٢] .

وقد تساءل ابن السبكى : لم لا يسمى بهذا الاسم «المجنح» : ما اتفق لسائر أنواع الجناس ، فيقال : التام المجنح وكذلك الجميع ؟

وقد أجاب ابن السبكى على سؤاله بقوله : لعلهم لاحظوا مناسبة بين الجناح والقلب لسرعة تقلب الجناح [٣] .

والسؤال والجواب لا يخلو من الوجاهة والظرف .

ومن لطائف قلب الكل من النثر قول الصاحب بن عباد لأبى العباس ابن الحارث فى يوم قائظ : ما يقول الشيخ فى قلبه ؟

يعنى : مروحة الخيش ، لأن قلب الشيخ : الخيش .

ومن رائق الشعر قول النيلى :

إذا رأيت الوداع فاصبر ... ولا يهمنك البعـــاد

وانتظر العود عن قريب ... فإن قلب الوداع عادوا

وقول أبى عبد الله الغواص :

مَن عذيرى من عذول فى قمر ... قامر القلب هواه فقمر

قمر لم يبق منى حبـــه ... وهواه غير مقلوب قمر

وقول بعضهم فى إهداء كرسى :

أهديت شيئًا يقلّ لولا ... أحدوثة الفال والتبرّك

كرسى تفاءلت فيه لمـا ... رأيت مقلوبه يسرك

ومقلوب كرسى: يسرك .

وقول القاضى أبى بكر البستى فى البهار :

حكانى بهار الروض لما ألفته ... وكل مشوق للبهار مصاحب

فقلت له ما بال لونك شاحبا ... فقال لأنى حين أقلب راهب

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤٢٩ (٢) المرشدى على العقود — ٢ — ١٤٥

(٣) عروس الأفراح — ٤ — ٤٢٩

وزاد على هذا المعنى ابن رشيق فى قوله :

يا حسن ما سمى البهار به لو تركته عيافة العائف

قلبتــــه راهبا فأشعرنى خوفا وتأويل راهب خائف

وقول ابن نباتة فى الأمير شجاع الدين بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب

قلت هــذا تخرص قلب بهرام « ما رهب »

وقول آخر :

كيف السرور بإقبال وآخره إذ تأملته مقلوب إقبال

ومقلوب إقبال : لا بقى .

وقول بعضهم :

وتحت البراقع مقلوبهـا تدب على ورد خد ندى

تسالم من لمست خـده وتلسب قلب الشجى الأبعد

يريد بمقلوب البراقع : عقارب الأصداغ ، وهى الشعور الملتوية فوق الخدود .

وقول الآخر :

جاذبتها والريح تجذب عقرباً من فوق خد مثل قلب العقرب

وطفقت ألثم خدها فتمنعت وتحجبت منى بقلب العقرب

قلب العقرب الأول : عبارة عن الكوكب الأحمر ، وقلب العقرب الثانى : البرقع .

ومن قبيح هذا النوع : البيت المشهور الذى زعموا أن الجن قالته فى حرب ابن أمية حين قتلته بثأر حية منهم قتلها حرب ! :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ويقال : إنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات فلا يتتعتع[1].

وفيه يقول الحموى : فقرب وقبر لأجل الجناس المقلوب ، هو الذى

---

(١) معاهد التنصيص — ١ — ١٣

قلب عليه القلوب[1]، وفى قلب الكل يقول ابن الأثير : وهذا الضرب نادر الاستعمال ، لأنه قلما تقع كلمة تقلب حروفها فيجىء معناها صوابا[2] .

٢ — قلب بعض .

وهو أن يكون التقديم والتأخير فى بعض حروف الكلمة دون بعض . سمى بذلك لوقوع التبديل فى بعض حروف اللفظين .

مثاله من النثر قول بعضهم : رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه ، وأطلق ما بين كفيه .

ونحو : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

ومن نكت الإمام الحنفى البسطامى : أسد تقاربه، خير من حسود تراقبه[3] .

ومن أقوال البلغاء : من يحرم يرحم ، ومن يُجرم يرجم .

ومن الشعر قول شاعر فى الهيثم بن عدى — وكان دعيا فيما زعموا[4]:

الهيثم بن عدى من تنقله ... فى كل يوم له رحل على قتب

إذا اجتدى معشراً من فضل نسبتهم ... فلم يذلوه عداهم إلى نسب

فما يزال له حل ومرتحل ... إلى النصارى وأحيانا إلى العرب

إذا نسبت عديا فى بنى ثعل ... فقدم الدال قبل العين فى النسب

يريد أنه دعى وهى مجانسة لعدى .

وقول عبد الله بن رواحة فى مدح الرسول — صلوات الله عليه : —

تحمله الناقة الأدماء معتجراً ... بالبرد كالبدر جلّى نوره الظلما

ويعدونه الغاية فى هذا النوع ، بل يعدونه أمدح بيت قالته العرب[5] .

ويقول العباسى نقلا عن ابن أبى الأصبع : رأيت فى بعض الكتب أن هذا البيت أحد بيتين مجرورين لكعب بن زهير وهما :

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبرد كالبدر جلى ليلةَ الظلم

وفى عطافيه أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

---

(١) خزانة الأدب — ٢٤

(٢) المثل السائر — ١٠٥

(٣) مناهج التوسل — ١٢٢

(٤) العقد الفريد — ٤ — ١٨٦

(٥) خزانة الأدب للحموى — ٤٩

ثم يقول : رأيت فى حماسة أبى تمام نسبة هذا البيت لأبى دَهْبل الجمحى فى الأزرق المخزومى[1] يرثيه فى أبيات أخرى[2] .

ومهما يكن فعندى أن الجناس المقلوب فى البرد والبدر جناس عادىّ، فليس هو الغاية فى ذلك كما وصفوا .

كما أن من الإسراف أن يعد البيت أمدح ما قالته العرب ؛ فالتشبيه بالبدر قريب مبتذل وقد ملأ الشعراء به الدنيا من قديم الزمان، وأبلغ منه قول ابن قيس الرقيات :

إنما مصعب شهاب من الله م تجلت بنوره الظلمـــاء

وأحسب أن الذين وصفوه بالإبداع إلى غاية الغايات ، استمدوا له الفخامة من الممدوح وهو الرسول الكريم ، ولو عرفوا أنه قيل فى ابن الأزرق المخزومى ما كان عندهم بهذه المنزلة .

ومن قلب البعض قول المتنبى :

مُمنَّعة منعَّمة رَداح يكلف لفظها الطير الوقوعا

وقول أبى فراس :

فعندى خصب رُوَّاد وعنـــدى رِى وُراد

وقول ابن جابر الأندلسى :

أملى أنى أرى ربعكمو فبه يذهب عنى ألمى

وقول آخر :

وقالوا أى شىء فيه أحلى فقلت المقلتـان المقتلان

وقول آخر :

وألفيتهم يستعرضون حوائجا إليهم ولو كانت عليهم جوائحا

وقول آخر :

إن بين الضلوع منى نارا تتلظى فكيف لى أن أطيقا

---

(١) الصواب : ابن الأزرق كما فى ديوان الحماسة — ٢ — ٢٨٢

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ٨١

فبحق عليك يا من سقاني ... أرحيقا سقيتني أم حريقا

وقد يجيء في أكثر من كلمة كقول الشاعر :

ليق أقبـــل فيه هيف ... كل ما أملك إن غنى هبهْ

فكل كلمة منه بانضمامها إلى أختها تجانسها في القلب ، ولا يخفى ما فيه من التكلف .

٣ ـــ المقلوب المستوى .

وهو قلب كل الحروف في كلمتين أو أكثر شعرا أو نثرا ، بحيث تكون قراءتها من أولها إلى آخرها عين قراءتها من آخرها إلى أولها .

وعرفه الحريرى في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو أن يكون عكس البيت أو عكس شطره كطرده .

ومثل له بقوله : ساكب كاس .

ثم زاد في العدة فقال : كبِّر رجاء أجر ربك .

ثم زاد في العدة أكثر فقال : لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل .

ومن نظم الحريرى :

أسٌ أرملا إذا عرا ... وارع إذا المرء أســـا

ومن قول بعضهم :

أراهـنّ نادمنه ليل لهو ... وهل ليلهن مدانٍ نهارا

ووصل القاضى فتح الدين بن الشهيد في تركيبه إلى أكثر من ذلك[1] .

وليس المهم في هذا النوع كثرة العدد ، ولكن رقة الألفاظ وانسجامها وحسن الصياغة وصواب المعنى والبراءة من التكلف والتعقيد ، وجريانه على الطبع المواتى .

ومما لا يشك أنه من هذا النوع قول شيخ الإسلام ابن البارزى : سور حماه بربها محروس .

---

(١) خزانة الأدب ـــ ٢٩٤

ومن بدائعه قول العماد الكاتب للقاضي الفاضل — عند مروره به راكبا — : سر فلا كبا بك الفرس !

وقد أدرك القاضي الفاضل ما أراد فأجابه على الفور : دام علا العماد .

فهذا النوع ينبجس من الخاطر بلا تقدير سابق ولا تهيئة ولا إعداد كما يحدث في المناقلات .

ولكن أغلب هذا النوع لا يجرى على هذا النهج ، لأن الكاتب يتعمد فيه قلب تعبيراته لتطارد له صور من الألفاظ المتعاكسة في عباراته ، إنها طبعا أساليب التصنع وما يطوى فيها من تعقيد وتصعيب في طرق الأداء فإذا الكاتب يفر من الأداء الصحيح إلى الأداء المضطرب ، لا ليدل على شيء سوى مهارته في اللعب والعبث بالألفاظ ، وإنه لعبث ينتهي إلى هذه الصورة الهندسية التي لا تحوى فنا ولا جمالا وإنما تحوى تعقيداً كأنما التعقيد غاية ينبغي أن يطلبها الكاتب في آثاره وأعماله (١)

وقد صرح العلوى : بأن هذا النوع «المستوى» قليل نادر صعب المسلك وعر المرتقى ، لا يكاد يأتي به إلا من أفلق في البلاغة وتقدم في الفصاحة (٢) .

كما اعترف بندرة الجيد منه ابن شهاب الدين الحضرمي(٣) ، فقال : وهذا النوع إذا قلدته العقادة أطواقها وحرمته السهولة مذاقها ، محذور فيه كل ناثر وناظم ، ومصفوح فيه عن كل صادح وباغم ، لأنه صعب الانقياد حتى لفحول الرجال ، ممتنع عن الانسجام حتى إذا طال ، ولم أر فيما وقفت عليه من كتب الأدب منه ما يعجب المطالع ، ويطرب لانسجامه وسهولته السامع إلا بيتين للقاضي الأرجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كلٌّ مودته تدوم

والثاني لم أعرف قائله وهو :

عِشْ تنم قربك دعد آمناً إنما دعد كبرق منتجَع

---

(١) النثر ومذاهبه في النثر العربي — ١٥٢ (٢) الطراز — ٣ — ٩٦

(٣) إقامة الحجة على التقي بن حجة — ٤٣

وفى بيت الأرجانى يقول الحموى[1]: وقع الإجماع عليه أنه أبلغ شواهد هذا النوع ، لاستيعاب ناظمه شروط الحسن فيه .

وأسهل منه عند أبى جعفر الأندلسى قول بعض المتأخرين :

نال سر العلا بما قد حواه ... أوحد قام بالعلا رسلان

وفيه نظر لا يخفى كما يقول العباسى [2] :

ومما وقع منه فى الكتاب الكريم قوله — تعالى — «كلٌّ فى فلك» «وربَّك فكبر» .

ولم يعد شراح التلخيص هذا النوع من تجنيس القلب كما عده غيرهم ، بل عدوه قسما مستقلا من المحسنات اللفظية وفرقوا بينهما بما يأتى :

١ — تجنيس القلب يجب أن يذكر فيه اللفظ المقلوب مع مقابله .

٢ — لا يجب فيه أن يكون أحد المتجانسين نفسه مقلوب الآخر إذا قرىء من آخره كالقمر والرقم مثـــلا ، بخلاف المستوى فإنه يذكر فيه المقلوب وحده ، وحيثما قرىء من آخره كان هو نفسه كسلس وكشك وكعك وخوخ وباب وشاش وساس .

وهذا فى المفرد ، وأما فى المركب فقد يذكر المقلوبان معا كما فى قول الشاعر :

أرانا الإله ... هلالا أنارا

وإذا جوزنا تجنيس القلب فى المركب جاز أن يدعي تصادقهما فى نحو :

أرانا الإله ... هلالا أنارا

لوجود المتجانسين قلبا [3].

٤ — العكس .

وهو فى اللغة رد آخر الشىء على أوله .

وفى الاصطلاح : أن تعكس الكلام فتجعل فى الجزء الأخير ما جعلته فى الجزء الأول .

---

(١) خزانة الأدب — ٢٩٤ ... (٢) معاهد التنصيص — ٢ — ١٠٢

(٣) مواهب الفتاح — ٤ — ٤٦٠

وهذه تسمية العسكرى [١] .

وسماه قدامة التبديل ، ومثل له بقول بعضهم : أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك [٢] .

ويقع على وجوه منها :

١ — أن يقع بين أحد طرفى جملة وما أضيف إليه نحو : عادات السادات ، سادات العادات . وشيم الأحرار أحرار الشيم .

٢ — أن يقع بين متعلق فعلين فى جملتين نحو قوله — تعالى — : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » .

٣ — أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين نحو قوله — تعالى — : « لا هن حِلٌ لهم ولا هم يحِلّون لهن » .

وهذا النوع كثير فى النثر والشعر ومعظمه يقع على سنن الطبع ، وحسن موقعه فى الكلام لا يجهل ، وقد اعترف له ابن الأثير بهذه المزية فقال : وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق [٣] .

ومما ورد منه فى القرآن الكريم غير ما تقدم : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسكَ لها وما يمسك من خير فلا مرسلَ له » .

ومن الحديث « جار الدار أحق بدار الجار » .

ومن أقوال الصحابة : ما كتب به على إلى ابن عباس — رضى الله عنهما — : أما بعد فإن الإنسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ، ولا بما فاتك منها ترحا ، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة بطول أمل ، وكأن قد ، والسلام .

وقول أبى الدرداء : كان الناس ورقا لا شوك فيه ، فصاروا شوكا لا ورق فيه .

---

(١) الصناعتين — ٣٦١

(٢) المثل السائر — ١٠٤

(٣) المصدر المتقدم والرقم .

وقول بعض القدماء : ما أقل منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة ، وما أكثر قلة المعرفة مع ملك النفس .

وقيل للحسن بن سهل — وكان يكثر العطاء — : ليس فى السرف خير .

فقال : ليس فى الخير سرف .

فعكس اللفظ واستوفى المعنى .

وعزّى رجل أخاه على ولد فقال : عوضك الله منه ما عوضه منك .

وقالت بعض النساء لولدها : رزقك الله حظا يخدمك به ذوو العقول ، ولا رزقك عقلا تخدم به ذوى الحظوظ .

وقيل لبعض الحكماء : لم تمنع من يسألك ؟

فقال : لئلا أسأل من يمنعنى !

وقال بعض الحكماء : إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون .

وقال بعضهم لرجل — كان يتعهده — : أسأل الله الذى رحمنى بك أن يرحمك بى !

ولبعضهم فى الدعاء : اللهم أغننى بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك !

ومن الشعر قول الحماسى :

رمى الحدثان نسوة آل حرب	بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا	ورد وجوههن البيض سودا

وقول عدى بن الرقاع العاملى :

ولقد ثنيت يد الفتاة وسادة	لى جاعلا إحدى يدىّ وسادها

وقول الأضبط بن قريع الجاهلى :

قد يجمع المال غير آكله	ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه	ويلبس الثوب غير من قطعه

ومما نسب إلى الرشيد :

لسانى كتوم لأسراركم	ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا دموعى كتمت الهوى	ولولا الهوى لم تكن لى دموع

وقول آخر :

تلك الثنايا من عقدها نظمت أم نظم العقـــد من ثناياها

وقول آخر :

إن الليـــالى للأنام مناهل تطوى وتنشر دونها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

وقول المتنبى :

فلا مجد فى الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال فى الدنيا لمن قلّ مجده

وقول الشريف الرضى يذم الزمان :

أسَفّ بمن يطير إلى المعالى وطار بمن يُسفّ إلى الدنايا

وقول ابن نباتة السعدى :

ألا فاخش ما يُرجى وجدّك هابط ولا ترج ما يخشى وجدك رافع

فلا نافع إلا مع النحس ضائر ولا ضائر إلا مع السعد نافع

وقول عبد العزيز الأنصارى :

أفنيت عمرىَ فى دهر مكاسبه نطيع أهواءنا فيها وتعصينا

تسعا وعشرين مدّ الهم شقتها حتى توهمتها عشرا وتسعينا

ومن ردىء هذا النوع الجامع بين السخف والإسفاف والتفاهة والتكلف وفسولة المعنى قول بعضهم :

زعموا أنى خئون فى الهوى فى الهوى أنى خئون زعموا

ويتصل بما نحن فيه نوعان من العكس :

١ — عكس المعنى ، وهو أن يأتى الشاعر إلى معنى لنفسه أو لغيره فيعكسه.

مثال الأول قول بعضهم :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

وقول آخر :

هاقد غدا من ثياب الشَّعر فى كفن وقد تعفت معانى وجهه الحسن

وكان يُعرض عنى حين أبصره فصرت أعرض عنه حين يبصرنى

ومثال الثاني قول بعضهم :

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

وجاء آخر فقال :

وربما فات بعض الناس أمرهم   مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

وقد أورد الحموي : أن هذا النوع من زيادة ابن أبي الأصبع[1] .

ولكن الحقيقة أن ابن أبي الأصبع مسبوق به ؛ فقد ذكره العسكري فقال : والعكس أيضا من نوع آخر ، وهو أن يذكر المعنى ثم يعكسه بإيراد خلافه ، ومثل له بقول الصاحب : وتسمَّى شمس المعالي وهو كسوفها[2].

٢ — قلب الكلمات :

وقد ذكره العباسي[3] ومثل له بقول الشاعر :

عدلوا فما ظلمت لهم دول   سعدوا فما زالت لهم نعم

بذلوا فما شحت لهم شيم   رفعوا فما زلّت لهم قدم

فهذا دعاء لهم ومدح .

فإذا انقلبت كلماته صارت دعاء عليهم وهجوا بأن يقال :

نعم لهم زالت فما سعدوا   دول لهم ظلمت فما عدلوا

قدم لهم زلت فما رفعوا   شيم لهم شحت فما بذلوا

وقد ذكر الوطواط : أن أنواع المقلوبات كثيرة أكثرها اشتهارا أربعة وهي :

مقلوب البعض ، ومقلوب الكل ، والمقلوب المجنح ، والمقلوب المستوى .

وقال عن المقلوبات : إنها من جملة الصناعات الغريبة التي يتخذونها في النظم والنثر ، وتدل على قوة الشاعر أو الكاتب وسلامة طبعه وخاطره[4].

ولسنا معه في هذه المغالاة ، فأكثرها يشوبه التكلف والاجتلاب ، والجيد منها قليل وهو ما أتى عفوا من غير استكراه .

---

(١) خزانة الأدب — ٢٠٣   (٢) الصناعتين — ٣٦٢

(٣) معاهد التنصيص — ٢ — ١٠٣   (٤) حدائق السحر — ١٠٧

الفصل العاشر

جناس الاشتقاق

ويسمى الجناس المشتق ، وجناس الاقتضاب أيضاً .

وهو : ما توافق فيه اللفظان فى الحروف الأصلية مع الترتيب والاتفاق فى أصل المعنى .

أو هو : ما جمع ركنيه أصل واحد فى اللغة ، ثم اختلفا فى حركاتهما وسكناتهما .

ولما كانت الحروف لا يشتق منها لم تدخل فى هذا الجناس .

وقد وهم العلوى فسماه المطلق[1] .

والمطلق شبه الاشتقاق كما سيأتى :

والاشتقاق : أخذ لفظ من الآخر لمناسبة بينهما فى المعنى .

والمراد به هنا الاشتقاق الصغير الذى ينصرف إليه اللفظ عند الإطلاق .

وهو ما يوافق فيه اللفظان فى الحروف الأصول مع الترتيب والاتفاق فى أصل المعنى ، كقوله — تعالى — : « فَأَقِمْ وجهَك للدين القيِّم » .

« فأقم » و « القيم » مشتقان من قام يقوم على مذهب الكوفيين .

أو من القيام على مذهب البصريين .

ففيهما الأصول من الحروف مع الترتيب والاتفاق فى أصل المعنى .

أما الاشتقاق الكبير فهو : الاتفاق فى الحروف والأصول دون الاتفاق فى الترتيب مثل القمر والرمق والمرق .

فهذه الألفاظ الثلاثة بينها الاشتقاق الكبير لاتحادهما فى الحروف الأصول دون الترتيب .

(١) الطراز — ٢ — ٣٦ .

وقد اشار كشاجم إلى الاشتقاق فى قوله — يذم خادماً أسود مشهورا بالظلم — :

يا مشبهاً فى لونه فعله · لم تخط ما أوجبت القسمهْ
فعلك من لونك مستخرج · والظلم مشتق من الظلمهْ

ومثله قول بعض المتأخرين :

عاينتُ طيف الذى أهوى وقلت له · كيف اهتديت وجنح الليل مسدول
فقال آنست نارا من جوانحكم · يضيء منها لدى السارين قنديل
فقلت نار الجوى معنى وليس لها · نور يضيء فماذا القول مقبول
فقال نسبتنا فى الأمر واحدة · أنا الخيال ونار الشوق تخييل

وقد نبه على الاشتقاق فى قوله :

...نسبتنا فى الأمر واحدة .

وقد وقع الاختلاف فى الاشتقاق ؛ فمنهم من عده أصلا برأسه ، ومنهم من عدّه قسما من التجنيس (١) .

فالعسكرى لا يعد من التجنيس قول زهير :

بعزمة مأمور مطيع وآمر · مطاع فلا يُلفى لحزمهم مثل

لأن الاختلاف بين الآمر والمأمور ، والمطيع والمطاع لأجل أن بعضها فاعل وبعضها مفعول به ، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة .

وكذا لا يعد من التجنيس قول الآخر :

فذو الحلم منا جاهل دون ضيفه · وذو الجهل منا عن أذاه حليم

وقول خداش بن زهير :

ولكنْ عايش ما عاش حتى · إذا ما كاده الأيام كيدا

وقول الشنفرى :

وإنى لحلو إن أريد حلاوتى · ومر إذا النفس العزوف أمرت

---

(١) حسن التوسل — ٤٦

وقول العجير السلولى :

يسرك مظلوماً ويرضيك ظالما وكل الذى حملته فهو حامله

وقول تأبط شرا :

يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدى

بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[1]

وقول آخر :

وساع مع السلطان يسعى عليهم ومحترس من مثله وهو حارس

وقول آخر :

صُبَّت عليه ولم تنصب من كثَب إن الشقاء على الأشقين مصبوب

وليس فى هذه الألفاظ تجنيس وإنما اختلفت هذه الكلم للتصريف[2].

ويقول ابن الأثير : إن جماعة من علماء البيان يفصلون الاشتقاق عن التجنيس من الكلام ؛ وذاك أن التجنيس فى أصل الوضع : من قولهم جانس الشيءُ الشيء : إذا ماثله وشابهه .

ولما كانت الحالة كذلك ووجدنا من الألفاظ مايتماثل ويتشابه فى صيغته وبنائه ، علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس .

وكذلك لما وجدنا من المعانى ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم التجنيس أيضاً .

فالتجنيس إذاً ينقسم قسمين :

أحدهما تجنيس فى اللفظ والآخر تجنيس فى المعنى .

فأما الذى يتعلق باللفظ فإنه لم ينقل عن بابه ولا غير اسمه .

وأما الذى يتعلق بالمعنى فإنه نقل عن بابه فى التجنيس وسمى الاشتقاق : أى أحد المعنيين مشتق من الآخر .

ثم مثل للاشتقاق بقوله : هشمتك هاشم ، وحاربك محارب ، وسالمك سالم ، وأصاب الأرض صيّب

فهذه الألفاظ كلها لفظها واحد ومعناها واحد ؛ فهاشم : هشم الثريد

---

(١) أم النجوم: المجرة لأنها مجمع النجوم . (٢) الصناعتين — ٣١٠ .

فى عام المحل فسمى بذلك ، ومحارب : اسم فاعل من حارب ، وسالم : اسم فاعل من سلم ، وصيب المطر : الذى يشتد صوبه : أى وقعه على الأرض .

أما قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعُصيّة عصت الله » .

فلا يقاس على ذلك ؛ لأن هذه الأسماء أسماء قبائل ، ولم تسم أسلم من المسالمة ، ولا غفار من المغفرة ، ولا عصية من تصغير عصا .

وهذا هو التجنيس وليس بالاشتقاق ، والنظر فى مثل ذلك يحتاج إلى فكرة وتدبر كيلا يختلط التجنيس بالاشتقاق (١) .

فابن الأثير يعد الاشتقاق من التجنيس ولا يرى فصله منه ولكنه يذكر أنه نقل عن بابه فى التجنيس وسمى الاشتقاق ، وأما شبه الاشتقاق فهو عنده التجنيس الأصيل .

ولا يخلو كلامه من الخلط والتناقض ؛ فهو أولا : يأخذ على بعض العلماء فصلهم الاشتقاق عن التجنيس بحجة أن المجانسة تماثل وتشابه وهى موجودة فى الاشتقاق ، ثم فرّع عن ذلك قسمة التجنيس إلى قسمين : لفظى ومعنوى ، وأن الاشتقاق هو المعنوى ، ولكنه نُقل عن بابه فى التجنيس وسمى الاشتقاق ، ولا ندرى لم نقل وكيف نقل ومن الذى نقله ؟
ثم يقول أخيراً : وتدبر كيلا يختلط التجنيس بالاشتقاق .

وقوله هذا هو سبب الاختلاط ، فإن خلاصته : أن الاشتقاق أحد قسمى التجنيس وأنه يطلق عليه اسم التجنيس ، ولكنه نقل من باب التجنيس فأصبح لا يسمى بالتجنيس !

وثانياً : أنه قسم الجناس إلى قسمين لفظى ومعنوى ، وهذا التقسيم معروف للعلماء كما سيأتى فى موضعه ولكنهم يريدون به غير ما يريده والحق فى جانبهم .

---

(١) المثل السائر — ٣٠٣ .

وثالثاً : أنه يسمى مثل هشم وهاشم، وحارب ومحارب، وسالم وسالم تجنيساً في المعنى، للتماثل والتشابه في المعاني، ويسمى مثل غفار وغفر تجنيساً في اللفظ للتماثل والتشابه في اللفظ، وفاته أن هشم وهاشم ...... متماثلة ومتشابهة في اللفظ أيضاً فكان من الحق بناء على ذلك أن يسمى مثل ذلك جناساً في اللفظ والمعنى.

وحقيقة المجانسة عند الرماني، بالمناسبة : بمعنى الأصل نحو قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

لأن معناهما جميعاً أبلغ.

وأما قولك : قرب واقترب، والطلوع والمطلع وما شاكل هذا، فهو عنده من تصرف اللفظ ولا يعد تجنيساً.

ومن تصرف المعنى عنده قولك : عين الميزان وعين الإنسان وعين الماء ونحو ذلك.

ومن التصرف في اللفظ والمعنى جميعاً : قولك : الضرب والمضاربة والاستضراب وما أشبه ذلك.

كل هذه الأنواع عنده من باب التصرف.

ويقول ابن رشيق : — تعليقاً على ذلك — : وما أكثر ما يستعمل هذا النوع بعض شعراء وقتنا المذكورين ويظن أنه قد أتى بشيء من غرائب التجنيس [1].

وهو — أي الاشتقاق — عند السكاكي والخطيب ملحق بالجناس في التحسين فقط، وليس منه في الحقيقة لعدم الاختلاف في المعنى.

ويقول الحموي : والمشتق غلط فيه جماعة من المؤلفين وعدوه تجنيساً وليس الأمر كذلك فإن معنى المشتق يرجع إلى أصل واحد والمراد من الجناس اختلاف المعنى في ركنيه كقوله — تعالى — : « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم . . »

---

(١) العمده — ٢٢٨

وقيل : إن ما مصدرية : أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى .

فعلى كلٍّ تقدير الجميع راجع إلى العبادة ، والمعنى فى الاشتقاق راجع إلى أصل واحد (١) .

ويقول الصفدى : وقد غلط ووهم من مثل فى هذا النوع بقوله - تعالى - : « أزفت الآزفة » لأن هـذا من باب فعل فهو فاعل كضرب فهو ضارب ، وهذا لا يعد جناساً اللهم إلا أن يدَّعى : أن الآزفة قد صارت علماً على القيامة كالقارعة والواقعة فحينئذ يجوز التمثيل به ويدخل فيه (٢) .

ومما جاء منه فى القرآن الكريم : «يمحق الله الربا ويُربى الصدقات » .

«... تتقلب فيه القلوب والأبصار» .

« وجهت وجهىَ للذى فطر السموات والأرض » .

« فروح وريحان » .

ومن الحديث الشريف : «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً » .

« الظلم ظُـلمات يوم القيامة »

وقد أخذه أبو تمام فقال :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كوكب الحق آفله

ونظر إليه البوصيرى فى قوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم

ومن أقوال الصحابة قول على ـ كرم الله وجهه ـ : ياصفراء اصفرى ، ويابيضاء ابيضى ...

ومن أقوال البلغاء : مارواه عمرو بن سعد بن سلم (٣) ، قال : كانت نوبة أنوبها فى حرس المأمون ، فكنت فى نوبتى ليـلة نخرج متفقداً من حضر فعرفته ولم يعرفنى .

فقال من أنت ؟

(١) خزانة الأدب — ٣١ (٢) جنان الجناس — ٣٣ .

(٣) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٨ .

قلت : عمرو عمّرك الله ! ابن سعيد أسعدك الله ! ابن سلم سلمك الله !

فقال : تكلؤنا منذ الليلة !

فقلت : الله يكلؤك قبلي ، وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال المأمون :

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا صرف الزمان صدعك بدد شمل نفسه ليجمعك

وما رواه ثعلب صاحب كتاب الفصيح ؛ قال : دخلت على أحمد بن حنبل ومجلسه غاص بالناس فجلست إلى جانبه ، ثم أقبلت عليه وقلت : أخاف أن أكون قد ضيّقت عليك على أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ، ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين !

فقال له أحمد : الصديق لا يُحاسب والعدو لا يحتسب له .

وهذا كلام حسن من كلا الرجلين ، والتجنيس فى كلام أحمد — رحمه الله — فى قوله : يُحاسب ويُحتسب[1] .

وقول بعضهم : اللهم سلط عليهم الطعن والطاعون .

ومن الشعر قول اللعين المنقرى فى هجاء جرير والفرزدق :

سأقضى بين كلب بنى كليب وبين القين قين بنى عقال

فإن الكلب مطعمه خبيث وإن القين يعمل فى سفال

كلا العبدين قد علمت معد لئيم الأصل من عم وخال

فما بُقْيا علىّ تركتمانى ولكن خفتما صرد النبال[2]

يريد بكلب بنى كليب : جريراً وبالقين : الفرزدق .

ولما كان جرير من بنى كليب بن يربوع اشتق هجاءه من نسبه[3] .

فقال : كلب بنى كليب .

وقول أبى تمام :

عممت الخلق بالنعماء حتى غدا الثقلان منهما مثقلين —

(١) المثل السائر — ١٠٢

(٢) الصرد محركة : إصابة السهم .

(٣) الحيوان — ١ — ١٢٢ .

وقوله :

وأنجدتمو من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

وقول ابن وكيع :

لما اعتنقنا للوداع وأعربت عبراتُنا عنا بدمع ناطق

فرّقن بين معاجر ومحاجر وجمعن بين بنفسج وشقائق

وأنا الفداء لظبية أحداقنا موصولة من وجهها بحدائق

وقول أبى الفتح بن قادوس فى القاضى الرشيد :

يا شبيه لقمان بلا حكمة وخاسرا فى العلم لا راسخا

سلخت أشعار الورى كلها فصرت تُدعى الأسود السالخا[1]

وقول الرستمى فى مدح الصاحب :

من النفر العالين فى السلم والوغى وأهل المعالى والعوالى وآلها

إذا نزلوا اخضر الثرى من نزولهم وإن نازلوا احمرّ القنا من نزالها

وفيه يقول ابن خلكان : هذا والله الشعر الخالص الذى لا يشوبه شىء من الحشو .

وقد ألمّ به ابن حيوس فى قوله — يمدح أبا الفضائل سابق بن محمود — :

طالما قلت للمسائل عنكم واعتمادى هداية الضُّلال

إن تُرد علم حالهم عن يقين فالقهم فى مكارم أو نزال

تلق بيض الوجوه سودُ مثار والنقع خضر الأكناف حمر النصال

وما أحسن هذا التقسيم الذى اتفق له[2] .

وقول شيخ شيوخ حماة شرف الدين بن عبد العزيز الأنصارى :

تولى شبابى فولى الغرام ولازم شيبى لزوم الغريم

ولو لم يَصُدَّنى بازيُّه لما صارمتنى مَهاة الصريم[3]

---

(١) السالخ : الأسود من الحيات . (٢) وفيات الأعيان — ٢ — ١٤

(٣) الصريم : الرملة المنصرمة عن الرمال ذات الشجر .

وقول الصاحب بن عباد :

وقائلة لِمْ عرتك الهموم ... وأمرك ممتثل فى الأمم

فقلت ذرينى على غصتى ... فإن الهموم بقدر الهمم

وقول اليزيدى فى الأصمعى :

وما أنت هل أنت إلا امرؤ ... إذا صحّ أصلك من باهلهْ

وللباهلى على خبزه ... كتاب لآكله الآكله[1]



(١) الآكلة : داء يقع فى الرجل تأتـكل منه .

الفصل الحادي عشر

شبه جناس الاشتقاق

ويسمى أيضا جناس المغايرة .

وسماه السكاكى وغيره : المتشابه والمتقارب لشدة مشابهته وقربه من المشتق .

ويسمى كذلك تجانس الإطلاق، والجناس المطلق، وهو أشهر أوصافه[1] .

وحدّه : أن يتفق اللفظان فى جُلّ الحروف أو كلها على وجه يتبادر منه أنهما يرجعان إلى أصل واحد كما فى الاشتقاق وليسا فى الحقيقة كذلك .

كما فى قوله ـ تعالى ـ : « قال إنى لعملكم من القالين » .

فإنه يتبادر من كون الأول ـ وهو « قال » ـ فعلا ، ومن كون الثانى ـ وهو « القلى » ـ وصفا : أنهما من أصل واحد وليس كذلك ؛ لأن الأول مشتق من القول، والثانى من القلى وهو البغض والترك فبينهما شبه الاشتقاق .

وهو كالاشتقاق ملحق بالجناس ، والفرق بينه وبين المشتق دقيق وللعلماء فى ذلك معارك .

ويفرق بينهما : بأن معنى المشتق يرجع إلى أصل واحد كما مر ، أما هو فكل ركن منه يباين الآخر فى المعنى ، لذلك عده بعض العلماء فى الجناس لا فى الملحق به .

ومن ذلك ما كتب به بعض الناس إلى المأمون فى حق عامل له وهو : فلان ماترك فضة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا أذهبه ، ولا مالا إلا مال عليه ، ولا فرسا إلا افترسه ، ولا داراً إلا أدارها ملكا ، ولا غلة إلا غلّها ، ولا

(١) الوساطة — ٤٠

ضيعة إلا ضيّعها ، ولا عقارا إلا عقره ، ولا حالا إلا أحاله ، ولا جليلا إلا أجلاه ، ولا دقيقاً إلا دقه .

قال الحموى : فهذه الأركان شواهد على الجناس ، وليس فيها ركنان يرجعان إلى أصل واحد كالمشتق ، بل جميع ما ذكرناه أسماء أجناس وهى محمولة على عدم الاشتقاق[1] .

ويطلق ابن رشيق[2] على مايشمل الاشتقاق وشبهه اسم : المحقق .

يقول : والتجنيس المحقق : ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع نحو قول أحد بنى عبس :

وذلكم أن ذل الجار حالفكم   وأن أنفكم لايعرف الأنفـا

فاتفقت الأنف مع الأنف فى جميع حروفها دون البناء ورجعا إلى أصل واحد .

وقول خليفة بن خليفة الأقطع :

فإن يشغلونا عن أذان فإننـا   شغلنا وليداً عن غناء الولائد

يعنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

وقول ذى الرمة :

واسترجعت هامها الهيم الشغاميم[3] .

فالهام والهيم قريبان فى اللفظ بعيدان فى الاشتقاق ، وربما جعلهما بعض الناس من أصل واحد .

واقتصر الوطواط على ذكر الاشتقاق وحده وساق له أمثلة امتزج بها الاشتقاق بشبهه[4] .

ومن أمثلته فى القرآن الكريم : «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» .
وهو أعظم شواهد البديعيين على الجناس المطلق[5] .

---

(١) خزانة الأدب — ٣٢   (٢) العمدة — ١ — ٢٢٢ .
(٣) الهيم : العطاش ، والشغاميم : الغزيرة اللبن جمع شغموم بالضم .
(٤) حدائق السحر — ١٠٣ — ١٠٤   (٥) خزانة الأدب للحموى — ٣٢

ومن النثر فى غير القرآن : ماذكروا من أن أشعب كان يختلف إلى قينة بالمدينة يطارحها الغناء ، فلما أراد الخروج إلى مكة قال لها : ناوليني هذا الخاتم الذى فى أصبعك لأذكرك به !

فقالت : إنه ذهب وأخاف أن تذهب ، ولكن خذ هذا العود لعلك أن تعود[1] !

ومن أمثاله الشعرية الجيدة قول الفرزدق :

ألم يأته أنى تخلّل ناقتى ... بنعمان أطراف الأراك النواعم

وقول رؤبة :

أحضرت أهل حضرموت موتا

جانس فى موضعين فى بيت رجز .

وقول أبى تمام :

تطل الطلولُ الدمع فى كل موقف ... وتمثُل بالصبر الديار المواثل[2]

جانس فى المصراعين .

وقول البحترى :

صدق الغراب لقد رأيت حمولهم ... بالأمس تغرُب عن جوانب غُرّب

جانس بثلاثة ألفاظ .

وقوله يمدح الفضل بن إسماعيل الهاشمى :

لا تطلبن له الشبيه فإنه ... قمر التأمّل مزنة التأميل

وهو بيت معروف بفرط الحسن كما يصفه المرتضى[3] .

وقوله :

وإذا ما رياح جودك هبّت ... صار قول الوشاة فيها هباء

وقول المعرى :

أرى ابن أبى إسحاق أسحقه الردى ... وأدرك عمر الدهر نفس أبى عمرو

---

(١) العقد الفريد — ٤ — ٢٤١ (٢) تمثل بالضم : تنكل .

(٣) أمالى المرتضى — ٣ — ١٣٣

وقول البهاء زهير :

يا من لعبت به شمول ... ما ألطف هذه الشمائل

وقول الآخر :

بجانب الكرخ من بغداد عنّ لنا ... ظبي ينفرنا عن وصله نفر

ضفير تاه على قتلى تضافرتا ... يا من رأى شاعراً أودى به الشعر

وقول الشاب الظريف :

أراك فيمتلي قلبي سرورا ... وأخشى أن تشط بك الديار

فجر واهجر وصد ولا تصلني ... رضيت بأن تجور وأنت جار

وقول النوقاتي :

هنيئاً لسادتنا بالعراق ... لقاء الكرام وماء الكروم

ففي مقلتي منذ فارقتهم ... غمام يجود بماء الغموم

وقول آخر :

قلت له لما مضى وانقضى ... لاردك الرحمن من هالك

أما وقد فارقتنا فانتقل ... من ملك الموت إلى مالك

وقول المرغيناني :

إن تر الدنيا أغارت ... ونجوم السعد غارت

فصروف الدهر شتى ... كلما جارت أجارت

وقول ابن درّاج القسطلّي فى منذر بن يحي :

علا لحوى ميراث عاد وتبّع ... بهمته العليا ونسبته الدنيا

فأعرب عن أقوام يعرب واحتبي ... فلم ينس من هود سناء ولا هديا

ومن حمير رد القنا أحمر الذرا ... ومن سبأ قادت كتائبه بالسقيا

وما نام عنه عرق قحطان إذ فدى ... عروق الثرى من غلة القحط بالسقيا

وما أسكنت عنه السكون زيادة ... ولا رضيت طيّ لراحته طيا

ولا كندت أسيافه ملك كندة ... فتترك فى أركان عزته وهيا

ولا أقعدته عن إجابة صارخ | تُجيب ولو حبوا إلى الطعن أو مشيا
وكائن له فى الأوس من حق أسوة | بنصب الهدى جهرا وبذل الندى خفيا

وقول ابن حيون :

رب خود عرفت فى عرفات | سلبتنى بحسنها حسنــاتى
حرّمت حين أحرمت نوم عينى | واستباحت حماى باللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت | من جفونى سوابق العبرات
ولقد أضرمت على القلب جمرا | محرقاً إذ مشت على الجمرات
لم أنل من مِنًى مُنَى النفس حتى | خِفت بالخيف أن تكون وفاتى

وقال جِران العَوْد :

جرى يوم رحنا بالجمال نزفّها | عقاب وشحّاج من البين يبرح
فأما العقاب فهى منها عقوبة | وأما الغراب فالغريب المطوّح

فلم يجد فى العقاب إلا العقوبة ، وجعل الشحاج هو الغراب البارح وصاحب البين ، واشتق منه الغريب المطوح .

ورأى السهمى غراباً على بانة ينتف ريشه ، فلم يجد فى البان إلا البينونة ، ووجد فى الغراب جميع معانى المكروه فقال :

رأيت غراباً واقعاً فوق بانة | ينتّف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أنى أشاء زجرته | بنفسى َللهندى هل أنت زاجره
فقال غراب باغتراب من النوى | وبالبان بين من حبيب تحاذره

فذكر الغراب بأكثر مما ذكر غيره .

وقال آخر :

بدا إذ قصدنا عامدين لأرضها | سنيح فقال القوم مرّ سنيح
وهاب رجال أن يقولوا وأحجموا | فقلت لهم جار إلىّ ربيح
عُقاب بأعقاب من الدار بعدما | مضت نِيَّة لاتستطاع طَروح
وقالوا دم،دامت مواثيق عهدنا | وعادلنا غصن الشباب قريح
وقال صحابى هدهد فوق بانة | هدى وبيان فى الطريق يلوح

وقالوا حمامات فحم لقاؤها وطلح فزيرت والمطى طليح

فهو إذا شاء جعل الحمام من الحِمام والحميم والحمى ، وإن شاء قال :

وقالوا حمامات فحم لقاؤها . . .

وإن شاء اشتق البين من البان ، وإن شاء اشتق منه البيان .

وقال آخر :

وقالوا عُقاب قلت عقبى من الهوى دنت بعد هجر منهم ونزوح

وقالوا حمامات فحم لقاؤها وعاد لنا حلو الشباب ربيح

وقالوا تغنى هدهد فوق بانة فقلت هدى نغدو به ونروح

ويدل على أنهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون قول بشار بن المضرَّب :

تغنَّى الطائران ببين ليلى على غصنين من غرَب وبان[1]

فكان البان أن بانت سليمى وفى الغرَب اغتراب غير دان

فاشتق كما ترى الاغتراب من الغرب : والبينونة من البان[2] .

ويلاحظ أن معظم الاشتقاق فى هذه الأمثال جاء من الأسماء الجامدة ، ويظهر أن هذا هو المقصود من الاشتقاق ، وفى ذلك يقول ابن شهاب الدين الحضرمى : والمراد بالاشتقاق هنا : أن يشتق المتكلم من الاسم معنى فى غرض يقصد من مدح أو هجاء أو غيره ، ومشتق من الاسم بمعنى مأخوذ منه وليس المراد به اشتقاق المادة ، لأن ذلك يكون من المصادر لا من الأعلام كما هو ظاهر كقول صفى الدين الحلى فى على — كرم الله وجهه — :

لم يلق مرحبُ منه مرحبا ورأى ضد اسمه عند هذا الحصن والأطُم[3]

فإنه اشتق الترحاب من اسم مرحب .

ثم يقول : وقد مثل ابن حجة لذلك باشتقاق محمد وأحمد ومحمود باشتقاقها

---

(1) الغرب : شجر ضعيف . (2) الحيوان — ٢ — ١٣٦

(3) مرحب : كبير اليهود فى خيبر وقد قتله على ، والأطم : القصر والحصن المبنى بالحجارة والبيت المربع المسطح .

من الحمد مادتها الأصلية ، وكيف يكون هذا نوعا من البديع وكل ناطق بالضاد يعرفه مع أنه مطرد فى غالب الأعلام[1] .

ومعنى ذلك أن شبه جناس الاشتقاق المسمى بالمطلق هو الذى يجب أن يطلق عليه اسم الاشتقاق عند بعض العلماء ، أما الاشتقاق من المادة كمحمد ومحمود من الحمد مما اتحد فيه اللفظ والمعنى فليس مما نحن فيه .

ومن رديئه قول مسلم بن الوليد فى الخمر :

سُلّت فسلّت ثم سُلّ سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

والمعنى : أنها رقّقت بطول القِدم ، ثم رقق رقيقها فأتى رقيق رقيقها مرقّقا !

وقد ذكر المرزبانى : أن مسلما قال لأبى نواس — وقد اجتمعا فى مجلس فتلاحيا على نبيذ — : والله ما تحسن الأوصاف !

فقال : لا والله لا أحسن ! ما أحسن أن أقول وذكر البيت السابق .

ثم قال والله لو رميت الناس فى الطرق لكان أحسن من هذا[2] !

ويقول فيه الخفاجى : إنه لاغاية وراءه فى القبح ، ولولا أنه مروى لمسلم وموجود فى ديوانه لكنت أقطع أن قائله أبعد الناس ذهنا وأقلهم فهما وممن لايعدّ فى عقلاء العامة فضلا عن عقلاء الخاصة .

لكننى إخال خطرة من الوسواس أو شعبة من البرسام[3] عرضت له وقت نظم هذا البيت ، فليته لما عاد إلى صحة مزاجه وسلامة طبعه جحده فلم يعترف به ونفاه فلم ينسبه إليه ، وما أضيف هذا وأمثاله إلا إلى عوز الكمال فى الخلقة وعموم النقص لهذه الفطرة[4] .

ونحن نقول مع الخفاجى : ليت صريع الغوانى أسقط هذا البيت من شعره حتى يخلو من الرذل والسفساف ، كما تمنينا أن يسقط المتنبى خمس شعره الذى وصفه ابن الأثير : بأنه فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير

---

(١) إقامة الحجة على التقى بن حجة — ٥٢ (٢) الموشح — ٢٨٩

(٣) البرسام بالكسر : علة يهذى فيها . (٤) سر الفصاحة — ٩٦ — ٩٧

من وجودها، ولو لم يقلها لوقاه الله شرها، فإنما هى التى ألبسته لباس الملام، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوال[1].

ولكن يجب ألا ننسى أن أبيات الشاعر أفلاذ أكباده وثمرات فؤاده، فيشق عليه أن يئد بعضها كما يشق عليه أن يئد بعض أولاده!

ومن هذا قيل: الشعر مزلة العقول؛ وذلك أن أحدا ما صنعه قط فكتمه ولو كان رديئاً، وإنما ذلك لسروره به وإكباره إياه.

وهذه زيادة فى فضل الشعر وتنبيه على قدره وحسن موقعه من كل نفس[2].

ويقول على بن الجهم قلت لخالد الكاتب: هب لى بيتك وهو:

ليت ما أصبح من رقة م خـــديك بقلبك

فقال لى: أرأيت أحدا يهب ولده[3].

ويقول مثقال الشاعر: دخلت على أبى تمام الطائى، وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرها.

فقلت: لو أسقطت هذا البيت!

فضحك وقال لى: أتراك أعلم بهذا منى!

إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب وجميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتهى أن يموت!

وفى رواية أنه قال له: تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردىء!

فقال أبو تمام: مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت!

قال المرزبانى: وهذه حجة ضعيفة جدا[4].

والحق أنها ليست ضعيفة ويكفى فى قوتها أن الشاعر يمسك عليه بيته الضعيف مع علمه بضعفه غير عابىء بما يجلبه عليه من اللوم، فكأن ذلك

---

(1) المثل السائر — ٣١٤
(2) العمدة — ١ — ٧٥
(3) مصارع العشاق — ٢٧٥
(4) الموشح — ٣٢١

من الأمور الطبيعية التى لا يستطيع الإنسان منها فكاكا ، ولكن المرزبانى لم يكن شاعرا حتى يتذوق محبة الشاعر لأولاده العاطفيين فيؤمن أنهم يعدلون أولاده الصلبيين !

وقول المتنبى :

وقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيش كلهن قلاقل
غثاثة عيشى أن تغث كرامتى ... وليس بغث أن تغث المآكل

قلقل الشيء : حركه ، وقلاقل العيس : أى الإبل الخفاف .

وقلاقل الثانية : يجوز أن تكون بمعنى الأولى : أى إبلا خفافاً كلهن خفاف ، أو تكون جمع قلقلة وهى الحركة .

فالبيت كله قلاقل كما يقول بعض النقاد .

فقد اتفق له أن كرر فى البيت الأول لفظة مكررة الحروف فجمع القبح بأسره فى صيغة اللفظة نفسها ثم فى إعادتها وتكرارها .

وأتبع ذلك بغثاثة فى البيت الثانى بتكرار «تغث» فاست تجد على هذين البيتين مزيداً فى القبح[1] .

ويلاحظ أن بعض هذه الأمثال المتقدمة مما اختلط فيه الاشتقاق بشبه الاشتقاق .

وإذا كان اللفظان متفقين فى الحروف الأصلية واجتمع فى أحدهما حروف زائدة ، عد من المطابق الذى نحن فيه لا من الناقص كقول الشاعر :

خالفت بالأفق الغربى لى سكنا ... قد كان عيشى به حلوا بحلوان

---

(١) سر الفصاحة — ٩٦

الفصل الثانى عشر

الجناس المضارع

ويسمى أيضا : المطرف[1] والمطمع[2] .

وهو أن يجمع بين كلمتين متجانستين لاتفاوت بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتحدة فى المخرج أو المتقاربة فيه من غير زيادة فى العدد ، والإمكان من الجناس الناقص كما تقدم .

ويشترط فيه ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف واحد ، فإن وقع باثنين أو أكثر مثل نصر ونكل ، وضرب وفرق ، وغضب وسلب ، لم يكن من التجنيس فى شيء لبعد مابينهما من التشابه الجناسى .

وهذا الشرط لابد منه إذ لولاه لم تخل غالب الألفاظ من الجناس ، ولأصبح فى متناول كل واحد ، كما أن عدم تحقق هذا الشرط لاتتوافر معه الموسيقية المقصودة من الجناس .

ولم يتقيد السكاكى بهذا الشرط ، فأجاز الاختلاف بحرفين مع تقارب المخرج كقولهم . ماخصصتنى لكن خسستنى[3] .

ولعل السكاكى رأى أن تقارب الحروف فى المخارج لاتضر معه الزيادة بأكثر من حرف ، لأن تناغم الحروف لايزال موجوداً فى هذه الحال ، فتحققت الغاية من المجانسة على كل حال .

وسبب تسميته بالمطمع واضحة ، لأنه يجاء فيه بكلمة ويبدأ بأختها على مثال أكثر حروفها فيحدث الطمع فى أنها مثلها ، ثم تأتى مخالفة لها بحرف .

---

(١) نهاية الإيجاز — ٢٩ — المفتاح — ٢٢٧

(٢) حسن التوسل — ٤٥ (٣) المفتاح — ٢٢٧

ومعنى المضارع : المشابه ؛ سمى بذلك لمضارعة المخالف من الحرفين لصاحبه فى المخرج .

والمضارعة فى الأصل : أن تتقارب مخارج الحروف ، وفى كلام العرب كثير منه والمحدثون إنما تكلفوه .

وهذه التسمية من وضع قدامة ، وقد مثّل لذلك بقول نوفل بن مُساحق للوليد — وقد اعتدّ عليه بالإذن له على نفسه وهو يلعب بالحمام — : خصصتك بهذه المنزلة !

فقال نوفل : ما خصصتني ولكن خسستني ، لأنك كشفت لى عورة من عوراتك[1] !

وقد تقدم : أن السكاكى مثل به .

والرّمانى يسمى هذا النوع : المشاكلة .

وهى عنده ضروب : أحدها هذا النوع ، وهو المشاكلة فى اللفظ خاصة [2] .

مثال ذلك قول بعضهم : البرايا أهداف البلايا .

وقول الشريف الرضى :

لايُذكر الرمل إلا حنّ مغترب له لدى الرمل أوطان وأوطار

فالراء واللام والنون فى البرايا والبلايا وأوطار وأوطان من مخرج واحد عند قُطرب والجرمى وابن دريد والفراء .

وقول بعض أهل الأدب : راش سهامه بالعقوق ، ولوى ماله عن الحقوق فالعين والحاء من مخرج واحد .

وقول ابن نباتة :

رق النسيم لرقتى من بعدكم فكأننى فى حبكم أتغاير
ووعدت بالسلوان من قد عابكم فكأننا فى كِذْبنا نتخابر

(١) سر الفصاحة — ١٨٧ (٢) العمدة — ١ — ٢٢٤

فالغين والخاء من مخرج واحد .

والحرفان اللذان يقع بهما الاختلاف إما أن يكونا أول الكلمة كقول قس ساعدة : من مات ، فات .

وقول الحريرى : بيني وبين كِنّى[1] ليل دامس ، وطريق طامس .

فالدال والطاء من الحروف الشديدة ، وهما متحدان فى المخرج لأنهما من اللسان مع أصل الأسنان .

وإما أن يكونا فى الوسط كقوله — تعالى — : « وهم ينهَوْن عنه وينأوْن عنه » .

فالهاء والهمزة متحدان فى المخرج لأنهما حلقيان .

وإما أن يكونا فى الآخر كالحديث الشريف : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

فاللام والراء من حروف الذلاقة[2] ومخرجها من الحنك واللسان .

ومن لطيف أمثاله : ما ذكره ابن دريد فى ملاحنه ، وهو أن أعرابيا شتم رجلا فقال : لمج أمه !

فقدم إلى السلطان فقال : إنما قلت : ملج أمه !

قال ابن دريد : لمجها : أتاها ، وملجها : رضعها .

وقول بعض العلماء : ربما أسفر السفر عن الظفر ، وتعذر فى الوطن قضاء الوطر .

ومن الشعر قول الحطيئة :

مطاعين فى الهيجا مطاعيم فى الدجى   بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

وقول ابن هرمة :

وأطعن للقرن يوم الوغى   وأطعم فى الزمن الماحل

---

(١) الكن بالكسر : المنزل .

(٢) حروف الذلاقة : حروف طرف اللسان والشفة ، وهى اللام والراء والنون والباء والفاء والميم .

وقول أبي تمام :

رب خفض تحت الثرى وغناء ... من عناء ونضرة من شحوب

وقول البحترى :

ظللت أرجّم فيك الظنون ... أحاجبه أنت أم حاجبه

وقوله :

ما بعينيْ هذا الغزال الغرير ... من فتون مستجلب من فتور

وقول قابوس بن وشمكير :

إن المكارم فى المكا ... ره والغنائم فى المغارم

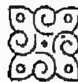
وقول ابن جابر الأندلسى :

سلب القلبَ غزال قدُّه ... قد حكى البان لنا والعلما

نون صدغيه إذا أبصره ... كاتب ألقى إليه القلما

وقول الشريف قتادة — وقد عدوه من الرقائق — :

وما أنا إلا المسك فى غير أرضكم ... أضوع وأما عندكم فأضيع



الفصل الثالث عشر

الجناس اللاحق

وهو : ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه .

أى يكون الحرفان اللذان وقع بينهما الاختلاف متباينين فى المخرج .

سمى بذلك ؛ لأن أحد اللفظين ملحق بالآخر فى الجناس باعتبار جل الحروف .

مثال قول بعضهم فى جواب رسالة : وصل كتابك فتناولته باليمين ، ووضعته مكان العقد الثمين .

ومن نكت البسطامى : إذا ذل عالم زل عالم (1) .

فالياء والثاء والذال والزاى متباعدة المخرج .

والحرفان الواقع بهما الاختلاف إما أن يكونا أولا كقوله — تعالى — : « ويل لكل همزة لمزة » .

فالهاء واللام متباعدان فى المخرج ، لأن الهاء من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان .

وإما أن يكونا وسطا كقوله — تعالى — : « وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد » .

فالهاء والدال متباعدان ؛ إذا الأول من الحلق والثانى من اللسان مع أصول الأسنان .

وإما أن يكونا آخرا كقول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف   أم لشاك من الصبابة شاف

---

(1) مناهج التوسل — ١٤١

فالقاف والفاء متباعدان ؛ لأن مخرج القاف من أقصى اللسان ، ومخرج الفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا .

ومما لا خلاف فيه أن الفرق بين المضارع واللاحق دقيق جدا فيلطف على كثير من الأفهام ولا يلحظ إلا بالتأمل وإعمال الروية ، حتى لقد التبس الأمر فيه على أساطين البلغاء !

فالخطيب عدّ من أمثلته قوله — تعالى — : « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض وبما كنتم تمرحون[1] » .

مع أن هذا المثال من المضارع لتقارب الفاء والميم ؛ لأن مخرجهما من الشفة .

وعدّ منه الخطيب والرازى والحلبى قوله — تعالى — : « وإذا جاءهم أمر من الأمن والخوف أذاعوا به » .

وهو من المضارع أيضا ؛ لأن الراء والنون من حروف الذلاقة ومخرجهما من طرف اللسان[2] .

ومن البلغاء من يطلق على المضارع واللاحق معا « جناس التصريف[3] » .

وقد عدهما السكاكى قسما واحدا[4] .

وبعضهم أطلق عليهما : اسم المطمع .

وقد ذكرنا سبب هذه التسمية فى المضارع .

وقد اعترض المرشدى على التسمية بالمطمع ؛ لأن ذلك يتم فى بعض الأنواع ، وهو : ما وقع الاختلاف فيه بالحرف الأخير دون النوعين الأخيرين .

يعنى ما وقع فيه الحرف فى الأول أو الوسط .

---

(١) التلخيص — ٣٩٠

(٢) المصدر السابق والرقم — نهاية الإيجاز — ٢٩ — حسن التوسل — ٤٥

(٣) خزانة الأدب للحموى — ٢٧ — حسن التوسل — ٤٦

(٤) الفوائد الغيائية — ٢٧٩

ثم يقول : ولو سمى بالمذيل لكان أقرب ؛ لأنه هو الذى يطمع فى ذلك إلى أن تستقر الكلمة على آخرها [١] .

ويقول الصفدى فى ذلك : إن المخالفة بحرف فى الآخر من أحد الركنين مثل « تلاق وتلاف » هو : المطمع .

وإذا سومح بالمخالفة فى وسط أحدهما مثل « شهيد » و « شديد » دخل فى هذه التسمية بتكلف .

وأما المخالفة بحرف فى أول أحدهما كما مثلوا له بقول الحريرى : ولا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى ، ولا أغرس الأيادى فى أرض الأعادى ، فلا دخول له فى هذه التسمية « المطمع » بوجه من الوجوه ؛ إذ الطمع لايكون ولا يحصل إلا بعد مقدمات يغتر بها ومخايل تلوح ؛ كمن أتى إنساناً يسأله شيئاً فاستقبله بالبشر والترحيب ، فكان ذلك مما يطمعه فى سؤاله ويبشره بنجح آماله ، حتى إذا طال الأمر وامتحنه ظهر الأمر بخلاف ما توهمه كما قال الشاعر :

هذى مخايل برق خلفه مطر ... جَوْدٌ ووَرْى زناد خلفه لهب [٢]

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه ... وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وهكذا الجناس إذا كان أحد ركنيه مبدوءاً بحرف يخالف الآخر ، فقدمات الطمع فيه وحصل اليأس منه ، خصوصا إذا كانت المخالفة فى الأول بحركة وحرف كبُرد وقِرد وعَرد ، أو تباعد مخرج الحرفين [٣] .

ومن الجناس اللاحق فى القرآن الكريم قوله — تعالى — : « وقيل يا أرضُ ابلعى ماءَكِ ويا سماء اقلعى » .

لاجتماع القاف والباء — وهما غير متقاربين — لأن مخرج الباء من بين الشفتين ، ومخرج القاف من أقصى اللسان .

ومن كلام البلغاء قول على — كرم الله وجهه — : الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر .

---

(١) المرشدى على العقود — ٢ — ١٤٤

(٢) الجود بفتح وسكون : الغزير (٣) جنان الجناس — ٢٩ — ٣٠

ومن الشعر المطبوع قول البحترى :

عجب الناس لاعتزالى وفى الأطراف م تُلفى منـــازل الأشراف
وقعودى عن التقلب والأر ضُ لمثلى رحيبة الأكناف
لست من ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفانى كفاف

والشاهد فى البيت الأخير .

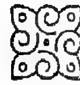
وفيه يقول الحموى : وكفانى وكفافى هو اللاحق الذى لايلحق .

ثم ساق نكتة لطيفة تؤيد قول البحترى فى بيته الأول ، وهى : أنه قيل لبعضهم : فى أى موضع من القرآن : الأطراف منازل الأشراف .

فأجاب فى قوله — تعالى — : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياقوم اتّبعوا المرسلين » .

فهذا أشرفهم .

وقد كان الرسول — صلوات الله عليه — يسكن بأقصى المدينة[1] .



(١) خزانة الأدب — ٣٦

الفصل الرابع عشر

جناس التصحيف

وهو ما تماثل ركناه خطا واختلفا في النطق .

سمي بذلك لأن من لا يفهم المعنى فإنه يصحف أحدهما إلى الآخر ؛ لأجل تشابههما في الخط .

ويقال له أيضاً : جناس الخط[1] والمرسوم[2] والمضارعة والمشاكلة[3] .

والمؤدّى واحد في هذه المسميات .

مثال ذلك قوله — تعالى — : « والذى هو يطعمنى ويَسقين وإذا مرضت فهو يَشفين » .

وقول الرسول[4] — صلوات الله عليه — لعلى كرم الله وجهه — : « قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى[5] » .

وقوله : « عليكم بالأبكار فإنهن أشد حباً وأقل خِباً[6] » .

وقوله : « إياكم والمشارّة فإنها تميت الغُرّة وتحيي العُرّة[7] » .

وقوله : « عليك باليأس ، من الناس » .

قول عمر — ض — : لو كنت تاجرا ما اخترت غير العطر ؛ إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه .

وقول علي — ض — في الجراد : كلُّه كله .

---

(١) حسن التوسل — ٤٥ (٢) الطراز — ٢ — ٣٦٦

(٣) حدائق السحر — ١٠٢ (٤) في بعض الروايات أنها من كلام الإمام علي

(٥) في بعض الروايات : أبقى واتقى وأنقى ، وفي بعضها : أنقى وأتقى وأبقى .

(٦) الخب بالكسر : الخداع ، وبالكسر والفتح : المخادع .

(٧) المشارة : مفاعلة من الشر ، والعرة : العار .

وقول الميرغيناني : المجالس أخلاها أحلاها .

وقولهم : خُلف الوعد ، خلق الوغد .

وقولهم : كل ملهوف إليه فراره ، ولديه قراره .

وقولهم : الخمر مصباح السرور ، ولكنها مفتاح الشرور .

وأصفى أهل الدين رسالة من هذا النمط نثرا وشعرا تبلغ نحو أربعمائة كلمة .

ومن الشعر قول البحتري :

ولم يكن المغترُّ بالله إذ سرى ليُعجِز والمعتزُّ بالله طالبه

وقوله :

وكأن السليل والنثرة الحصداء م منه على سليل غريف[1]

وقول أبي فراس :

من بحر جودك أغترف وبفضل علمك أعترف

وقول نصر بن الحسن :

يا حسن دار تعفّت وطيب تلك المغاني

كأنما هن لفظ وما له من معاني

وقول مهذب الدين الرومي :

خليلي لا والله ما جنّ غاسق وأظلم إلا حنّ أو جُنّ عاشق

وقول الوطواط :

به عاد أعلام العلوم عواليا وأصبح أثمان الثناء غواليا

ومن رقائق البهاء زهير :

وليس مشيبا ما ترون بعارضي فلا تمنعوني أن أهيم وأطربا

فما هو إلا نور ثغر لثمته تعلق في أطراف شعري فألهبا

وأعجبني التجنيس بيني وبينه فلما تبدى أشنبا رحت أشيبا

---

(١) السليل الأول : السيف ، والنثر الحصداء : الدرع الواسعة الضيقة الحلق المحكمة ، والسليل الثاني : الأسد ، والغريف : الأجمة .

ومن قول أبي نواس :

صحّفتْ أمك إذ سمّتك م في المهـــــد أبانا
قد علمنا ما أرادت لم تــــــرد إلا أتانا

وقول المتنبي :

جرى الخلف إلا فيك أنك واحد وأنك ليث والملوك ذئاب
وأنك لو قويست صحّف قارئ ذئابا ولم يخطئ فقال ذباب

وقول آخر :

رأى الضيق مكتوبا فظن بأنه لتصحيفه ضيفا فقــام يواثبه

وقد يجتمع التصحيف والتحريف معا كما في قوله — تعالى — : « وهم يحسَبون أنهم يحسنون صُنعا » .

ففيه جناس تصحيف من حيث الاختلاف بالباء والنون .

وجناس تحريف من حيث الاختلاف بفتح حرف المضارعة من الأول وضمه من الثاني منهما .

ومن ذلك ما نسب إلى عليّ أنه كتب به إلى معاوية : غرّك عِزّك ، فَصار ذلك ذُلّك ، فاخش فاحش فِعلك ، فعلّك بهذا تُهدى والسلام !

فكتب إليه معاوية : غَلى قِدرى على قَدرى !

فبين كل كلمتين من كلمات القطعة الأولى جناس التصحيف والتحريف ، ماعدا قوله : « ذلك » ذلك ، و « فعلك فعلّك » فإنهما محرفان فقط .

والقطعة الثانية فيها التصحيف بين « غلى » و « على » .

والتحريف بين « قدرى » و « قدرى » .

ومن حقنا أن نتشكك على الأقل في صحة نسبة القطعة الأولى إلا على ؛ لكثرة ما جاء فيها من التصنيع البالغ الحد المختلف اللون ، وهو مايخالف أنماط الكلام في هذا العصر .

---

(١) المرشدي — ٢ — ١٤١

والأمر بين علي ومعاوية أجلّ من أن يخاطب فيه بمثل هذا الكلام السفساف .

ومنه قول الوطواط : رَبْ ، رُبَّ غنيّ غبيّ سرّته شِرّته ، فجاءه فُجاءة بَعد بُعد عِشرته عُسرته[1] .

رب : منادى ، ورب : حرف من حروف الجر ، والشرة : مصدر الشر ، وبعد بالفتح : ظرف ضد قبل ، وبعد بالضم : نقيض القرب ، والعشرة : المعاشرة ، والعسرة : ضد الميسرة .

والمعنى : يا رب كم غنى متصف بالغباوة فرح بالشر ، حتى جاءه العسر بغتة بعد طول المعاشرة !

ولا يخفى ما فى هذا الكلام من التعسف والتعقيد وسوء التصنيع وفساد النسج فضلا عن تفاهة المعنى .

ومنه قول الحريرى : زينب زينت بقَدّ يَقُد .

ومن مطبوع التصحيف قول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وقول آخر :

لقطب الملوك تذل الرقاب ... ونحو هواه تميل النفوس
عواطفه سابغات الظلال ... وأنعمه سائغات الكئوس

وقد يأتى التصحيف من غير قصد فيكون بعض أنواعه أحسن من الأصل .

فمن ذلك أن الأصمعى قرأ على عمرو بن العلاء بيت الحطيئة :

وغررتنى وزعمت أنك م لابن بالضيف تامر

والأصل : بالصيف .

فقال له ابن العلاء : أنت فى تصحيفك أشعر من الحطيئة[2] .

---

(١) حدائق السحر — ١٠٢ (٢) نفح الطيب — ٢ — ١١٨

وقرأ القاضي جابر بن هبة الله مقامات الحريري عليه سنة أربع عشرة وخمسمائة ، فلما وصل إلى قوله :

يأهل ذا المغنى وُقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا

قد دفع الليل الذي اكفهرا إلى ذَراكم شعثا مغبرا

صحف : سغبا مغبرا ، فقال : سغبا معترا — وكان يظنهما كذلك .

ففكر الحريري ثم قال : لقد أجدت في التصحيف ، وإن قولك لأجود ؛ فرب شعث مغبر غير محتاج والسغب المعتر موضع الحاجة ، ولولا أني قد كتبت بخطي إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت عليَّ ، لغيرته كما قلت .

ومن أغرب أنواع التصحيف : أن رجلا صلى بالخليفة في رمضان ولم يكن يحفظ القرآن ، فكان ينظر في المصحف ويقرأ ، فصحف الآيات الآتية :

« صبغة الله » : صنعة الله .

« أصيب بها من أشاء » : أصيب بها من أساء .

« إنما المشركون نَجس » : إنما المشركون نحس .

« إلا عن مَوْعِدة وعدها إياه » : إلا عن موعدة وعدها أباه .

« بقية الله خير لكم » : تقية الله خير لكم .

« . . . وتخر الجبال هَدًّا أن دعوا للرحمن ولدا » : وتخر الجبال هذا أن دعوا . . .

« لكل امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه » : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يعنيه[2] .

وقد صحف ابن زيدون في رسالته الجدية قول امرىء القيس :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلَّب

فجعلها : كعاجز .

وقد لحظ الشيخ حمزة فتح الله : أنها وردت في الأساس كما قال ابن زيدون[3] .

---

(١) معاهد التنصيص — ٢٠ — ٩٤

(٢) نفح الطيب — ٣ — ١١٩ (٣) المواهب الفتحية — ٢ — ١٩٥

ومعنى ذلك أنها لم تصحف .

واجتمع الصوفية على علوية الشاعر وقالوا له : أنت أنشدت :

طاب لنا الرفض بعد حشمه

فقال : إنما قلت : طاب لنا الرقص . . .

فرضوا عنه .

وأحضر جعفر بن سليمان الهاشمي خط أبي المقدم الهذيلي وفيه :

يابن الزوانى من بنى معاويه ... أنت لعمرى منهم ابن الزانيه

فقال : إنما قلت : يابن الروائى ، وأنت ابن الراثية : أى اللواتى ينحن على موتاهم[1] .

هذا ، وجناس التصحيف أقل طبقات المجانس عند ابن سنان الخفاجي ؛ لأنه مبنى على تجانس أشكال الحروف فى الخط .

وحسن الكلام وقبحه لايستفاد من أشكال حروفه فى الكتابة ، إذ لاعلقة بين صيغة اللفظ فى الحروف وشكله فى الخط[2] .

ويلحق بجناس الخط المتقدم : الجناس اللفظى .

وهو أن يتجانس الركنان فى اللفظ ، وصورة الخط تخالفه مثل فاض وفاظ .

فالأول من الفيض ، والثانى من التلف .

وقول أبي فراس :

ماكنت تصبر فى القديم ... فلم صبرت الآن عنا

ولقد ظننت بك الظنون ... لأنه من ظن ضنا

ويتصل به ما يكتب بالتاء والهاء كالقول المأثور : جبلت القلوب على معاداة العادات .

وقول الشاعر :

إذا جلست إلى قوم لتؤنسهم ... بما تحدث من ماض ومن آت

(١) محاضرات الراغب — ١ — ٦٥ (٢) سر الفصاحة — ١٨٨

فلا تعيدنْ حديثا إنّ طبعهم   موكل بمعـــاداة المعادات

أو بالنون والتنوين كقول الأرجانى :

وبيض الهند من وجدى هواز   بإحدى البيض من عُليا هوازن

أو بالألف والنون كقول الشاب الظريف :

أحسن خلق الله وجها وفما   إن لم يكن أحق بالحسن فمن

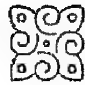
ولم ينظر هذا النوع من أصحاب البديعيات غير الصفىّ الحلىّ .

وهو نادر جدا وأصعب مسالكه تركيبه بالضاد والظاء .

ويرى الصفدى أنه لايكون إلا فى الضاد والظاء كقوله — تعالى — : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .

فالأول من النضارة ، والثانى من النظر .

ولا يرجع فى هذا إلى قولهم : إن النطق بالضاد غير النطق بالظاء ناعرف ذلك[1] .



(١) جنان الجناس — ٣١

الفصل الخامس عشر

الجناس المعنوى

ويسمى أيضا: تجنيس المعنى.

وهو قسيم اللفظى، وأكثر البديعيين قد أغفلوه فلم يذكره الخطيب فى تلخيصه وإيضاحه، ولا ابن أبى الإصبع فى التحرير، ولا ابن منقذ فى كتابه، وذكره العميان فى بديعيتهم ولكن لم يتيسر لهم نظمه.

واقتصر الصفدى فى كتابه جنان الجناس على أحد نوعيه وهو جناس الإشارة.

واقتصر الصفى الحلى فى بديعيته على ذكر نوعه الآخر وهو جناس الإضمار.

وأورد الحموى[1]: أن ابن رشيق لم يذكره فى كتابه العمدة، وأن الحلبى لم يذكر غير جناس الإشارة فى كتابه حسن التوسل.

والحق أنهم ذكراه كما سيجىء فى الأمثلة[2].

وقد كان مستنكرا عند بعض البديعيين بادىء ذى بدء أن يعد هذا النوع من الجناس، ولكن المتأخرون استدركوه واستخرجوه وبالغوا فى وصفه بالظرف، وعدوه طرفة من طرف الآداب، لتوعر مسلكه وندرة وجوده.

وحد الجناس المعنوى: أن تكون إحدى الكلمتين دالة على الجناس بمعناها دون لفظها.

وهو قسمان: جناس إضمار وجناس إشارة، وكل منهما يطابق مسماه.

---

(١) خزانة الأدب — ٥١

(٢) العمدة — ١ — ٢٣٨ — حسن التوسل — ٤٧ — ٩٣

وأولها أصعب مسلكا وأعز مجيئا ، لذلك تحاماه فحول البديعيين وتعلقوا بأذيال الضرب الثانى لسهولته .

وجناس الإضمار : أن تذكر لفظا يحضر فى ذهنك لفظا آخر مضمرا مرادا به غير معناه بدلالة القرائن .

أو بتعبير آخر : أن تضمر ركنى الجناس وتأتى فى الظاهر بما يدل عليهما من مرادف لها أو كناية عنهما كقول ابن طباطبا العلوى :

منعم الجسم تحكى الماء رقته وقلبه قسوة يحكى أبا أوس

فأوس : الشاعر الجاهلى المعروف ، وأبوه : حجر .

فلفظ أبى أوس أحضر فى الذهن هذا الاسم «حجر» وهو ليس بمقصود ولكن المقصود الحجر الحقيقى الذى شبه به قلب المحبوب فى القسوة ، وهو ما يعينه سياق الكلام .

ففى لفظ أبى أوس الظاهر ، ركنا جناس مضمران بين حجر : اسم أبى الشاعر ، وحجر : الذى هو المادة الصخرية .

وقول آخر :

جمع الصفات الصالحات مليكنا فغدا بنصر الحق منه مؤيدا

كأبى الأمين برأيه ، وكجده أنى توجه ، وابن يحى فى الندى

فأبو الأمين : الرشيد ، وجده : المنصور ، وابن يحى : الفضل بن يحى البرمكى .

وقصد الشاعر : أنه رشيد فى رأيه ، منصور أنى توجه ، وهو الفضل فى الندى[1] .

ومن أمثلته المشهورة قول أبى بكر بن عبدون — وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فاستحالت خلا — :

ألا فى سبيل اللهو كأس مدامة أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

(١) كليات أبى البقاء — ١١٣

بسطام بن قيس من سادات بكر بن وائل ، وكانت له بنت تسمى : الصهباء ، وهى التى أرادها الشاعر بقوله : بنت بسطام .

والشنفرى : شاعر أزدى جاهلى يضرب به المثل فى الحذق والدهاء .

وثابت : خاله ، وهو ثابت بن جابر بن سفيان المعروف بتأبط شرا ، وقد رثاه الشنفرى بقصيدة منها :

حلّت الخمر وكانت حراما   وبلأى ما ألمت تحل (١)

فاسقنيها يا سواد بن عمرو   إن جسمى بعد خالى لخل (٢)

الخل : الرقيق المهزول ، وهو مراد الشنفرى .

والخل : أيضا : السائل المعروف ، وهو مراد ابن عبدون من قوله : كجسم الشنفرى .

ومعنى البيت : أن هذه المدامة حكت فى الصباح بنت بسطام المسماة الصهباء : أى كانت صهباء .

وصارت فى المساء كجسم الشنفرى بعد موت خاله : أى خلا .

ففى اللفظ الظاهر من بنت بسطام وجسم الشنفرى بعد ثابت : جناسان مضمران فى صدر البيت وعجزه بين صهباء : اسم بنت بسطام ، وصهباء : اسم الخمر .

وكذلك جناسان مضمران بين خل الرقيق المهزول ، وخل المادة المعروفة .

ومن بيت ابن عبدون أخذ صفى الدين بيته فى بديعيته :

وكل لحظ أتى باسم ابن ذى يزن   فى فتكه بالمعنّى أو أبى هـــرم

واسم ابن ذى يزن : سيف .

وهو : سيف بن ذى يزن من أقيال اليمن .

---

(١) نسب الشعر الى الشنفرى يرثى به خاله تأبط شرا ، ونسب الى تأبط شرا يرثى به نفسه ، والصحيح : أنه مولد قاله خلف الأحمر ، انظر ديوان الحماسة — ا — ٣٤١

(٢) سواد : مرخم سوادة ، يطلب أن يسقيه الخمر ، لأنها حلت له بعد الأخذ بثأره ، ولأنه صار مهزولا بعد موت خاله .

وأبو هرم : سنان .

وهرم : المراد به الأريحي المعروف صاحب زهير بن أبي سلمى المزني .

في اللفظين الظاهرين — اسم ابن ذي يزن ، واسم أبي هرم — : ركنا جناس مضمران بين سيف : اسم القيل اليمني ، وسيف : الأداة المعروفة .

وكذلك بين سنان : اسم أبي الجواد الكريم ، وسنان : طرف الرمح .

وكان قاضي القضاة علاء الدين بن القصاعي — وهو إمام هذا العلم — يقول : ما أعلم لبيت أبي بكر بن عبدون في إضمار الركنين ثانياً غير بيت صفي الدين الحلي .

ولو لم يفتح ابن عبدون هذا الباب ببيته ما حصل للشيخ صفي الدين دخول إلى نظم هذا النوع .

وقد علّق على ذلك ابن حجة الحموي بقوله : وكنت أود أن يكون شيخنا — رحمه الله — حيا ويراني قد عززتهما بثالث وهو :

أبا مُعاذ أخا الخنساء كنت لهم   يا معنويّ فهدّوني بجورهم

أبو معاذ : اسمه : جبل .

يعني : معاذ بن جبل الصحابي .

وأخو الخنساء : اسمه : صخر ، وهو الذي رثته بأحر المراثي .

ففيه من كنايات الألفاظ الظاهرة أيضا جناسان مضمران في صدر البيت ، وهما جبل وجبل ، وصخر وصخر .

ويقول ابن حجة : وحسّن قولي : « فهدّوني بجورهم » بالنسبة إلى الجبل في الركن الواحد[1] .

وأصرح : بأن شيخ ابن حجة لو كان حيا وسمع بيته هذا لقال له :

لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

ويكفي أن تبرز الجناس المضمر في بيت ابن عبدون والصفي الحلي ، لتعرف كيف قصّر ابن حجة عن سابقيه .

(١) خزانة الأدب — ٥٢

فابن عبدون يقول : كانت كأس المدامة صهباء فى الصباح ، ثم استحالت خلا فى المساء .

والحلى يقول : إن لحظ المعشوق فى فتكه بالعاشق كالسيف أو كالسنان .

ويقول ابن حجة : كنت لهم جبلا صخرا يامعنوى فجاروا على فهدّونى .

فصخر هنا حشو إذ لا فائدة فى وصف الجبل بأنه صخر ؛ لأنه لا يكون غير ذلك ، ولا يزيده هذا الوصف قوة ، فالتركيب ثقيل لجمعه بين ثقيلين : الجبل والصخر .

ومعنوى : فضلة موغلة فى القبح !

ماذا يريد بالمعنوى ؟ لعله يريد الجناس المعنوى ؛ فإن صح ذلك فما معنى أن يناديه ليشكو إليه حاله !

وتشبيه نفسه بالجبل الذى يظل أصدقاءه ويحميهم تشبيه جيد ، وإن كان مسبوقا به .

ولكن غير مستساغ تصويره الأصدقاء أنهم قد جاروا على هذا الجبل فهدّوه !

فالجبل لا يستطيع هده غير الله — سبحانه — يوم يأذن بخراب العالم ، فتندك الأرض وتصير الجبال كالعهن المنفوش !

هذا إلى ركوك البيت المهلهل ، ونسجه المرعبل ، وألفاظه الغليظة ، وتركيبه المصطنع الواهن !

ثم هو إلى ذلك مأخوذ من قول البهاء زهير يهجو بعض الناس :

وجاهل طال به عنائى   لازمنى وذاك من شقائى

أبغض للعين من الأقذاء   أثقل من شماتة الأعداء

فهو إذا رأته عين الرائى   أبو معاذ أو أخو الخنساء

وبين البيتين فى الصفاء والعذوبة والرشاقة والبراءة من التكلف ما بين طبيعة الشاعرين !

ومن غرائب الاتفاق : أنى وقفت بعد ذلك على كلمة لابن شهاب الدين الحضرمى يعقّب بها على بيت ابن حجة وتبجُّحه به وهى : ومن سعد حظ الشيخ علاء الدين الذى تمنى له الناظم البقاء ليسمع بيت جناسه هذا ، أنه مات قبل بروز هذه الصخور إلى عالم الظهور[1] !

جناس الإشارة :

والقسم الثانى : جناس الإشارة ، ويسمى أيضا : تجنيس الكناية .

وهو : أن تكون إحدى الكلمتين دالة على الجناس بمعناها دون لفظها .

وسبب وروده : أن الشاعر يقصد المجانسة بين لفظين فى بيته فلا يتفق له الوزن على إبرازهما معا ، وإنما يتهيأ له ذكر أحدهما فقط فيذكره ويضمر الثانى ، ويشير إلى هذا المضمر بما يدل عليه من مرادف أو كناية أو صفة إلى غير ذلك .

وعلى هذا فلا ورود لهذا النوع فى الكلام المنثور ، إذ لا وزن يضطره إلى الإتيان بذلك[2] .

فالفرق بين جناس الإضمار والإشارة : أن الأول يُضمر فيه ركنا الجناس معا ، والآخر : يضمر فيه أحدهما فقط ، ويقام مرادفه أو كنايته أو صفته محله ، وأما ركنه الثانى فيكون مذكورا ظاهرا .

وقد سماه حازم : جناس الرسالة ، وبعضهم سماه : جناس الكناية .

وهو فرع من جناس الإضمار ، ولكنه أبعد من الاستغلاق والغموض ، وأعذب فى الذوق ، وأدنى إلى أساليب الفصاحة .

مثال الدلالة بالمرادف قول امرأة من بنى عقيل — وقد أراد قومها الرحيل عن بنى ثهلان وتوجه منهم جماعة يحضرون الإبل — :

فما مُكثنا دام الجمال عليكم بثهلان إلا أن تُشدَّ الأباعر

---

(١) إقامة الحجة على التقى بن حجة — ١٩

(٢) كليات أبى البقاء — ١١٢

أرادت أن تجانس بين الجَمال بالفتح والجِمال بالكسر ، فلم يساعدها الوزن ولا القافية كما ساعد المعرى فى قوله :

لغيرى زكاة من جَمال فإن تكن زكاة جِمال فاذكرى ابن سبيل

فعدلت إلى مرادف الجمال وهو الأباعر .

ومن ألطف ما ورد فى ذلك قول دعبل فى وصف امرأته سلمى :

إنى أحبك حباً لو تضمّنه سلمى سميُّك زال الشاهق الراسى

وفى بعض الروايات : دك الشاهق الراسى .

سلمى : اسم امرأته ، وسميها : جبل لطيء شرقى المدينة اسمه : سلمى أيضا .

ففى قوله : سميك إشعار بأن الركن المضمر هو سلمى ؛ فظهر جناس الإشارة بين الركن الظاهر وهو سلمى اسم الزوجة المحبوبة ، والركن المضمر وهو سلمى الجبل المشار إليه بسميك .

وفيه يقول ابن رشيق : وأما قول دعبل فى امرأته فقد جنس من غير جناس ؛ لأن قوله : سميك دال على مراده[1] .

وقول شرف الدين بن الحلاوى — وهو من بدائع هذا النوع — :

وبدت نظائر ثغره فى قرطه فتشابها متخالفين فأشكلا

فرأيت تحت البدر سالفة الطَّلى ورأيت فوق الدر مسكرة الطلا

الطلى بالفتح : ولد الظبى ساعة يولد ، والطلا بالكسر : الخمر وأصله الطلاء بالمد .

أراد الشاعر أن يجانس بين سالفة الطلى وسلافة الطلا فلم يساعده الوزن ، فعدل إلى المسكرة وهى مرادفة السلافة .

وأراد عز الدين الموصلى أن يمثل لهذا النوع فخانه التوفيق ، وذلك حيث يقول :

وكافر يُضمر الإحسان فى عذَل كظلمة الليل عن ذا المعنوى عمى

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢٨

فالكافر : الساتر سمى بذلك لأنه يستر النعمة ويجحدها .

والكافر أيضا : الليل لأنه يستر الأشياء ويغطيها .

وقد أضمره الموصلى ورادفه بالظلمة ، فظهر منهما جناس الإشارة بين كافر وكافر .

ولكن الذى يؤخذ عليه أنه عدل إلى المرادف هنا بدون عذر ؛ لأنه كان يستطيع أن يقول :

وكافر يضمر الإحسان فى عذل ... ككافر الليل عن ذا المعنوى عمى

فالنظم لم يستعص عليه كما يقول الحموى[1] .

ومثال الدلالة بالكناية قول الشاعر — يمدح المهلب بن أبى صفرة ويذكر فعله بقطرى بن الفجاءة الخارجى وكان قطرى يكنى أبا نعامة — :

حدا بأبى أم الرِّئال فأجفلت ... نعامته عن عارض متلهب

الرئال : أفراخ النعامة جمع رأل بفتح الراء .

أراد أن يقول : حدا بأبى نعامة فأجفلت نعامته : أى روحه ؛ ليجانس بينهما ؛ فلم يساعده الوزن فقال : بأبى أم الرئال .

ومثال الدلالة بالصفة قول الشماخ :

ما أروَى وإن كرُمت علينا ... بأدنى من موقَّفـــة حرون

يطوف بها الرُّماة فتتقيهم ... بأوعال معطَّفـــة القرون

أروى : اسم معشوقة الشاعر ، والموقفة : أنثى الوعول ؛ وهى أروى الوحش التى فى قوائمها خطوط بيض مع سواد كأنها الخلاخل ، وبها سميت المرأة : أى إن فى قوائمها خطوطا تخالف لونها .

والحرون : التى تحرُن فى أعلى الجبل فلا تبرح .

أراد أن يقول : إن إروى المحبوبة ليست بأدنى إليـــه من الأروى الوحشية ، ولكن لما لم يتسن له أن يأتى باسمها فى النظم أتى بصفتها وهى الموقفة الحرون .

---

(١) خزانة الأدب — ٥٣

ثم وصف امتناعها فى البيت الثانى : بأن الرماح تطوف بها فلا تنالها ؛ لأنها فى أعلى الجبل دونها أوعال فلا يصل إليها نبل الرماة ، لأنهم يرمون تلك لأنها أقرب إليهم ؛ فكأنها تقى نفسها بهذه الأوعال .

وإنما يؤكد بهذا بُعدها وأنها لا يقدر عليها[1] .

وقد صرح بذلك المعرى فى قوله :

أرى النياق كأروى النّيق يعصمها ... ضرب يظل له السّرحان مبهوتا[2]

وقول شاعر يهجو مغنيا ثقيلا :

قال غنيت ثقيــلا ... قلت قد غنيت نفسك

الثقيل : صوت غنائى .

والمراد : بغنيت نفسك : أنه ثقيل مثل الصوت الذى غناه .

وقد وقع التجانس بين الثقيل الظاهر الذى هو الصوت الغنائى ، والثقيل المضمر الذى هو صفة للمغنى .

ومن الدلالة بالمقلوب قول بعضهم :

وتحت البراقع مقــلوبها ... تدب على ورد خد ندى

أراد أن يقول العقـارب — يعنى عقارب الأصداغ وهى الذوائب الملتوية عليها — فلم يتيسر له الوزن فدل على العقارب بمقلوب البراقع .

وقول أبى روح الهروى :

حقيق لك أن تطعَم ... م عفصا وهو معكوس

وأن يلبس جنبا ... ك الذى مقلوبه طوس

مقلوب عفص : صفع ، ومقلوب طوس : سوط .

أراد أن يقول : صفعا وسوطا فلم يتهيأ له ، فعمد إلى مقلوبهما .

وقول آخر — وقد مثــل به الزنجانى والبغدادى والرازى والطيبى وأبو البقاء — :

حُلقت لحية موسى باسمه ... وبهارون إذا ما قـلبا

---

(١) أمالى القالى — ٢ — ٣٣ (٢) النيق بالكسر : أعلى موضع فى الجبل .

أشار باسمه إلى الموسى : آلة الحلق ، وهى تجانس موسى علم على رجل .
وقلب هارون هو النورة بالضم ، وهى مادة يحلق بها الشعر .
ومثله قول الخبز أرزى :

لقد عثرت فى وجه سحبان لحية   وما عثرت إلا وفى الوجه تخريب
فليت اسم موسى فوقها متمكن   وإن غاب موسى فاسم هارون مقلوب

ومن جناس الإشارة قول بعض شعراء كندة :

قولوا لدودان عبيد العصا   ما غركم بالأسد الباسل

ودودان بالضم : بنو أسد .
أراد أن يقول : قولوا لبنى أسد ما غركم بالأسد ، فلم يطاوعه الوزن فعدل إلى مايدل عليه وهو : دودان .
وقول آخر — أنشده الرمانى — :

ضيعتى مثل اسمها العام م وداري مستر مه

وقول أبى تمام :

إذ لاصدوقَ ولا كنود اسماهما   كالمعنيين ولا نوارُ نوار

والمراد صدر البيت لا عجزه .
وقول دعبل — يهجو رجلا وعده إهداء نعل ثم أخلف — :

وعدت النعل ثم صدفت عنها   كأنك تشتهى شتما وقذفا
فإن لم تهد لى نعلا فكنها   إذا أعجمت بعد النون حرفا

وإعجام العين بعد النون تصير به النعل نغلا .
والنغل بإسكان الغين وككتف : ابن الزنا
وبين النعل والنغل يقع التجانس .
قيمة الجناس المعنوى :
يقول الصفدى : إن الجناس المعنوى لايخلو من التكلف والتعسف ؛ إذ الصحيح أن الإنسان إذا أنصف ، علم أن هؤلاء الشعراء عند نظم هذه الأبيات ما نحوا هذه المقاصد البديعية .

وإذا فتح هذا الباب أمكن أن يجعل غالب الشعر جناساً معنوياً والتأويلات بابها متسع، والمجال فيها على الناظر فسيح[1].

ورأى الصفدى ينصب على احتيال العلماء لهذا النوع، وتمحلهم فى استخراجه من كلام الشعراء، لا على الشعر نفسه الممثل به.

ويقول ابن شهاب الحضرمى: ادعى الصفدى — فى كتابه جنان الجناس وكتابه الغيث الذى انسجم — بطلان هذا النوع من أصله.

والحق: أنه ملحق بالأحاجى وهى عند المتقدمين غير محسوبة من المحسنات، فلهذا لم يتعرضوا له، وتعريفه السابق يصدق على شواهد الأحاجى، وهى باب واسع ومجال فسيح ذكر الحريرى منها فى المقامات أحاجى كثيرة، وتبعه الناس فى ذلك[2].

ويقول الحموى: ومن غريب مايحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدى قال فى شرح لامية العجم وفى كتابه المسمى جنان الجناس — لما اعترض الجناس المعنوى —: هذا النوع باطل، ولم يتيسر له نظم بيت واحد مع كثرة تهافته على الجناس وأنواعه.

ثم يقول: والذى يظهر لى أنه عجز عن نظمه، فإنه قال فى غضون ذلك: وقد استخرجت من شعر أبى الطيب من الجناس المعنوى قوله:

حاولن تفديتى وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق ترائبا

وهذا دليل على أنه لم يفهمه[3].

وهذا القول عجيب من الحموى، فإن الصفدى — كما نعرف — متعصب جداً للجناس، ولو أنه كان يؤمن بالجناس المعنوى لتعلق به كما تعلق بغيره.

ولكن رفضه مع شغفه البالغ بجميع ألوان الجناس حتى يؤلف فى ذلك كتاباً مستقلا يدل على إخلاصه فى رأيه.

وكان أولى برفض الجناس المعنوى لا التعصب له الحموى نفسه، لأن

---

(١) جنان الجناس — ٣٦ (٢) إقامة الحجة — ١٠

(٣) خزانة الأدب — ٥٢

رأيه قبيح فى الجناس جملة وتفصيلا ، وقد سجله فى خزانة الأدب صراحة ، لكن تعقبه للصفدى فى كل مايراه جعله يحمد هذا النوع من الجناس ، وينعى على الصفدى رفضه له مع أنه من أشد أقسام الجناس تكلفاً وأبعدها عن منزع الفطرة .

هذا فيما يتعلق بالنوع نفسه وعده ضرباً من الجناس .

وأما فيما يختص بالأمثلة التى ساقوها بياناً له ؛ فليس فيها ما يقوم دليلا على أن أصحابها كانوا يقصدون الجناس ، ولكن العلماء هم الذين قصدوا ذلك وأخضعوا الشعر قسراً لهذا التخريج الغريب ، ثم انساقوا وراء زعمهم فتكلفوا نظم أبيات ركيكة على هذا النسق يؤيدون به رأيهم ويستنبطون منها القاعدة ؛ مغالاة فى زيادة أقسام الجناس .

فمثلا قول بعض شعراء كندة المتقدم :

قولوا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل

ليس حتما أن يكون الشاعر قصد أن يقول : قولوا لبنى أسد ، بل المعقول والأنسب أن يكون قصد هذا الاسم « دودان » بالذات ، لأن المقام مقام ذم وتحقير وتهديد ، وكلمة دودان توحى بالنقص والهوان والانحطاط ، بخلاف « بنو أسد » التى تشعر بالإباء والعزة والشجاعة وهو لا يريد أن يصفهم بذلك فى موقف يقتضى العكس ، ثم هى فى الوقت نفسه دالة على القوم الذين يريدهم دون أن يضطر إلى وصفهم بصفات الكرم ، فالشاعر قد أفلح فى بلوغ مقصده من أقرب طريق ، فنال من أعدائه بتحقيرهم والزراية عليهم حين عدل عن الاسم الموحى بالجراءة والأقدام إلى ما يوحى بالضعة والسِّفال ، ولو أنه قال : بنو أسد ثم أردفه بعبيد العصا لكان متناقضاً مع نفسه بحسب ظاهر الكلام على الأقل ، لأن أبناء الأسد لا يصح وصفهم بأنهم عبيد العصا ؛ فعبيد العصا أبناء الكلاب لا أبناء الآساد !

ومثل هذا يقال مثلا فى قول الشاعر :

حلقت لحية موسى باسمه وبهارون إذا ما قلبا

فهذا النظم على هذه الشاكلة مقصود للشاعر لأن فيه طرافة وبداعة تونق السمع ، وتحمل على التأمل والاستجلاء ، وفيه تلعب باللفظ ودوران ، حول المعنى المراد ليتحقق معنى الإمتاع !

ويكفى أن تقول : حلقت لحية موسى بالموسى وبالنّورة ، لتصير إلى كلام غث سخيف يتنزه عنه السوقة بله البلغاء مع أن المعنى واحد فى التركيبين .

ومهما يكن فلا تخلو بعض الأمثلة المتقدمة من جدة وقوة ورشاقة ، فالنقد لا يتوجه إليها لأنها لا تخلو من معانى الشاعرية على كل حال وخاصة فى شعر المطبوعين من الشعراء ، ولكن موضع المؤاخذة هو تعقب البديعيين لها واقتناصهم منها الشواهد ، للتدليل على شىء غير مراد لأصحابها ، ولا دار فى أوهامهم !



الفصل السادس عشر

ألوان من الجناس

أورد علماء البديع ألواناً أخرى من الجناس زيادة على الأنواع الأخرى المتقدمة .

والناظر إليها بإنعام يرى أنها قليلة القيمة ، لأنها داخلة فيما سبق إيراده من أصول الجناس وإنما عدت أقساماً بذاتها اسمات خاصة تعرف بها وإن كانت ليست بذات بال ، وهى كما يلى :

١ — الجناس المزدوج .

وهو أن يتوالى الجناسان مطلقاً من غير فصل بينهما إلا بحرف جر أو عطف وما أشبهه .

سمى بذلك لازدواج اللفظين بتواليهما ، ولما يظهر بين الكلمتين من الاستواء ؛ لأن الازدواج هو الاستواء .

ويسمى المكرر والمردد أيضاً ؛ لتكرر أحدهما بالآخر ، وترداده به .

وقيده الوطواط والحلبي[1] : بأن يكون فى نهاية الأسجاع أو أواخر الأبيات ، مع جواز أن تقع فى صدر اللفظ الأول منهما زيادة .

مثاله من الجناس التام : تقوم الساعة فى ساعة .

ومن الناقص : جدى جهدى .

ومن المحرف قول شاعر عصرى :

يخيــل لى أن الوفود تفرقت   ولم يندمل من طيب الكلم الكلمُ

(١) حدائق السحر — ٩٨ — حسن التوسل — ٤٥

ومن اللاحق قوله — تعالى — : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .

ومنه الحديث : « المؤمنون هيّنون ليّنون » .

ومن المقلوب : سيفه للأعداء فتح وحتف .

٢ — الجناس المعتل .

وهو ما تقابل في لفظيه حرفاً مدّ ولين متغايران أصليان أو زائدان مثل : نار ونور ، وشمال وشمول .

٣ — الجناس المقصور .

مثل سنا وسناء وجنى وجناح .

٤ — تجنيس التنوين .

وهو إما مقصور نحو شجى وشجن ، أو منقوص نحو مُطاعن ومُطاع في قافية نونية .

وقد ذكر المعتل والمقصور والتنوين حازم[1] .

٥ — جناس الترجيع .

وهو أن ترجع الكلمة بذاتها غير أنها تزيد حرفاً واحداً أو حرفين مثل : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .

٦ — التجنيس المضاف .

وسماه الرماني المزاوَج كقول البحتري :

أيا قمر التمام أعنت ظلما   على تطاول الليل التمام[2]

ومعنى التمام واحد في الأمرين ولو انفرد لم يعد تجنيساً ، ولكن أحدهما صار موصولا بالقمر والآخر بالليل فكانا كالمختلفين .

هذا قول القاضي الجرجاني[3] .

وقد تعقبه ابن رشيق : بأنه كان يتمكن ما أراد لو أن الشاعر ذكر الليل وأضافه فقال : ليل التمام كما قال : قمر التمام[4] .

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٢

(٢) قمر التمام بالفتح والكسر : البدر ، وليل التمام بالكسر : أطول ليالي الشتاء .

(٣) الوساطة — ٤٢   (٤) العمدة — ٢٢٧

وهو اعتراض وجيه .

وقد يكون من هذا الجنس عند القاضي الجرجاني ما تجانس به المفرد بالمضاف ، وقد تكون الإضافة اسما ظاهرا أو مكنيا وقد تكون نسبا .

ويذكر الجرجاني أن من أملح ماسمعه فيه قول أبي الفتح بن العميد :

فإن كان مسخوطا فقل شعر كاتب — وإن كان مرضيا فقل شعر كاتب

وقد مر ذكره في الترديد .

٧ — الجناس المتوازن .

وهو : أن تتفق الكلمتان في الوزن وتختلفان فيما عداه[١] .

٨ — الجناس المشوش .

واشتقاقه من قولهم : تشوش الأمر ؛ إذا مرج واختلط بعضه ببعض .

وهو : ما تجاذبه طرفان من الصناعة ليس إطلاق أحدهما عليه أولى به من الآخر .

فلما كان كذلك بقي مذبذباً بين الأمرين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه[٢] ، فلا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه[٣] .

مثاله قولهم : فلان مليح البلاغة ، صحيح البراعة .

فلو اتحد عينا الكلمة وهما الراء واللام لكان جناس تصحيف .

ولو اتحد لاماهما وهما العين والغين لكان مضارعا إذ شرطه الاختلاف بحرف[٤] .

ومن ذلك قول أبي فراس :

لطيرتي بالصداع نالت — فوق منال الصداع مني

وجدت فيه اتفاق سوء — صدعني مثل صد عني

فلولا تشديد عني لكان جناسا مركبا ، ولو كانت صد عني كلمة واحدة لكان جناسا مختلفا .

---

(١) شرح الفوائد الغياثية — ٣٥٢

(٢) الوساطة — ٢٩ — الطراز — ٢ — ٣٧١

(٣) حسن التوسل — ٤٦

(٤) جنان الجناس — ٣٦

ومن المشوش ما اجتمع فيه التصحيف والتحريف كقول الحريرى :
زينت زينب بقد يقد .

وقول أبي تمام :

في حده الحد بين الجد واللعب

ومنه حديث أبي داود : « سوء الخلق شؤم » .

فلو اتحد أول الكلمة كان مطرفا ، ولو حذفت الميم كان مصحفا .

وهذا النوع زاده الطيبي فى كتابه التبيان[1] .



(١) شرح المرشدى — ٢ — ١٤٦

الفصل السابع عشر

أشياء اختلفت فيها الأنظار

كما اختلف البلغاء فى تقسيم الجناس وتسمية أقسامه ، نراهم قد اختلفوا فى أشياء لها قيمتها، نوردها فيما يلى استكمالا للفائدة .

١ — أمثلة تتعلق بالاشتقاق وشبهه « المطلق » كقوله — تعالى — « أسلمت مع سليمان » « فأقم وجهك للدين القيم » « قال إنى لعملكم من القالين » « جنى الجنتين دان » .

وكالحديث الشريف: « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

فهذه الأمثلة مثل بها بعضهم للاشتقاق ، ومثل بها بعضهم لشبه الاشتقاق .

والخطب سهل إذا عرفنا أن ابن رشيق يدخل الاشتقاق وشبهه «المطلق» تحت اسم الجناس المحقق ، وقد عرفه بأنه : ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع [1] .

وقد تقدم ذلك .

هذا إلى أن العرب كانوا لا يتقيدون بهذا الاشتقاق الصرفى الذى نعرفه وهو : ما يتفق فى أصل المعنى .

فكانوا يشتقون من اسم الشيء الذى يعاينونه ويسمعونه ؛ يدل على ذلك قول بشار بن المضرب :

تغنى الطائران ببين سلمى ... على غصنين من غرَب وبان

فكان البان أن بانت سليمى ... وفى الغرَب اغتراب غير دان

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢٢

فاشتق — كما ترى — الاغتراب من الغرب ، والبينونة من البان[1] وقد سبق لنا أمثلة من ذلك .

فعلى هذا المعنى يمكن أن نعد القسمين اشتقاقاً .

٢ — المشتقات مع الأفعال وغيرها كقوله — تعالى — : « أزفت الآزفة » « إذا وقعت الواقعة » ومثله قامت القيامة وقرعت القارعة .

فبعضهم يعده اشتقاقاً محضاً لا جناساً ، وبعضهم يعده جناسا .

والرأى الأمثل : عده جناسا على اعتبار أن الآزفة وما شاكلها قد صارت أعلاما[2] .

٣ — اتفاق معنى اللفظين واختلاف مفهومهما بالقرائن كقول أبي تمام:

أظن الدمع فى خدى سيبقى   رسوما من بكائى فى الرسوم

قال فيه ابن الأثير : وربما جهل بعض الناس فأدخل فى التجنيس ماليس منه ، نظرا إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى .

وهذا ليس من التجنيس فى شىء ؛ إذ حد التجنيس هو : اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا ، وهو مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف[3] .

وقد رد عليه الصفدى رداً قاسياً فقال : هو نفى أن يكون هذا البيت من الجناس جملة وأنا أقتله بسيفه ، وأقول : إن هذا البيت من أعلى مراتب الجناس لأنه جناس تام وهو : الذى تتفق ألفاظه وتختلف معانيه ؛ لأن السامع يفهم من قوله : رسوما فى الأول غير ما يفهمه من قوله فى الرسوم ثانيا ، ويجد فى نفسه تفرقة بين اللفظين فى المعنى ، إذ المعنى الذى يفهم من البيت: أن الشاعر قال : أظن الدمع سيُبقى فى خدى أخدودا أو حفائر بإدمان جريانه من بكائى فى آثار منازل الأحباب .

---

(١) الحيوان — ٣ — ١٣٦

(٢) الصناعتين — ٣١٠ — جنان الجناس — ٣٣

(٣) المثل السائر — ١ — ١٠١

فالسامع يفهم من كل لفظة مع قرينتها مالا يفهمه من الثانية مع قرينتها .

فإن ادعى أن اللفظ الأول هو الثانى بعينه ، فهذا البيت يكون ملحقاً بأصوات الحيوانات التى هى غير ناطقة ، وهو من كلام هذا الرجل الفصيح المعدود من فحول الشعراء[1] .

٤ — حقيقة اللفظ مع مجازه كقول أبى تمام :

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة ... تهتز من قُضب تهتز فى كثب

بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت ... أحقّ بالبيض أبدانا من الحجب

وقد عده ابن الأثير من الجناس .

فالقضب : السيوف ، والقضب : القدود على حكم الاستعارة ، وكذلك البيض : السيوف ، والبيض : النساء[2] .

ولم ير ابن الحديد ذلك من الجناس ورد على ابن الأثير : بأن لفظتى قضب فى البيت الأول ، ولفظتى البيض فى البيت الثانى خارجة عن باب التجنيس بالكلية ؛ لأن القضب جمع قضيب ، وهو : العود الرشيق من الشجرة .

هذا هو حقيقة ذلك اللفظ فى أصل وضعه ، وإنما سمى القد والسيف به مجازاً .

ولا تظن أن تسمية السيف قضيبا من حيث كان قاطعا من القضب وهو القطع ، فيكون فعيلا بمعنى فاعل كقدير وعليم ؛ لأنهم لو كانوا أرادوا ذلك لسموا السيف العظيم العرض قضيبا ، وما رأيناهم سموه بذلك وإنما سموا به السيف اللطيف .

ومثل ذلك البيض ، فإنها ليست من أسماء النساء ، والبيضاء وامرأة ليستا لفظتين مترادفتين كالموسى والهلوك ، ولا البيض من أسماء السيوف ولا سمعنا أن الأبيض اسم للسيف كما أن الليث اسم الأسد ، وإنما البيض عبارة عن أشياء ذوات بياض فقط ، ثم استعيرت هذه اللفظة للسيف والنساء .

(١) جنان الجناس — ١٧ (٢) المثل السائر — ١٠٥

صفة لا اسما ، وهذا أمر خارج عن التجنيس بالمرة[1] .

والفرق بين الرأيين : أن ابن الأثير يرى أن القضب والبيض بمعنى السيوف والقدود ، والسيوف والنساء ، وقعتا مرة حقيقة ومرة مجازا فاختلفتا مفهوما فصح بينهما التجانس .

وأن ابن أبي الحديد يرى أنهما استعملتا مجازا في كل ذلك ، فلا يقع بينهما تجانس لعدم اختلاف المفهوم .

وقد انتصر الصفدى لابن الأثير ، فعد البيت من أعلى مراتب الجناس ؛ لأن السامع يفهم من كل لفظة مع قرينتها مالا يفهمه من الأخرى .

وقال في دعوى ابن أبي الحديد « أن قضيبا في السيف والقد مجاز » : لا تصح منه ، بدليل أنه يجوز أن تقول : سيف قضيب ولا تقول : قدّ قضيب بل كالقضيب بإثبات أداة التشبيه دون الحذف بخلاف الأول ؛ فليس صحيحا أن قضيبا لفظة موضوعة للصفة يستوى استعمالها في كل ما اتصف بها ، فبينهما تغاير لهذا الفارق[2] .

ومثله أيضا قول أبي تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب

وقد عده ابن الأثير من التجنيس ؛ لأن لفظ الصدور في هذا البيت واحد والمعنى مختلف[3] .

ورد عليه ابن أبي الحديد : بأنه من القرار الأول الذى قلنا : إنه ليس بتجنيس ؛ لأن الصدر اسم لهذا العضو المخصوص، لكنه لما كان هو مقدم الإنسان نقل إلى صدور العوالى وهي رءوسها وما يتقدم منها ، وإلى صدور الكتائب وهي ما يتقدم منها أيضا ، فالمعنى واحد في الموضعين ، وإذا اتحد المعنى خرج عن باب التجنيس[4] .

---

(١) الفلك الدائر — ٩٢

(٢) جنان الجناس — ١٧

(٣) المثل السائر — ١٠٠

(٤) الفلك الدائر — ٩٢

٥ — الموصوفات المختلفة المتحدة الصفات ، كقولنا في الليل : أسود ، وفي الحية : أسود ، وفي التمر : أسود .

ومثل هذا لا يعد تجنيسا عند ابن أبي الحديد ، لأن هذه الصفات اختلفت موصوفاتها لا غير ، وأما هي فإنها لم تختلف ولم يقل أحد بأن هذا تجنيس[1] .

وقد رد الصفدي : بأن هذا شناع منه وتعصب ، لأنه إذا سمع متكلم يقول : أسود وأسود وأسود فلا يقال في هذا : جناس .

ولكن إذا استعملت كل لفظة مع قرينتها قيل : إنه جناس كما إذا قلت : لدغني الأسود ، وأنا آكل الأسود ، وقد أقبل الأسود بنجومه ، فما يخالف في أن هذا جناس إلا مكابر متعنت[2] .

٦ — المشتقات مع العلم المنقول عنها أو الاسم الذي يتفق معها في الاشتقاق ، كقول أبي نواس في الفضل بن الربيع :

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

فذلك يعد من الجناس عند ابن الأثير وابن رشيق[3] .

بل عده بعضهم أفضل تجنيس وقع لمحدث[4] .

وقول أبي العباس بن قاسم الأندلسي : إن نظمت فصريع : صريع ، والبديع : غير بديع ، وإن نثرت فالصاحب : صاحب ، وقابوس : ذو بوس .

وقول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى وما زال محبوسا عن المجد حابس

فإنه معدود من الجناس عند الجمهور .

ويرى ابن الأثير غير ذلك فيقول : وربما ظن أن هذا البيت وما يجري مجراه تجنيس ، حيث قيل فيه : معقول وعقال ، ومحبوس وحابس وليس الأمر كذلك ، وهذا الموضع يقع فيه الاشتباه كثيرا على من لم يتقن معرفته ، وقد تقدم أن حقيقة التجنيس هي اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وعقال

---

(١) الفلك الدائر — ٩٢ (٢) جنان الجناس — ١٨

(٣) المثل السائر — ١٠٠ — العمدة — ١ — ٢٢٢ (٤) حسن التوسل — ٤٢

ومعقول وحابس ومحبوس ، اللفظ فيها واحد والمعنى أيضا واحد ، فهذا مشتق من هذا : أي قد شق منه[1] .

٧ — العلم المنقول عن المصدر مع ما نقل عنه . كقول المؤلف :

يا سعد كن فأل سعد لمصـــر والسودان

فالأكثر على أنه تجنيس وعليه جاء بيت الحموى فى بديعيته :

يا سعد ما تم لى سعد يطرِّفنى بقربهم وقليل الحظ لم يلم

وقد اعترض عليه ابن شهاب الدين الحضرمى فقال : أما الجناس التام فى بيت الناظم ، فما إخاله إلا ناقصا ؛ لأن علمية سعد المخاطب فى البيت الذى هو أحد ركنى الجناس منقولة عن الركن الآخر ، فلا جناس حينئذ لعدم وجود الاشتراك الوصفى فى لفظه[2] .

٨ — الاسمان أحدهما علم لرجل والثانى لقبيلة كقول الأعشى :

إن تسد الحوض فلم تحدهم وعامر ساد بنى عامر

عده القاضى الجرجانى من الجناس وقال فيه : ومما أضيفه إلى هذا الباب وخالفنى فيه بعض أهل الأدب قول الأعشى : « البيت المتقدم » .

فأقول : إنه قد جانس بعامر وعامر ؛ لأن الأول : اسم رجل والآخر : اسم قبيلة .

وأراه يخالف قول الآخر :

قتلنا به خير الضبيعات كلها ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما

لأن كلتيهما قبيلتان فكأنما جمع بين رجلين متفق الاسم .

وابن رشيق على غير رأى الجرجانى ؛ لأن الشاعر قال : بنى عامر فأضاف بنى إليه ، ولو قال : وعامر ساد عامر يعنى القبيلة لكان تجنيسا غير مدفوع .

واعتراض ابن رشيق على منع التجنيس لهذه الإضافة لا معنى له ؛ لأن ذلك لا يمنع أن عامر اسم للقبيلة وقد اجتمع مع اسم رجل .

---

(١) المثل السائر — ٣٠٣ (٢) إقامة الحجة — ٧

ومثله قول الشاعر :

خط الوزير ابن مُقلهْ　　بستان قلب ومقلهْ

ويتصل به قول بعضهم :

غدوْا بهلال من هلال بن عامر　　مرام هلال الأفق دون مرامه

٩ — العلم لشخصين مختلفين كموسى علما للكليم — عليه السلام — وموسى علما لرجل آخر كقول أبي تمام — يمدح أبا المغيث موسى — :

فكأنهم بالعجل ضلوا حقبة　　وكأن موسى إذ أتاهم موسى

يشير إلى عبادة قوم موسى للعجل حين غاب عنهم لمخاطبة ربه ، فلما رجع إليهم ردهم عن ضلالتهم .

ففي البيت جناس بين كلمتي موسى ؛ لأن الأولى للممدوح ، والثانية لنبي بني إسرائيل[1] .

ومثله قول المتنبي لسيف الدولة - حين هزم عساكر الإخشيد بصفين - :

ياسيف دولة ذي الجلال ومن له　　خير الخلائف والأنام سميّ

أو ما ترى صفين كيف أتيتها　　فانجاب عنها العسكر الغربي

فكأنه جيش ابن حرب رعته　　حتى كأنك يا علي علي

يعني بعلي الأول : سيف الدولة وبالآخر : الأمام عليا .

١٠ — الأسماء المشتقة بعضها مع بعض كقول محمد بن وهيب الحميري :

قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا　　فمالك موتور وسيفك واتر

عده ابن الأثير من القسم المشبه بالتجنيس[2] .

وقد رد عليه ابن أبي الحديد : بأن إدخال هذا البيت في الجناس من طريق الأشباه ، فإن المعنى في الكلمتين واحد وإنما اختلفت صيغة الفاعل والمفعول كالضارب والمضروب ، ولو كان هذا تجنيسا لوجب أن يكون قول القائل : ضرب زيد بالعصا ضربة فتعلق الضارب بالمضروب ، قد تضمن التجنيس في أربعة مواضع : الفعل والمصدر واسم الفاعل والمفعول .

---

(١) هبة الأيام — ١٦٦　　(٢) المثل السائر — ١٠٣

وهذا مما لم يذهب إليه ذاهب[1] .

وقد انتصر الصفدى لابن الأثير ناظراً إلى قوله من زاوية أخرى فقال : ليس الأمر كما ظنه ابن أبي الحديد : من أن ابن الأثير جعل اسم الفاعل واسم المفعول جناسا ، إذ لا يقول هذا من هو دون الرجل فى فن البديع ، إذ هو أمر ظاهر لمن تعاطى هذا الفن فى المبادىء .

ولكن ابن الأثير فهم أن موتورا هو الذى قُتل له قتيل ولم يدرك به وهو الصحيح ، وتوهم أن واترا من قولك : قوس موتَّرة من الوتر ؛ بمعنى أن سيفك لا يبرح مهيئا للضرب ، كما أن القوس لا يركب فيها الوتَر إلا لمهم ، مع أن هذا بعيد لا يصح فى الاستعارة ، خارج عن القياس ، لأنه لا يقال : قوس واترة بمعنى موترة من باب قولك : ماء دافق بمعنى مدفوق .

ثم يقول : وعلى كل حال فقد وهم ابن الأثير وأفرط ابن أبي الحديد فى الشناع عليه[2] .

ولا ندرى من أين أتى للصفدى أن ابن الأثير يريد بواتر معنى موتر : أى مهيأ للضرب !

فإن ابن الأثير لم يشرح البيت ولم يذكر رأيه فى معناه ، ولا يمكن أن يفهم من معنى واتر غير ماتفيده اللغة ، وهو الذى قَتل من غيره ولم يدرك منه الثأر .

وخطأ ابن الأثير فى عد البيت من الجناس — إن صح أنه خطأ — أيسر من خطئه فى هذا الفهم الغريب لكلمة واتر ، وهو خطأ لم يصدر منه ولكن تبرع له الصفدى به ، وليس له سند من اللغة ولا من العقل !

---

(١) الفلك الدائر — ٩٢

(٢) جنان الجناس — ١٨

الفصل الثامن عشر

الجناس والتورية

قدمنا فى الفصل الثالث : أن ابن حجة الحموى كان مفرطا فى التعصب على الجناس بعامة ، وعلى التام منه بخاصة لا يكاد يرى له مزية ، وقد حكم عليه بأنه من الأنواع المتوسطة فى البديع ، وحمل حمل منكرة شعواء على صلاح الدين الصفدى لاحتفاله به وتأليفه فيه كتاب « جنان الجناس » .

غير أنه كان يرى مع ذلك : أنه يمكن أن نخفف ثقل الجناس ونرفع من ضعته ، ونخلع عليه أشعة من الجمال إذا جعلنا منه تورية ، فنسمعه يقول فى ذلك[1] : إن هنا بحثا لطيفا وهو أنه قد تقرر أن ركنى الجناس يتفقان فى اللفظ ويختلفان فى المعنى ، فإذا جعلت الجناس تورية انحصر المعنيان فى ركن واحد ، وخلصت من عقادة الجناس ، وحركت الأذواق ، وأبهجت خواطر السامع بما أتحفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها .

ثم أراد أن يرينا رأى العين كيف يمكن أن نحيل الجناس تورية ، ومبلغ ما بين اللونين من الحسن والجمال ، فساق مثالين على ذلك ليتضح فى الأذهان الصحيحة — كما قال — : أن النهار لم يحتج إلى إقامة دليل .

وأول هذين المثالين جناس تام مركب وهو :

أعن العقيق سألت برقا أومضا أأقام حاد بالركائب أو مضى

والمثال الآخر تورية — وقد حصر فيه ركنا الجناس فى ركن واحد — وهو :

وإذا تبسم ضاحكا لم ألتفت إن عاد برقا فى الدياجى أومضا

(١) خزانة الأدب — ٢٩

والمعنى القريب فى التورية : أومض من الإيماض ، والمعنى البعيد : مضى من المضى ، وأو : حرف عطف .

ففى أومض جناس تام إن أبرزت كلا من الركنين فى موضعه .

ثم يعقب على ذلك بقوله : وهنا يحسن أن يتمثل بقول القائل :

ومن يقل للمسك أين الشذا   كذّبه فى الحال من شمّا

يعنى بذلك : أن جعل الجناس تورية لايخفى حسنه على من له بصيرة وذوق !

وأقل تأمل فى المثالين اللذين أوردهما يجعلنا نحكم عليهما جميعا بقبح الصياغة وتفاهة المعنى والمغالاة فى التكلف والتلاعب بالألفاظ ، فلا خير فى التورية ولا مزية للجناس فيهما ، فهما سواء فى السخف والإسفاف ، وإن بدا لى أن الجناس فى البيت الأول الذى لم يعجبه أقل ثقلا ، وأدنى إلى القبول من التورية فى البيت الثانى على فرط إعجابه به .

ويكفى فى قبح البيت ورداءة نسجه أننا لكى نحقق ركنى التورية نجدنا مضطرين أن نرسم « مضى » بالياء مرة وبالألف أخرى ، لنجمع بين معنى المضى والإيماض ، وهو تلفيق مضحك غريب .

ويمضى الحموى فى تقرير رأيه فيقول فى موضع آخر : إن الفرق الناجية من التعسف والتكلف فى النظم لم ترض بالجناس إذا أمكنت التورية[1]

ويقول فى موضع ثالث[2] : إن جميع من نهلت من شرابهم الصافى لم يرضوا بالجناس التام إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه لعلمهم بعلو رتبتها عنه ، والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلى حسن موقعها .

ثم يوغل فى المبالغة فيقول : وإذا راجعت النظر فى كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناسا تاما .

وقد ساق على ذلك أمثلة اختلط فيها الحسن بالقبيح ، منها قول صدر الدين ابن الوكيل من « دوبيت » :

كم قال معاطفى تحكى الأسل   والبيض سرقن ما حوته المقل

(١) خزانة الأدب — ٣٤   (٢) المصدر نفسه — ٤١

والآن أوامرى عليهم حكمت البيض تُحد والقنا تُعتقل

فنى تحد وتعتقل جناسان تامان إذا أبطلت الاشتراك ، وأبرزت كلا من الركنين فى موضعه على طريقة من له رغبة فى الجناس .

يقصد تحد : يقام عليها حد السرقة ، أو تحد : ترهف وترقّق .

وتعتقل : من الاعتقال وهو الحبس ، أو الاعتقال ، وهو جعل الرمح بين الركاب والساق .

وقول ابن نباتة — وهو عنده أعدل شاهد فى هذا الباب — :

دمعى عليك مجانس قلبي فانظر على الحالين فى الصب

فذكر المجانسة هنا أحد لازمى التورية ، والدمع هو اللازم الآخر .

ويزعم الحموى : أن ابن نباتة نبّهنا فى بيته أنه لم يرض بالجناس ، ويؤيد ذلك قوله : على الحالين .

ولا خلاف أن الحموى متأثر فى أحكامه بحبه للتورية ، وإذا صح ماقاله: من أن الشعراء يأتون بالجناس التام على هامش التورية فيما ينظمون ، فإن ذلك ينسحب على الشعراء المتأخرين الناشئين فى العهود المتأخرة فى الشعر ، أما المتقدمون منهم جاهليين وإسلاميين ومولدين ، فما كانوا يعرفون هذه الأحاجى والمعميات .

ومن الغريب أن السيوطى تأثر بهذا الرأى تأثراً كبيراً ، وتابع أصحابه عليه بلا تدبر ولا تمحيص ، فإذا هو يقول : فإن جعل الجناس تورية وانحصر المعنيان فى ركن واحد فقد علت رتبته وارتفعت ، وصارت تسمى بالتورية التامة كقول ابن مكانس :

أقول لحِبى قم وميس يامعذبى كميسة خوْد حرك السكر راسَها

ولا تسهُ عن شىء إذا ماحكيتها فقام كغصن البان لينا وماسها

ماسها من الميسان فالميم أصلية .

أو ماسها من السهو فالميم زائدة .

ونعود فنقول : إن هذا من المغالاة المقيتة والتصنيع الفاحش ، فلا معنى أن نحول الجناس تورية ليحسن الكلام لأن ذلك عمل مقصود ، ومتى وصل الأمر إلى هذا الحد فلا فائدة أن نبقى على الجناس أو نصيره تورية ، فقد دخلنا فى نطاق التكلف وفسد الكلام من أساسه ، ونحن نعنى بالجناس : النوع المطبوع منه ومثله لايحتاج إلى هذا الترقيع ، لأن له حلاوة من ذاته كحلاوة التورية المطبوعة ، وإن اختلف لون الجمال فيهما فكما تختلف الأزهار شكلا وأريجا ، لذلك لانستطيع أن نسيغ قول الحموى والسيوطى : « إن أمكن جعل الجناس تورية ، لأن معنى هذا ألا يوجد جناس أبدا .

ثم معناه أن نفكر ونقدر لنبنى الكلام على هندسة معقدة متعاظلة ، ونجرى فيه عمليات جراحية طلبا للتجميل المصنوع وجلبا للتحسين العرضى ، وفى ذلك ما فيه من صرف الرغبة وتوجيه الهمة إلى الحلى اللفظية وحدها وحبس العناية عليها دون المعنى ، وهو سر البراعة وجوهر الفصاحة ولباب البلاغة ، وكان خيرا لأصحاب هذا الرأى أن يقولوا : إنه لاحاجة بنا إلى الجناس التام إطلاقا ، اكتفاء بالتورية التى تغنى عنه وتقوم مقامه.

ولو أنهم قالوا بذلك لكان لنا أن نقول : إن البلاغة فقدت حلية لفظية لها فى كثير من الأحيان وقع لطيف تطرب له الأذن ويهتز له القلب !

وفيما مر من كلام عبد القاهر — وهو من المتعصبين للمعنى — وكلام غيره من أئمة البلاغة والبيان فى الجناس الفطرى المطبوع ؛ أبلغ رد على ماذهب إليه الحموى وأتباعه فى هذا اللون البديعى .

الفصل التاسع عشر

الجناس والمطابقة

المطابقة عند البلغاء هى : الجمع بين الشيء وضده فى الكلام مثل البرد والحر والليل والنهار إلى غير ذلك .

وقد خالف قدامة إجماع العلماء فى ذلك فذهب إلى أن المطابقة[1] : اشتراك المعنيين فى لفظة واحدة بعينها ، ومثل لها بأمثال منها قول الأفوه الأودى :

وأقطع الهَوْجل مستأنسا بهوجل عَيرانة عنتريس[2]

فلفظة الهوجل فى هذا الشعر واحدة قد اشتركت فى معنيين ؛ لأن الأولى : المفازة البعيدة لا علَم بها ، والثانية الناقة بها هوَج من سرعتها .

وسمى قدامة المطابقة : التكافؤ .

وأما الجناس عنده فهو : أن تكون المعانى مشتركة فى ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق ، ومثل له كذلك بأمثال منها قول الكميت :

فقل لجذام قد جذمتم وسيلة إلينا كمختار الرِّداف على الرَّحل[3]

وقول النعمان بن بشير الأنصارى لمعاوية :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

وهذا النوع عنده — وهو ما يشمل الاشتقاق وشبهه — أفضل تجنيس[4] .

---

(١) نقد الشعر — ٩٧

(٢) العيرانة : الناجية فى نشاط ، والعنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة .

(٣) الرداف ككتاب : الموضع يركبه الرديف .

(٤) العمدة — ١ — ٢٢٢

ولم يسلّم واحد من البلغاء لقدامة ما ذهب إليه فأتاه الرد من كل ناحية :

فيقول العسكرى — حينما عرض للمطابقة وذكر تعريفها كما أوردناه — :

وخالفهم قدامة بن جعفر الكاتب ، فقال : المطابقة : إيراد لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين فى المعنى[1]

ويقول الآمدى : وهذا باب — أعنى المطابق — لقبه أبو الفرج قدامة ابن جعفر فى كتابه المؤلف فى نقد الشعر : المتكافىء .

وسمى ضربا من المجانس : المطابق ، وهو . أن تأتى الكلمة مثل الكلمة سواء فى تأليفها واتفاق حروفها ويكون معناها مخالفا ؛ مثل قول الأفوه الأودى :

وأقطع الهوجل مستأنسا . . .

ثم يقول : وما علمت أن أحدا فعل هذا غير أبي الفرج ؛ فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الألفاظ غير محظورة ، فإنى لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم فى هذه الأنواع وألف فيها ، إذ قد سبقوه إلى اللقب وكفوه المئونة[2] .

وقال أبو الفرج على بن الحسين الإصفهانى : قلت لعلى بن سليمان الأخفش : أجد قوما يخالفون فى الطباق ، فطائفة تزعم — وهى الأكثر — أنه : ذكر الشيء وضده .

وطائفة تخالف فى ذلك وتقول : هو اشتراك المعنيين فى لفظ واحد .

فقال الأخفش : من هو الذى يقول هذا ؟

فقلت : قدامة .

فقال : يا بنى ، هذا هو التجنيس ، ومن زعم أنه طباق فقد ادعى خلافا على الخليل والأصمعى .

فقلت : أو كانا يعرفان ذلك ؟

---

(١) الصناعتين — ٢٩٦ (٢) الموازنة — ٢٦٠

فقال : سبحان الله ! من أعلم منهما بطيّبه وخبيثه[1] .

ويقول ابن رشيق : المطابقة عند جميع الناس : جمعك بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر ، إلا قدامة ومن اتبعه فإنهم يجعلون اجتماع المعنيين فى لفظة واحدة مكررة طباقا ، وسمى قدامة هذا النوع الذى هو المطابقة عندنا : التكافؤ ، وليس بطباق عنده إلا ما قدمت ذكره ، ولم يسم التكافؤ أحد غيره وغير النّحاس من جميع من علمته[2] .

ويقول ابن رشيق فى موضع آخر — معقبا على قول الأفوه الأودى المتقدم — :

وأقطع الهوجل . . .

أنشده قدامة على أنه طباق ، وسائر الناس يخالفونه فى هذا المذهب ، وقد جاء رد الأخفش عليه فى ذلك[3] .

ويقول العلوى اتفق النـاس على معنى المطابقة إلا قدامة الكاتب فإنه قال : لقب المطابقـة يليق بالتجنيس ؛ لأنها مأخوذة من مطابقة الفرس والبعير لوضع رجله مكان يده فى السير[4] .

وزبدة القول : أن الجناس التام عند الجمهور هو الطباق عند قدامة .

وأما الجناس عنده فهو : ما يشمل الاشتقاق وشبهه كما تقدم .

وهناك أشياء اختلط فيهـا التجنيس بالمطابقة عقد لها ابن رشيق بابا خاصا[5] .

من ذلك : أن يقع فى الكلام شىء يستعمل للضدين — يعنى الاشتراك اللفظى — كقولهم : جلل : بمعنى صغير ، وجلل : بمعنى عظيم ، والجون : بمعنى الأسود والأبيض .

فإن باطنه مطابقة وإن كان ظاهره تجنيسا .

---

(١) سر الفصاحة — ١٨٩ — خزانة الأدب للحموى — ٨٥

(٢) العمدة — ٢ — ٧

(٣) المصدر السابق — ١ — ٣٢١

(٤) الطراز — ٢ — ٣٧٧

(٥) المصدر المتقدم — ٢ — ١٢

ومن ذلك : طباق النفى ، وهو : الجمع بين المشتقين من مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفى .

أو ما كان فى حكمه كالأمر والنهى نحو قوله — تعالى — : فلا تخشوُا الناس واخشوْنى » .

فإن معنى الفعلين واحد لأنهما مشتقان من مصدر واحد وهو الخشية ، وإنما تنافيا إيجابا وسلبا .

ومثله قوله — تعالى — : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» .

والحديث : « كونوا للعلم وعاة ، ولا تكونوا له رواة » .

وقول السموءل :

ونُنكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول

وقول البحترى :

تُقَيَّض لى من حيث لاأعلم النوى ... ويسرى إلىّ الشوق من حيث أعلم

وقول المتنبى :

ولقد عُرِفتَ وما عرفت حقيقة ... ولقد جهلت وما جهلت خمولا

وقول بعضهم :

خُلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ويرى ابن رشيق : أن التجنيس إذا دخله نفى عد طباقا ، والطباق يصير بالنفى تجنيسا (١) .

وقول طىء لولده من وصية : ولا تكونوا كالجراد أكل ما وجده وأكله ماوجده .

فهذا كله مجانس فى ظاهره وهو فى باطنه مطابق .

فمثلا قول البحترى : لا أعلم وأعلم يساوى قوله : أجهل وأعلم وهكذا .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢٨

ويتصل بذلك طباق الوعد والوعيد كقول الشاعر :

وإنى إن أوعدته أو وعدته   لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

وباب فاعل ومفعول نحو قولك : خالق ومخلوق ، وطالب ومطلوب .

وما كان اسم الفاعل والمفعول منه على وزن مفعل بكسر العين وفتحها نحو : مكرِم ومكرَم ، وما جرى هذا المجرى أو زاد عليه فى البناء .

فقد تجانسا فى اللفظ وتضادًّا فى المعنى .

ومن ذلك عكس ما تقدم ، كقول العتّابى يعاتب المأمون — وقد حجبه عنه وكان به حفيا — :

تضرب الناس بالمهندة البيض   م على غدرهم وتنسى الوفاء

فأتى بالغدر والوفاء جميعا وهما ضدان ، فطابق بينهما فى الظاهر وباطن كلامه مجانس ؛ لأن قوله : وتنسى الوفاء كقوله : تغدر .

وقول قيس بن الخطيم ويروى لعدى :

وإنى لأغنى الناس عن متكلف   يرى الناس ضُلالا وليس بمهتدى

كأنه قال : وهو ضال .

فجانس فى الباطن وإن كان قد طابق فى الظاهر .

وأما قولك : قضيت واقتضيت ، فظاهره تجنيس وباطنه طباق إلا أنه طباق غير محض .

وكذلك : أخذت وأعطيت ؛ لأن الأخذ ضده الترك ، والإعطاء : ضده المنع .

فهذا مما يظنه من لا يحسن طباقا وليس كما ظن ، ولكنه كثر فى الكلام جدا واستعمله الناس .

الطاعة والعصيان :

ويتصل بما نحن فيه : بيت للمتنبى وصف فيه عفته فى اليقظة والمنام وهو قوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر   ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

وقد جاء أبو العلاء المعري فى شرحه لديوان المتنبي الذى سماه « معجز أحمد » فاستخرج لنا من هذا البيت نوعا بديعيا سماه : «الطاعة والعصيان» .

وهو شيء لم يسبق به ولم يعثر له على مثال من قبل ولا عثر له على مثال من بعد !

وقد عللوا ذلك بأنه متعذر الوقوع ، وأنه إنما وقع للمتنبي فلتة !

وهو متعذر الوقوع حقيقة لسبب بسيط ، وهو أنه غير موجود وغير مراد أيضاً .

أما كيف وجد هذا النوع فى رأى شيخ المعرة فتفصيله : أن المتنبي أراد أن يقول : يرد يداً عن ثوبها وهو مستيقظ لتتم له المطابقة فى البيت ، فلما لم يطعه الوزن فى ذلك، عدل إلى لفظة قادر وجعلها مكان مستيقظ لما فيها من معنى اليقظة وزيادة !

وإلى هنا قد نسلم له ما قال ، ولكنه يعقب على ذلك بقوله : فأطاعه — أى المتنبي — التجنيس المقلوب بين قادر وراقد ، فلم يخل البيت من معنى بديعى .

وبذلك يكون المتنبي قد أراد أولا المطابقة فعصته ، ثم يمَّم الجناس فرثى لتعبه وأشفق عليه فأطاعه ، وأبدله الله بالدرهم ديناراً !

ثم جاء ابن أبي الإصبع — وهو عمدة أهل البديع على الإطلاق — فلم يعجبه قول المعرى كما لم يعجبنا ، وعلل سكوت النقاد عن الأخذ بتلابيبه : بأن القوم أحسنوا الظن به لموضعه من العلم والأدب ، وغطت على أبصارهم شهرته الذائعة فاعتقدوا فيه العصمة من الخطأ . والسهو ! أو يكونون قد وقعوا فيما وقع فيه أبو العلاء نفسه من الخطأ فى الفهم ، ومرّ عليهم ما مر عليه كما يحدث ذلك كثيرا .

ثم عرض ابن أبي الأصبع للبيت فنفى أن يكون هناك شيء أطاع الشاعر وشيء عصاه كما قال المعرى ؛ لأن الشاعر كان فى إمكانه أن يقول :

يرد يداً عن ثوبها وهو ساهر

ليحصل له غرضه من الطباق الذى زعم المعرى أنه نشز عليه .

وإلى هنا قد نلتقى مع ابن أبى الإصبع فى رأيه .

ولكننا نراه بعد ذلك يسوق رأيا يزيد فى غرابته على رأى المعرى ، وهو أن المتنبى قصد أن يحوى بيته طباقا وجناسا معا ، فعدل باختياره عن لفظة « ساهر » إلى لفظة « قادر » لأن القادر ساهر وزيادة فحدث له جناس العكس كما قال المعرى .

ولكن أين الطباق الذى أراده مع الجناس ؟

الطباق موجود أيضا ، لأن قادر تتضمن أنه مستيقظ ، وبين مستيقظ وراقد طباق وإن كان طباقا معنويا ، لأن الطباق منه اللفظى ومنه المعنوى أيضا كما هنا .

وعلى هذا الرأى الذى لا يقل غرابة عن رأى المعرى ، يكون المتنبى — وما أشد ما لاقى من العنت — قد ترك الطباق اللفظى الذى يتأتى له بلفظة «ساهر» معتمدا ، ليحصل على نوعين من البديع بلفظة «قادر» وهما : الطباق المعنوى وجناس القلب ، فضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ! وما كان من الكلام فيه نوعان من الحلى خير مما فيه نوع واحد عندهم .

ونحن نعرف أن المتنبى من شعراء المعنى لا اللفظ ، وأنه ليس ممن يهتمون بالبديع كأبى تمام مثلا ، وقد يتكلف أشياء كثيرة ، ويتعسف طرقا وعرة ، ويلج مسالك ضيقة ، ولكن ليس من أجل البديع بل لمغاز أخرى يريدها ، لعلها أبعد ما تكون عما نسميه التحسين اللفظى ، بل لعلها تتعارض مع كل تحسين ، وأما أستطيع أن أزعم هنا : أن جناس القلب بين قادر وراقد ليس مقصودا للمتنبى ، ولعله مات ولم يشعر به ، وإنما هو أراد الطباق اللفظى فقط ، ولم يـ ـده لذاته ولكن لأنه وصف نفسه بالعفة فى المنام ، وذلك يستلزم من باب أولى أن يصفها بالعفة فى اليقظة ، فكان حتما عليه أن يأتى بلفظ مستيقظ . لأن المعنى يقتضى ذلك حتى تتم المبالغـــة بجمع العفتين له .

ولكن الوزن الشعرى لم يطعه كما أطاع شاعرا عصريا فى قوله :

عجبت لها تهدى على النوم طيفها ولو وصلت يقظى لزال خيالى

فلم يجد بدا أن يعدل إلى أقرب الألفاظ التى تؤدى معنى اليقظة ، فجاء بلفظة قادر لأنها فوق ذلك تفيد الاحتراس ، فقد يتوهم أنه يرد يده عن ثوبها خوفا لاقدرة .

وأستطيع أن أزعم أيضا أنه لم يقصد لفظة قادر لأنها تحتوى على معنى مستيقظ وزيادة كما ذهب المعرى ، بل أراد أنها تقوم مقام اليقظة وكفى .

وأستطيع أن أزعم مرة ثالثة أنه لم يخطر ببال المتنبى أن يأتى بلفظة ساهر ثم يعدل عنها مختارا إلى لفظة قادر للغرض الذى ذكره ابن أبى الإصبع ؛ لأنه لا يخفى على مثله أن السهر فيه تكلف اليقظة ومعاندة النوم ، ولا معنى له هنا لأنه ليس بسبيل وصف ما يعانيه من تباريح الغرام !

وإنما يريد اليقظة بمعنى الصحو الطبيعى الذى هو ضد النوم ؛ لأنه لا يعنى أكثر من أنه عفيف فى تيقظه ونومه .

وبهذا يكون لفظ مستيقظ الذى يقابل لفظ راقد متعين هنا ، وأن المتنبى قد غلب على أمره وأخل بكمال النظم وجماله حين لم يستطع أن يأتى به .

ومهما قيل فى أن لفظة قادر فيها معنى مستيقظ وزيادة ، فإنها لا يمكن أن تقع موقعها من الحسن ؛ لأن الحسن لا يتعلق بالمعنى فقط وخاصة فى الصياغات الشعرية ، فمستيقظ هنا متعينة بلاغيا ولا تقوم مقامها لفظة قادر وإن كانت أشمل ، ولا يزال بيت المتنبى ينادى على نفسه بالنقص مهما تمحلوا له من المعاذير واخترعوا له من الحلى .

نعم إن كلمة قادر تكون غاية فى معناها ومكتفية بنفسها لو لم تذكر إزاءها كلمة الراقد ، فكان المعنى ينصرف على أنه يريد أن يصف نفسه بالعفة مع القدرة كما يقال : حليم مع القدرة مثلا دون التعرض للوصف بالعفة فى المنام الذى استدعى مطابقا له وهو الوصف بالعفة فى الاستيقاظ .

الفصل العشرون

الجناس والترديد

الترديد في اللغة : تفعيل من قولهم : ردّد الثوب من جانب إلى جانب ، وردد الحديث ترديدا : أي كرره .

وفي اصطلاح البلاغة عرفه ابن رشيق بقوله : أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يرددها بعينها متعلقـــة بمعنى آخر في البيت نفسه أو في قسيم منه[1] .

ومعنى هذا أن الترديد مقصور عنده على الشعر ، وقد تقيد بتعريفه فلم يمثل له من غير الشعر كذلك .

وعرفه الحموي بنحو ذلك وهو : أن يعلق الشاعر لفظة في بيت واحد ، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر .

ولكنه مما يضحك أنه مثل له بعد ذلك مباشرة بقوله — تعالى — : « لا يَستوي أصحابُ النار وأصحابُ الجنة أصحابُ الجنة هم الفائزون[2] » .

ثم أتبع ذلك بإيراد أمثلة شعرية له .

ويؤخذ من تعريفه له : أنه خاص بالشعر ، ويؤخذ من تمثيله له بالنثر والشعر أنه يشملهما معاً .

وهذا تناقض نجده كثيرا في مناهج البلغاء القدامى .

وقد جاء تعريف العلوي شاملا للنثر والنظم ، وهو : أن تُعلق اللفظة بمعنى من المعاني ، ثم ترددها بعينها وتعلقها بمعنى آخر[3] .

(١) العمدة — ٢ ص — ٢   (٢) خزانة الأدب — ٢٠٤
(٣) الطراز — ٢ — ٨٢

ولم ينظمه العميان فى بديعيتهم ، ونظمه صفى الدين الحلى وعز الدين الموصلى وتقى الدين الحموى .

فقال الأول :

له السلام من الله السلامِ وفى ... دار السلام تراه شافع الأمم

وقال الثانى :

له الجميل من الرب الجميلِ على م ... الوجه الجميل بترديد من النعم

وقال الثالث :

أبدى البديعُ له الوصفَ البديع وفى ... نظم البديع حَلا ترديده بفمى

ولم ينس الحموى عادته فى الزهو بما ينظم فقال : إن حلاوة الترديد بالفم — أى لبيته المتقدم — أحلى من قول الشيخ عز الدين : بترديد من النعم وأحسن موقعا لكونها فى القافية .

ونحب أن نسلم له فى هذه المرة بهذه الحلاوة !

والمردد قد يكون جملة أو اسما أو حرفا ، وأقله أن تكرر الكلمة مرتين .

ولم يذكره ابن الأثير إلا عرضا فى بعض المواضع كما سيأتى ، فقد عقد للتكرار بابا وساق فيه أمثالا بعضها يصلح للترديد وبعضها للتكرير ، وبعضها لهما جميعا (1) .

وقد يقع الترديد فى مصراع واحد كقول أبى نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسَّها حجر مسته سراء

فالمس الأول مضاف إلى الحجر ، والثانى مضاف إلى السراء .

وقول آخر : ليس بما ليس به باس ، ولا يضر المرء ما قال الناس .

ولا يضر الاختلاف اليسير بين اللفظين كقول الحسين بن الضحاك الخليع :

لقد ملأت عينى بغر محاسن ... ملأن فؤادى لوعة وهموما

---

(1) المثل السائر — ٢٨٢ ... (٢) العمدة — ٢ — ٣

وقول الجحاف بن حكيم أو العباس بن مرداس السلمى :

نعرض للسيوف بكل ثغر وجوها لا تعرض للّطام

وقول أبي تمام :

راحٌ إذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق فى الأحشاء

لتقارب الألفاظ : ملأت وملأن ، ونعرض وتعرض ، ومطيها ومطايا .

وحمل قوم قول امرىء القيس :

فثوبا لبست وثوبا أجر

على أنه تكرار لاترديد فيه .

وهذا هو الخطأ المبين ! وأى ترديد أحسن من هذا وقد أفاد الثانى غير إفادة الأول حسبما شرطوا .

ويدخل عند ابن رشيق فى الترديد قول ابن العميد[1] — وقد عده من أملح ماسمع فى هذا الباب — :

فإن كان مسخوطا فقل شعر كاتب وإن كان مرضيا فقل شعر كاتب

إذ كان قوله — عند السخط « شعر كاتب » — معناه : التقصير به وبسط العذر له لأن الشعر ليس من صناعته ، كما حكى ابن النحاس : أنهم يقولون : نحو كُتّابى إذا لم يكن مجودا .

وقوله — عند الرضا « شعر كاتب » — معناه : التعظيم له وبلوغ النهاية فى الظرف والملاحة لمعرفة الكتاب باختيار الألفاظ وطرق البلاغات .

فقد ضادّ وطابق فى المعنى وإن كان اللفظ تجنيسا مرددا[2] .

وقد ورد الترديد فى شعر الأقدمين ولكنه فى شعر المحدثين كثير مستفيض .

فمن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

من يَلق يوما على عِلاته هرِما يلق السماحة منه والندى خلقا

---

(١) الصحيح : أنه لابنه أبي الفتح .

(٢) العمدة — ٢ — ٤

فعلق يلق بهرم ثم علقها بالسماحة .

وقوله :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلَّم

« الترديد فى « أسباب » .

وقول أبي تمام :

خفّت دموعك فى إثْر القطين لدن

خفت من الكثب (١) القضبانُ والكثُب

الترديد فى « خفت » .

وقول ابن المعتز :

أتعذلني في يوسف وهو من ترى ويوسف أضناني ويوسف يوسف

الترديد فى « يوسف » .

وقول بعض الأعراب فى مدح الرشيد :

جهير الكلام جهير الرواء جهير العُطاس جهير النغم

الترديد فى « جهير » .

وقول بعض الحجازيين :

ومن لامني فيه حبيب وصاحب فرد بغيظ صاحب وحميم

الترديد فى « حبيب » و « صاحب » .

وقول المتنبي — وهو معدود من إحسانه — :

أمير أمير عليه الندى جواد بخيل بألا يجودا

الترديد فى « أمير » .

وقول الصنوبرى :

أنت عذرى إذا رأوك ولكن كيف عذرى إذا رأوك تخون

الترديد فى « رأوك » .

---

(١) الكثب بفتح الكاف والباء : موضع بديار طيء .

والعلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبي حية النميرى وتسليم فضيلة هذا الباب له في قوله :

ألا حى من أجل الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن اللياليا
إذا ما تقاضى المرء يوما وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

والترديد الذى انفرد فيه بالإحسان عندهم قوله : لبسن البلى . . .

وقوله : تقاضى المرء . . .

وقوله : تقاضاه شيء . . .

لأن الهاء في تقاضاه كناية عن المرء وإن اختلف اللفظ[1] .

وقد اختلف في عدد الترديد من التجنيس ؛ فابن رشيق يصرح : بأنه منه ، وذلك حيث يقول : الترديد : نوع من المجانسة[2] .

وقد تقدم قوله في البيت السابق :

فإن كان مسخوطا فقل شعر كاتب . . .

ضاد وطابق في المعنى وإن كان اللفظ تجنيسا مرددا .

وكذلك عده القاضي الجرجاني تجنيسا ؛ فقد قال في البيت المذكور : إنه مما تجانس به المفرد بالمضاف[3] .

ولم يعده ابن الأثير من التجنيس فقال : وربما جهل بعض الناس فأدخل في التجنيس ما ليس منه نظرا إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى ، فمن ذلك قول أبي تمام :

أظن الدمع في خدى سيبقى رسوماً من بكائى في الرسوم

وهذا ليس من التجنيس في شيء ؛ إذ حد التجنيس هو : اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه ليعرف .

ثم يقول : ومن علماء البيان من جعل له اسما سماه به وهو : الترديد :

---

(١) العمدة — ٢ — ٣ (٢) المصدر السابق — ١ — ٢٢٢
(٣) الوساطة — ٤٢

أى إن اللفظة الواحدة رددت فيه ، وحيث نبهت عليه هنا فلا احتياج أن أعقد له باباً أفرده بالذكر فيه[1] .

فابن الأثير يرى أن هذا البيت ليس من التجنيس قطعا ، وأن بعض علماء البيان أطلقوا على مثله اسم الترديد .

فالترديد عنده ليس من الجناس .

قيمة الترديد .

اختلف العلماء فى قيمة الترديد كما اختلفوا فى عده من الجناس :

فابن رشيق يسلك جادة الاعتدال ؛ فيحمد منه ما يصح أن يحمد لاتصافه بسمات من الحسن تضفى عليه ضربا من الأناقة والخلابة ؛ فهو لا يخفى استحسانه لبيت المتنبى :

أمير أمير عليه الندى . . .

واستملاحه لبيت أبى الفتح بن العميد :

فإن كان مسخوطاً فقل شعر كاتب . . .

وينقل إجماع النقاد على تفضيل بيتى أبى حية النميرى :

ألا حى من أجل الحبيب المغانيا . . .

إذا ما تقاضى المرء يوم وليـــلة . . .

وقد تقدمت هذه الأبيات :

والعلوى يمدحه بلا قيد ولا شرط ؛ فيرى أن الكلام به يحسن وصفه ويعجب تأليفه ، ويجعله متناسبا مفيدا لفائدة جديدة[2] .

وابن حجة ينزل به إلى أسفل الدركات كما ينزل بأخيه التكرار ، ثم يذكر : أن ابن أبى الأصبع يورد فرقا بين الترديد والتكرار فيه بعض إشراق ، وهو : أن اللفظة التى تكرر فى البيت ولا تفيد معنى زائدا بل تكون الثانية عين الأولى هى التكرار ، واللفظة التى يرددها الناظم فى بيته وتفيد معنى غير المعنى الأول هى : الترديد .

---

(١) المثل السائر — ١٠١ (٢) الطراز — ٣ — ٨٣

ثم يقول : وعلى هذا القول صار للترديد بعض مزية يتميز بها على التكرار ويتحلى بشعارها[1] .

وأحسب أن الحموى لم يفهم المراد من قول ابن أبي الإصبع بالدقة ، فهو لا يريد أن اللفظ المردد يفيد بترديده معنى ذاتيا يؤخذ من نفس اللفظ ، وإنما يريد أن اللفظ المردد يفيد بترديده معنى آخر من حيث تعلقه بشيء غير ماتعلق به الأول كقول المجنون مثلا :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها   فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

فتعلق الفعل ابتلانى مختلف فى البيت .

وأما التكرار فإنه لا يفيد معنى ثانيا من حيث إنه لم يتعلق بشيء جديد كقول القائل :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها   أخذت على مواثقا وعهودا

فلا الثانية عين الأولى ومتعلقهما واحد ، فلم تفد معنى جديدا من هذه الناحية وكل ماهنالك أنها زادت الكلام توكيدا ومبالغة ، فالفرق بينهما إذن أن الترديد يتكرر فيه المتعلق فيتغير المعنى .

ولو حمل رأى ابن أبي الإصبع على ما فهمه الحموى ، لكان التكرار بجميع أنواعه لغو وحشو وفضول وتطويل ؛ إذ أى فائدة فى لفظ يتكرر بدون فائدة على الإطلاق ، ومثل هذا لا يقول به ابن أبي الإصبع .

ومهما يكن فالترديد ككل لون من ألوان الكلام منه الحسن ومنه القبيح بحكم خضوعه لمعايير النقد .

والحكم فى هذا مرده إلى المتكلف منه والمطبوع ، وما يحتاج إليه الكلام وما هو مستغن عنه .

وقد تقدمت أمثال للنوع المحمود منه .

أما النوع المستقبح فنحو قول أبي تمام :

رضيت وهل أرضى إذا كان مسخطى   من الأمر ما فيه رضا من له الأمر

---

(١) خزانة الأدب — ٢٠٤

وقوله :

خان الصفاءَ أخ خان الزمان له ... أخا فلم يتخوَّن جسمَه الكمد

لأن ألفاظ هذا الشعر يتشبث بعضها ببعض ، وتدخل الكلمة من أجل كلمة أخرى تجانسها وتشبهها مثل خان ويخون ويتخون وأخ واخ فهذه حقيقة المعاظلة[1] .

وقوله :

يا يوم شرَّد يومَ لهوي لهوُه ... بصبابتي وأذل عز تجلدي

فهو شديد التعاظل كأنه سلسلة محكمة الحلقات من التنافر والثقل .

وهذا النوع كثير في شعر أبي تمام ، وجاء المتنبي فجاوز الحد في الإكثار منه ، حتى ليندر أن تخلو له قصيدة من هذا العبث !

وفيه يقول ابن رشيق[2] : وسمع أبو الطيب باستحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مقَّته وزهَّد فيه ولو لم يكن إلا بقوله :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا ... قلاقلَ عيس كلهن قلاقل

فهذه الألفاظ كما قال : كلهن قلاقل !

ونحو ذلك قوله :

أسد فرائسها الأسود يقودها ... أسد تصير له الأسود ثعالبا

فما أدري كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة أسودا ولا أقول إنه : بيت شعر !

وأين يقع هذا من قول غيره :

فصبح الوصال وليل الشباب ... وصبح المشيب وليل الصدود

(١) سر الفصاحة — ١٥١ (٢) العمدة: — ٢ — ٤

الفصل الحادي والعشرون

الجناس والتعطف

التعطف: أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف[1]

سمي بذلك لأن صانعه يتعطف فيه على الكلمة فيكررها مرتين، ومنه تعطّف الناقة على ولدها، إذا كانت ترضعه مرة بعد أخرى[2].

وقد مثلوا له بقول امرئ القيس، وهو أول من ابتدأه فيما قالوا:

ألا إنني بال على جمل بال يسوق بنا بال ويتبعنا بال

وقد لاحظ العسكري: أن هذا المثال لايجرى على الأصل الذى أصّلوه؛ لأن الألفاظ المكررة فى هذا البيت على معنى واحد يجمعها البلى فلا اختلاف بينها، وإنما صار كل واحد منها صفة لشيء فاختلفت لهذه الجهة لا من جهة اختلافها فى معانيها[3].

والمثال الذى ينطبق على التعريف قول الشماخ:

كادت تساقطنى والرحلَ أن نطقت حمامةٌ فدعت ساقا على ساق

الساق الأول: ذكر القمارى، واسمه: ساق حُرّ؛ لأن حكاية صوته ساق حر.

أو الساق: الحمام، والحر: فرخها.

والساق الآخر: ساق الشجرة.

ومثله: ما أنشده سيبويه:

أنيخت فألقتْ بلدة فوق بلدة قليل بها الأصوات إلا بُغامها

(١) الصناعتين — ٤٠٧ (٢) الطراز — ٣ — ٨٢

(٣) الصناعتين — ٤٠٧

البلدة الأولى : صدر الناقة ، والثانية : المكان من الأرض .

وما أنشده ثعلب :

وثنيَّة جاورتها بثنيــــة حَرْف يعارضها ثنيٌّ أدهم

الثنية الأولى : عقبة ، والثانية : ناقة ، والثنى الأدهم : الظل ، وقد استعار له هذا الاسم .

وما أنشده أبو عمرو بن العلاء :

عَوْد على عود على عود خلَق

العود الأول : الشيخ ، والثانى : الجمل المسن ، والثالث : الطريق القويم قد ذال بكثرة الوطء عليه[1] .

ومما يدخل فى التعطف : ما أنشده ثعلب :

أتعرف أطلالا شجونك بالخال وعيش زمان كان فى العصُر الخالى

الخال الأول : اسم موضع .

ليالىَ ريعانُ الشباب مسلَّط علىّ بعصيان الإمارة والخـالى

الخال : القائم على الشىء من قولهم : فلان خالُ مال ، إذا كان يقوم به ويصلحه .

والمعنى : أنه يعصى أمر من يلى أمره ، وأمر من ينصح له ليصلح حاله .

والخال أيضا : اللواء الذى يعقد للأمير ، وقيده بعضهم بالأبيض وهو مناسب للإمارة .

وإذ أنا خِدن للغوى أخى الصبا وللمرح الذيّـال واللهو والخـالى

الخال : من الخيلاء وهو الكبر .

إذا سكنت رَبعا رئمت رباعَها كما رئم الميثاءَ ذو الريبة الخـالى

رئمه : عطف عليه ولزمه من رئمت الناقة ولدها ، والميثاء : الأرض السهلة اللينة ، والخالى : الذى لا أهل له .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٢١

ويقتادني ظبي رخيم دلالُه كما اقتاد مهرا حين يألفه الخالى

الخالى : الذى يقطع الخلا وهو النبات الرطب .

ليالىَ سلمى تستبيك بدَلها وبالمنظر الفتان والجيد والخالى

الخال : الشامة فى الخد والبدن .

وقد علمتْ أنى وإن ملت للصبا إذا القوم كعُّوا لست بالرعش الخالى

كع : ضعف وجبن ، والخالى : الذى لا أصحاب له يعاونونه .

ولا أرتدى إلا المروءة حلة إذا ضن بعض القوم بالعَصْب والخالى

العصب والخال : ضرب من البرود .

وإن أنا أبصرت المحول ببلدة تنكَّبتها واشتمت خالا إلى خالى

اشتام : نظر البرق أين يقصد وأين يمطر ، والخال : السحابة المخيلة للمطر .

مخالق بُخالْقى كل حر مهذب وإلا فصارمه وخال إذاً خالى

خال : فعل أمر من المخالاة وهى قطع الحلف .

فإنى حليف للسماحة والندى إذا اختلفت عبس وذبيان بالخالى

الخال : اسم موضع .

ومما روى للخليل بن أحمد(١) :

ياويح قلبى من دواعى الهوى إذْ رحل الجيران عند الغُروب

أتبعتهم طرفى وقد أزمعوا ودمع عينىّ كفيض الغُروب

بانوا وفيهم طفلة حرة تفتر عن مثل أقاحى الغُروب

الغروب الأول : غروب الشمس ، والثانى : جمع غرب كفهد وهو الدلو العظيمة المملوءة ، والثالث : الوهاد المنخفضة جمع غرب كفهد أيضا ، والطفلة بفتح الطاء : الرخصة الناعمة .

ومما أنشده الليث(٢) :

بانت سليمى فالفؤاد آسى أشكو كلوما ما لهن آسى

(١) المزهر — ١ — ٢٢٢ (٢) المواهب الفتحية — ١ — ١٤٦

من أجل حوراء كغصن الآسى   ريقتها كشـــل طعم الآسى
وما استأست بعدها من آسى   ويلى فإنى لاحـــق بالآسى

الآسى الأول : الحزين ، والثانى : الطبيب ، والثالث : شجر ، والرابع : العسل ، والخامس : الصاحب ، والسادس : القبر أو الصاحب .

واستآس : استعاض .

وقول الأصمعى يعظ الرشيد ويذكره — وقد سأله ذلك — :

فلا تعجل على أحـــد بظلم   فإنـــ الظلم مرتعه وخيم
ولا تَفْحش وإن مُلِّئت غيظاً   على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخاً لك عند ذنب   فإن الذنب يغفره الكريم
ولا تجزع لريب الدهر واصبر   فإن الصـــبر آخره عظيم

وقول دعبل فى الفضل بن مروان :

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل   وقلت فسيَّرت المقالة فى الفضل
ألا إن فى الفضل بن سهل لعِبرة   إذا اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل فى الفضل بن يحيى مواعظ   إذا فكر الفضل بن مروان فى الفضل
فأبق جميلا من حديث تفز به   ولا تدع الإحسان والأخذ بالفضل (١)
فإنك قد أصبحت للملك قيِّما   وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
ولم أر أبياتاً من الشعر قبلها   جميع قوافيها على الفضل والفضل
وليس لها عيب إذا هى أنشدت   سوى أن نصحى الفضل كان من الفضل (٢)

ومع ما فى هذه القطعة من كثرة التكرار فى اللفظ والمعنى ، فإن ما تضمنته من روح الدعابة والفكاهة درأ عنها الثقل وصيرها عذبة سائغة .

وقول آخر :

يا طِيبَ نعمة أيام لنا سلفت   وحسنَ لذة أيام الصبا عودى
أيام أسحب ذيلى فى بَطالتها   إذا ترنم صوت الناى والعود
وقهوة من سلاف الخمر صافية   كالمسك والعنبر الهندىّ والعود

---

(١) بالفضل : بالتفضل .   (٢) من الفضل : الفضول والتطفل .

تسُلُّ عقلك في لين وفي لطف
إذا جرت منك مجرى الماء في العود[1]

ومن لطائف الثعالبي : ليست البلابل ، كخمر بل على غناء البلابل .
البلابل الأولى : الهموم والوساوس .

وعدوا منه قوله — تعالى — : « ويوم تقوم الساعةُ يُقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة » .

ويقول العسكري : إنه لم يجد منه شيئاً في القرآن الكريم غير هذه الآية [2] .

وقد سلف أن هذه الآية من شواهد الجناس التام .

والناظر في أكثر الأمثلة المتقدمة لايكاد يرى فرقاً بينه وبين الجناس التام إلا أنه لا يشترط في التعطف أن تكون الكلمة الثانية مخالفة في معناها للأولى .

أما الحموي فالتعطف عنده شبيه بالترديد المتقدم في إعادة اللفظة بعينها في البيت الشعري ، غير أن التعطف مشروط بأن تكون إحدى كلمتيه في مصراع والأخرى في مصراع آخر .

وقد مثل له بقول المتنبي :

فساق إليَّ العُرْفَ غير مكدَّر وسقت إليه المدح غيرَ مذمَّم

وتابعه على ذلك العلوي فقال في تعريفه : هو أن يأتي المتكلم بلفظ في صدر البيت ، ثم يأتي في العجز به أو بشيء من مشتقاته[3] .

ثم إن الترديد يقع عند العلوي في النثر أيضاً كقوله — تعالى — : « لايستوي أصحابُ النار وأصحاب الجنة ، أصحابُ الجنة هم الفائزون » .

وعلى هذا يكون الفرق بين الترديد والتعطف عند الحموي : أن الترديد

---

(١) اللطف بفتحتين : الرفق. (٢) الصناعتين — ٤١٠ .
(٣) الطراز — ٣ — ٨٢ .

يقع فى النثر والشعر ، وأن التعطف يقع فى الشعر فقط ، ثم لابد أن يجىء فى مصراعين .

ويفرق بين التعطف عند العسكرى والحموى : بأن التعطف عند الأول يقع فى النثر والشعر بلا شرط ولا قيد ، وعند الثانى يقع فى الشعر مع مجىء كل كلمة منه فى مصراع على حدة .

وبهذين القيدين اللذين قيد بهما الحموى التعطف يتميز من الجناس التام ومن الترديد ، وتتضح له شخصية مستقلة .

وفى التعطف يقول الحموى : إنه ليس تحته كبير أمر وأن البديع أعلى من هذه الأنواع السافلة ، وأن القوم كلما طلبوا الكثرة تغالوا فى الرخص[1] .

ولا يخفى ما فى نظرة الحموى من المغالاة ، ولكن نوافقه على أن علماء البلاغة أسرفوا فى تشقيق هذه الأنواع واختراع الأسماء لها ، فهذه الفنون الثلاثة : التكرير والترديد والتعطف يمكن إدخالها تحت اسم واحد من هذه الأسماء ، ولا سيما أنّ اللغة تساعد على ذلك .

ومما يعد من التعطف من الشعر الحديث قول البارودى[2] :

وشـــامخ فى ذُرا شمَّاء باذخة	لا يعرف الصدق إن وا لى وإن عادا
يعوده النـاس إن مرّ النسيم به	ولا يعود من الإشفاق إن عادا
لا يهدأ الدهرَ من ظلم يحـاوله	فإن قضى وطراً من غَـدرة عادا
يسطو بهذا ويرمى ذاك عن عُرُض	كطارد يقتنى صيدين إذ عادا[3]
أباده الدهر رغماً بين أسرته	كما أباد بريح صرصر عادا
فاعرف إلهك واحذر أن تبيت على	وزْر ولا تتخذ ظلم الورى عادا

عادا الأول : خاصم ، والثانى : زيارة المريض ، والثالث : رجع ، والرابع : تابع بين الصيدين يصرع أحدهما على إثر الآخر فى طلق واحد ، والخامس : عاد قبيلة هود عليه السلام ، والسادس : جمع عادة .

---

(١) خزانة الأدب — ٥٠٩ .　　(٥) ديوانه — ١ — ١١٨ (الطبعة الأهلية) .

(٣) عن عرض بضم فسكون وحركت الراء للضرورة : أى عن شق وناحيـة كيفما اتفق لايبالى بمن رمى .

الفصل الثانى والعشرون

الجناس والمشاكلة

المشاكلة لغة : المماثلة ، وفى اصطلاح بعض البلغاء : ذكر الشيء بلفظ مصاحبه لوقوعه فى صحبته .

أو تبديل اللفظ المستعمل فى المعنى بلفظ لايستعمل فى ذلك المعنى لمناسبة معتبرة هناك .

والتعريف المشهور : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته — أى فى صحبة ذلك الغير — تحقيقاً أو تقديراً ؛ لأن المقدر معلوم والمعلوم كالمذكور .

مثال الصحبة التحقيقية قوله — تعالى — : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

فجزاء السيئة فى الحقيقة غير سيئة ، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة مثلها ، إذ الجزاء لايوصف بأنه سيئة ، لأنه حق ولكن أطلق عليه سيئة مشاكلة .

وقيل : سمى بذلك لأنه يسوء من ينزل به ، فعلى هذا لايكون مشاكلة[1] .

وكذا قوله — تعالى — : « ومكروا ومكر الله » .

والأصل : أخذهم بمكرهم ؛ فإن المكر من حيث أنه فى الحقيقة حيلة يجلب بها مضرة إلى الغير لايجوز إسنادها إلى الله إلا على سبيل المشاكلة .

وقوله — تعالى — : تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » .

والأصل : تعلم مافى نفسى ولا أعلم ماعندك ، أولا أعلم مافى ذاتك .

وعبارة الزمخشرى : تعلم معلومى ولا أعلم معلومك .

---

(١) المرشدى — ٢ — ٧٩

فإن الله — سبحانه — لا يستعمل فى حقه لفظ النفس ؛ فإطلاق النفس على ذاته لا يصح إلا المشاكلة لوقوعه فى صحبة من له النفس حقيقة مع ذكرها لفظاً .

ويرى بعضهم[1] : أنه لا مشاكلة فى الآية ، لأنه يجوز إطلاق النفس على الذات من غير مشاكلة ، فاللفظ أطلق على معناه ، وفى القرآن الكريم : « ويحذركم الله نفسه » « كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

وفى الحديث : « أنت كما أثنيت على نفسك » .

ومن المشاكلة : الحديث « خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا » .

الأصل : فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا مسألته ، فوضع لا يمل موضع : لا يقطع الثواب على جهة المشاكلة .

ومن الشعر قول عمرو بن كلثوم :

ألا يجهلن أحـــد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أى فنجازيه على جهله .

فوضع لفظة نجهل موضع نجازى .

وقول أبى الرَّقَعْمق — وقد تلطف ماشاء — :

إخواننا قصدوا الصبوح بسُحرة ... فأتى رسولهم إلى خصوصـــا

قالوا اقترح شيئا نُجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لى جبـة وقميصا

أراد : خيطوا لى ، فذكره بلفظ : اطبخوا لوقوعه فى صحبة طبخه .

وقول ابن جابر الأندلسى :

قالوا اتخذ دهنا لقلبك يشفه ... قلت ادهنوه بخده المتورد

ومثال الصحبة التقديرية قوله — تعالى — : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » إلى قوله : « صبغة الله » .

---

(٢) حاشية الدسوقى — ٤ — ٣١٢

فصبغة مصدر مؤكد منصوب بعامل محذوف وجوباً دل عليه قوله :
« آمنا بالله » تقديره : صبغنا الله بالإيمان صبغة : أى طهرنا تطهيرا .

والسر فى ذلك التطهير بلفظ الصبغ : أن النصارى يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه : « المعمودية » ويقولون : هو تطهير لهم .

فعبر عن الإيمان بالله بصبغة الله للمشاكلة وإن لم يذكر لفظ الصبغ فى كلام الله — تعالى — ولا كلام النصارى ، لأن قرينة الحال من غمس النصارى أولادهم فى الماء الأصفر — وهى سبب نزول الآية — دلت على ذلك حتى كأن لفظ الصبغ مذكور .

والغالب تأخير اللفظ الذى تقع به المشاكلة عما يشاكله كما سبق فى الأمثلة ، وقد يتقدم .

ومثاله من القسم التحقيقى قوله — تعالى — : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

أى فعاقبوه .

ومثاله من القسم التقديرى قول أبى تمام :

من مبلغٌ أفناء يعرب كلهم ... أنى بنيت الجار قبل المنزل[1]

التقدير : قبل بناء المنزل .

صلة المشاكلة بالجناس .

تقرر فيما تقدم : أن هذا النوع — أعنى المشاكلة اللفظية — : أن يأتى المتكلم فى كلامه باسم من الأسماء المشتركة فى موضعين ، فتشاكل إحدى المشاكلتين اللفظيتين الأخرى فى الخط واللفظ ومفهومهما مختلف .

ومن إنشاد التبريزى فى هذا الباب قول أبى سعيد المخزومى :

حدق لآجال آجال ... والهوى للمرء قتال

فالآجال الأولى : أسراب البقر الوحشية جمع إجل بالكسر ، والأخرى : جمع أجل وهو منتهى الأعمار ، وبينهما مشاكلة فى اللفظ والخط .

(1) الأفناء : الجماعات جمع فنء بفتح فسكون .

ويعلق الحموى على هذا البيت : بأنه من أحسن الشواهد على الجناس التام ، ولو اعتمد البديعيون على المشاكلة المعنوية لخلصوا من هذا الاعتراض .

وقد عد ابن الإصبع هذا الشاهد ، وأمثاله من باب التجنيس[1] .

وذكره الخطيب أيضاً من شواهد الجناس التام[2] .

ولم ينكر المغربى صلة الجناس بالمشاكلة فنراه يقول : وتسمية المشاكلة — سواء أكانت تحقيقية أم تقديرية — بديعاً معنوياً ، بالنظر إلى أن لها تعلقاً بالمعنى المصاحب ، إذ هى ذكر ذلك المعنى بلفظ غيره للصحبة بين المعنيين فتلزم الصحبة بين اللفظين ، والقصد بالذات إلى تحسين المعنى المصاحب بالتعبير عنه بما يشاكل التعبير عن الآخر

ويقول : وتناسب الطباق ومراعاة النظير من جهة أن فى كل مقابلة شىء شيئا فى الجملة .

ثم يقول : ومن ينظر إلى أن حاصلها إتيان لفظ مشاكل لآخر مع اختلاف معناهما يبحث بأنها لفظية كالجناس بين اللفظين .

والتحقيق : أن للمعنى وخلافها ، إذ لولا مصاحبة المعنى للمعنى وقصد تحسينه لم تتصور[3] .

ويقول المرشدى : واعترض على إيرادهم المشاكلة فى القسم المعنوى : بأنها تتعلق باللفظ ، فكان الأليق ذكرها فى القسم اللفظى .

وأجيب : بأنها إنما صوحبت مع المطابقة والمقابلة للمشاكلة : أى فى وزن الاسم « مفاعلة » .

والأوضح : أن يقال : إنما أوردها هنا لأن الملحوظ فيها أولا وبالذات جانب المعنى[4] .

وعند ما تكلم ابن رشيق على المضارعة فى « باب التجنيس » قال : أصلها : أن تتقارب الحروف وفى كلام العرب منه كثير .

وقد مثل لها بقوله تعالى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » .

---

(١) خزانة الأدب — ٤٢٥ — ٤٢٦ (٢) الإيضاح — ٢٧٢

(٣) مواهب الفتاح — ٣ — ٣١٦ (٤) شرح المرشدى — ٢ — ٧٩

وبالحديث : «نعوذ بالله من الأيمة والعيمة والغيمة والكزم والقرم»[1].

ثم عقب على ذلك بقوله : وهذا يسميه الرماني : المشاكلة .

وهي عنده ضروب هذا أحدها وهي المشاكلة في اللفظ خاصة [2] .

من هذا كله نرى قوة القرابة بين المشاكلة والجناس حتى عد بعض شواهدها من شواهد الجناس .

كما نرى وجاهة رأي من يذكرها في المحسنات اللفظية .

وقد عدها بالفعل المولى عصام الدين محسنا لفظيا ، وفرق بينها وبين الجناس بشيئين :

أحدهما : أن اللفظ في المشاكلة سوَّغ ذكرَه بلفظ غيره وقوعُه في صحبة ذلك الغير ، بخلاف الجناس فلا اعتبار لهذه الصحبة فيه .

والآخر — وهو دقيق جداً — أن المشاكلة إرادة لفظ بدل لفظ آخر في الاستعمال ، أما التجنيس فيئول إلى ترجيح لفظ على لفظ آخر المناسبة لا لتبديله بالآخر كما في المشاكلة[3] .

---

(١) الأيمة الخلو من النساء ، والعيمة : شهوة اللبن ، والغيمة : العطش ، والكزم : شدة الأكل والبخل : والقرم : شهوة اللبن .

(٢) العمدة ١ — ٢٢٤ (٣) شرح الفوائد الغيائية — ٢٧٣

الفصل الثالث والعشرون

الجناس وردّ الصدر على العجز

سمى ابن المعتز رد العجز على الصدر : رد الأعجاز على ما تقدمها .

وسماه المتأخرون — ومنهم ابن رشيق — : التصدير [1] .

وسماه شعراء الفارسية : المطابق والمصدَّر [2].

والاسم «التصدير» أخف على المستمع وأليق بالمقام [3] .

وهو يقع فى النثر والنظم ، وإن كان موقعه فى الأخير أخطر وأجل .

وحدّه فى النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما فى أول الفقرة والآخر فى آخرها .

وبهذا القيد خرج «العكس» عند الجمهور نحو : عادات السادات، سادات العادات .

فإنه إنما وقع فيه أحد اللفظين فى أول سجعة والآخر فى آخر الأخرى [4] .

وحده فى الشعر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما فى آخر البيت ، والآخر فى صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره ، أو صدر المصراع الثانى .

والمراد بالمكررين : المتفقان لفظا ومعنى ، وبالمتجانسين : المتفقان فى اللفظ دون المعنى ، وبالملحقين بالمتجانسين : ما يشمل الاشتقاق وشبهه .

والأكثر أن تكون الكلمة التى فى العجز عين الكلمة التى فى الصدر كقول بعضهم [5] :

تمنت سليمى أن أموت صبابة ... وأهون شىء عندنا ما تمنَّت

ولكن أحسنه : ما كان [6] فيه اللفظ مشتركا حتى يخلو من التكرار :

---

(١) العمدة — ٢ — ٤ (٢) حدائق السحر — ١١٠

(٣) خزانة الأدب للحموى — ١٤٣ (٤) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٤

(٥) سماه الوطواط : أديب الترك . (٦) شرح الفوائد الغياثية — ٢٨١

بأن يكون اللفظان متجانسين أو ملحقين بالجناس — كما تقدم — وذلك لحصول الإفادة فى صورة الإعادة ، نحو قول الشاعر :

ذوائب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منا النفوس ذوائب

وهو عند الجمهور قسم من المحسنات اللفظية مستقل بنفسه

وعده بعضهم نوعا من الجناس ، قال ابن السبكى عند الكلام عليه : هو من أنواع التحسين اللفظية لا من الجناس كما توهم الخطيبى ، لتصريح السكاكى وكل من تكلم فى هذا العلم بعده بما قلناه [1] .

ويقول ابن الأثير : رأيت الغانمى قد ذكر فى كتابه بابا ، سماه : « الأعجاز على الصدور خارجا عن باب التجنيس ، وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذى نحن بصدد ذكره ههنا .

فمما أورده الغانمى من الأمثلة فى ذلك قول بعضهم :

ونشرى بجميل الصنع م ذكرا طيب النشر

ونفرى بسيوف الهند م من أسرف فى النفر [2]

ونجرى فى شرا الحمد م على شاكلة النجر

وقول بعضهم [3] فى الشيب :

يا بياضا أذرى دموعى حتى عاد منها سواد عينى بياضا

وكذلك قول البحترى :

وأغر فى الزمن البهيم محجل قد رحت منه على أغر محجل [4]

كالهيكل المبنى إلا أنه فى الحسن جاء كصورة فى هيكل

ثم يقول ابن الأثير : وليس الأخذ على الغانمى فى ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على من ينصب نفسه لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد أبوابه التى ذكرناها داخلا فى الآخر فيذهب عليه ذلك ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلق الصباح [5] .

ولا منافاة بين ما قاله الغانمى وما قاله ابن الأثير ؛ لأنه يصح اجتماع

---

(١) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٣ (٢) النفر : التفرق .
(٣) هو منصور بن الفرج . (٤) الأغر الأول : يوم من الأيام ، والآخر : الفرس .
(٥) المثل السائر — ١٠١

الجناس ورد العجز على الصدر فى كلام واحد كالذى تقدم ، ويسمى كل واحد منهما باسمه الذى يميزه بالنظر إليه من زاوية خاصة ، وتعريف رد العجز على الصدر يفيد ذلك ، فى قول الأرجانى مثلا :

دعانى من ملامكما دعانى ... فدا الشوق قبلكما دعانى

دعانى الأول بمعنى : اتركانى ، ودعانى الثانى بمعنى : نادانى

فهو جناس من هذه الناحية ، ورد عجز على صدر من ناحية أن المتجانس المذكور آخر البيت، هو بعينه من حيث الصورة فى صدر المصراع الأول .

والذى يعنينا أن غير واحد من البلغاء يراه نوعا من الجناس .

ويقول ابن حجة الحموى [1] : وقد جاء قدامة من التصدير بنوع آخر سماه : « التبديل » وهو : أن يصيّر المتكلم الأخير من كلامه أولا وبالعكس كقولهم : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك [2] .

وفيه يقول ابن أبى الإصبع : ولم أقف لهذا النوع على شاهد شعرى فقلت :

أصبر على خُلق من تصاحبه ... واصحب صبورا على أذى خُلقك

ويقول ابن الأثير أيضاً : وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب: التبديل . وذلك اسم مناسب لمسماه ، لأن مؤلف الكتاب يأتى بما كان مقدماً فى جزء كلامه الأول مؤخراً فى الثانى ، وبما كان مؤخراً فى الأول مقدماً فى الثانى .

ثم ساق المثال السابق ، اشكر لمن أنعم عليك ...

وقد سمى ابن الأثير التبديل : بالمعكوس ، وعده من المشبه بالتجنيس ووصفه بأن له حلاوة وعليه رونقاً [3] .

ونأخذ من هذا : أن العكس أو التبديل لا يعد من رد العجز عند الجمهور ويعد منه عند قدامة ، ويعد مشبها بالتجنيس عند ابن الأثير .

وقد تقدم : أن رد العجز يعد أيضاً جناساً عنده .

---

(١) خزانة الأدب — ١٤٤ ... (٢) قيل : إنه من كلام التوراة .

(٣) المثل السائر — ١٠٣

أمثلة التصدير النثرية .

مثال التصدير فى النثر من اللفظين المكررين قوله تعالى — : « وتخشى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه » .

فقد وقع تخشى فى أول الفقرة وآخرها .

ومثله : طلب ملكهم فسلب ما طلب ، ونهب ما لهم فوهب ما نهب .

الحياة ترك الحياة . القتل أنفى للقتل .

ولا يضر اتصال الآخر بالهاء ، لأن الضمير المتصل كالجزء من الفعل .

ومثاله من المتجانسين حديث الشيخين : « من غدا إلى المسجد أوراح ، أعد الله له فى الجنة نزُلا كلما غدا أو راح » .

وقولهم : كافر النعمة كالكافر . سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل .

دمعه يحتمل أن يكون دمع السائل أو دمع اللئيم ، وهو أبلغ فى الذم حيث لا يطيق السؤال .

نقل ذلك الدسوقى عن الأطول .

ولا ريبة أن هذا التخريج من التعسف والتكلف الممقوت ؛ لأن سؤال اللئيم لا يبكيه ، بل لعله يضحكه من السائل سخرية وهزؤا ا وهو غير مراد حتما للقائل وإنما مراده : أن سائل اللئيم يرجع بالخيبة المرة التى تسخن العين بالبكاء ، وفى مثله يقول الشاعر :

وأعذرُ من أدمى الجفون من البكا   كريم رأى الدنيا بكف لئيم

ويلاحظ أن هذا النوع بعينه هو التجنيس التام ولكنه اعتبر هنا من هذا الباب ، وهو أحسن من سابقه « المكرر » وأكثر منه صعوبة .

ومثاله من الملحق بالمتجانسين من جهة الاشتقاق ، قوله — تعالى — : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » .

لأن استغفر وغفار مادتهما المغفرة ، وهو ليس بجناس على الحقيقة عند الجمهور .

ولا يضر الاختلاف القليل من حيث الصنعة كقوله — تعالى — :
« ولقد استُهزِئ برُسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون » .

« ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتَكم[1] بعذاب وقد خاب مَن افترى » .

« انظر كيف فضَّلنا بعضَهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ درجات وأكبر تفضيلا » .

وكالحديث : « من مقت نفسَه آمنه الله من مقته » .

ومثاله من الملحق بالمتجانسين من جهة شبه الاشتقاق قوله — تعالى — :
« قال إنى لِعملكم من القالين » .

الأول : مشتق من القول ، والآخر مشتق من القلى ؛ وهو البغض والكره .

وقوله — سبحانه — : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرضَ ونأى بجانبه وإذا مسه الشرُّ فذو دعاء عريض » .

وقوله — عز وجل — : « فنادَى فى الظلمات أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَك إنى كنتُ من الظالمين » .

أمثلة التصدير الشعرية :

١ — المكرر ويأتى على أربعة أقسام :

أ — ما كان فيه المكرر الآخر فى صدر المصراع الأول كقول زهير :

السترُ دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخير من ستر

وقول طُفيل الغنَوى :

محارمَك امنعها من القوم إننى ... أرى رحقبة قد ضاع فيها المحارم

وقول عمرو بن أحمر :

تغمرتُ منها بعدما نفِد الصبا ... ولم يروَ من ذى حاجة من تغمرا

---

(١) أسحته : استأصله .

تغمر : شرب من الغمر كغمر وهو : القدح الصغير .
ضربه مثلا : أي تعللت منها بالشيء القليل ، وذلك لايبلغ ما في نفسي من المراد .

وقول الخليع الدمشقي :

سُكران سكر هوى وسكر مدامة   أنى يُفيق فتى به سكران

وقول ابن جابر الأندلسي :

غزال إنس يصيد أسدا   فاعجبْ لما يفعل الغزال
دلاله دَلّ كل شوق   عليـــه إذ زانه الدلال
قتـــاله لا يطاق لكن   يعجبنى ذلك القتـــال

وقول شوقي :

نَسطوى دجاه بجرح من فراقكم   يكاد في غلَس الأسحار يَطوينا

وهذا النوع أحسن أمثلة المكرر ، وقد سماه ابن أبي الإصبع : تصدير الطرفين .

ب – ما كان فيه المكرر الآخر في حشو المصراع الأول كقول زهير :

كذلك خِيمهم ولكل قوم   إذا مستهم الضراء خيم

وقوله :

له في الذاهبين أروم صدق   وكان لكل ذي حسب أروم

وقول الحطيئة :

إذا نزل الشتاء بأرض قوم   تجنب جار بيتهم الشتاء

وقول الصمة القشيري :

تمتع من شميم عَرار نجد   فما بعد العشية من عرار

وقول أبي تمام :

ولم يحفظ مُضاع المجد شيء   من الأشياء كالمال المضاع

وقول الوطواط :

لقد حاز أقسام الفضائل كلها   فأمسى وحيدا في فنون الفضائل

وقول آخر :

أما القبور فإنهن أوانس بجوار قبرك والديار قبور

وقول شوقي :

وأعلم أن دأبكم جفائي فما بالي جعلت الحب دابا

وقد سمى ابن أبي الاصبع هذا النوع : تصدير الحشو

جـ — ما كان فيه المكرر الآخر في آخر المصراع الأول كقول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يامربع

وقول أبي تمام :

ومن كان بالبيض الكواعب مغرما فما زلتَ بالبيض القواضب مغرما

وقوله :

إذا سيفه أضحى على الهام حاكما غدا العفو منه وهو في السيف حاكم

ومنه قول عنترة :

فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

وقول المخبل :

وينفَس فيما أورثتني أوائلي ويرغب عما أورثته أوائله

وقد سماه ابن أبي الإصبع : تصدير التقفية .

ء — ما كان فيه المكرر الآخر في صدر المصراع الثاني كقول ذي الرمة :

وإلا يكنْ إلا معرَّج ساعة قليلا فإني نافع لي قليلُها

٣ — المتجانس .

وهو أيضاً أربعة أقسام :

ا — ما كان فيه المجانس الآخر في صدر المصراع الأول كقول البحتري :

أنائل جاوزت الأحص وأهله وماجدت للصب المشوق بنائل

نائل : مرخم نائلة اسم محبوبته ، ونائل الثاني العطاء .

وقول السري الرفاء :

يسار من سجيتها المنايا ويُمنى من سجيتها اليسار

ب ــ ما كان فيه المجانس الآخر فى حشو المصراع الأول كقول الثعالبى :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

الأولى : جمع بلبل ، والثانية : جمع بلبال بالفتح وهى الهموم والوساوس ، والثالثة : جمع بُلبلة وهى كوز فيه قناة إلى جنب رأسه .

جـ ــ ما كان فيه المجانس الآخر فى آخر المصراع الأول كقول الحريرى :

فمشغوف بآيات المثانى ومفتون برنات المثانى

المثانى الأولى : القرآن الكريم لا الفاتحة ــ وإن كان من معانيها ــ كما ذهب صاحب الطراز ، والثانية : أوتار المزامير .

وقد جعلت المثانى فى الموضعين من التجانس لا من الاشتقاق مع اتفاقهما فى أصل المادة ؛ لأن الوصفية تنوسيت فيهما .

د ــ ما كان فيه المجانس الآخر فى صدر المصراع الثانى كقول الأرجانى :

أمّلتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح

٣ ــ الاشتقاق وهو أربعة أقسام :

ا ــ ما كان فيه المشتق الآخر فى صدر المصراع الأول كقول أبى نواس :

ظنّ بى من قد كلفت به فهو يجفونى على الظّنن

وقوله :

رقّتْ ورقت مَذقة من مائها والعيش بين رقيقتين رقيق(١)

وقول أبى تمام :

تجشمَ حمل العاديات وقلما أقيمت صدور المجد إلا تجشما

وقول آخر :

أصد بأيدى العيس عن قصد دارها وإنى إليها بالمودة قاصد

وقول بعض العصريين فى المعاهدة المصرية :

حذّرت قومى السم فى أضعافها لو كان ينفع قومىَ التحذير

(١) المذقة بالفتح : القطعة من الشيء المخلوط بغيره .

(ب) ما كان فيه المشتق الآخر فى حشو المصراع الأول كقول امرئ القيس :

إذا المرء لم يخزُن عليه لسانه   فليس على شيء سواه بخزّان

وقول أبي تمام :

دمن ألمّ بها فقال سلام   كم حلّ عقدة صبره الإلمام

وقول أبي فراس :

وما إن شبت من كبر ولكن   لقيت من الأحبة ما أشابا

(ج) ما كان فيه المشتق الآخر فى آخر المصراع الأول كقول ابن عيينة المهلبى :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى   أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

(د) ما كان فيه المشتق الآخر فى أول المصراع الثانى كقول أبي تمام :

وقد كانت البيض البواتر فى الوغى   بواترَ فهى الآن من بعده بتر

٤ — شبه الاشتقاق وهو أربعة أقسام :

(ا) ما كان فيه شبه المشتق الآخر فى صدر المصراع الأول كقول السرى الرفاء :

ضرائب أبدعتها فى السماح   فلسنا نرى لك فيها ضريبا

الضرائب : الطبائع جمع ضريبة ، والضريب : المثل .

وهو مأخوذ من قول البحترى :

بلونا ضرائب من قد نرى   فما إن رأينا لفتح ضريبا[1]

وقول الحريرى :

ولاح يلحى على جرى العنان إلى   ملهى فسحقا له من لائح لاحى

لاح : فعل ماض بمعنى ظهر وفاعله ضمير يعود على الشيب فى البيت قبله :
واللاحى : اللائم .

وقال صاحب الطراز : لاح بالشيء : إذا ذهب به .

وهو خطأ منه فى تفسير البيت .

(١) الفتح : هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل .

(ب) ما كان فيه شبه المشتق الآخر فى حشو المصراع الأول كقول أبى فراس :

منحناها الحرائب غـير أنا   إذا جارت منحناها الحرابا[1]

وقول الآخر :

إذا العزّاء حلت دار قوم   فليس تزول إلا بالعزاء[2]

وقول المعرى :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم   والعذب يهجر للإفراط فى الخصر[3]

وقد جاء فى الأطول عن هذا البيت : أنه مثال لما وقع فيه أحد الملحقين فى آخر البيت ، والآخر فى حشو المصراع الأول ، وإنما كان واقعا فى حشو المصراع ؛ لأنه تقدم عليه « لو » وأنت خبير بأن هذا غير جار على اصطلاح العروضيين فى الصدر والحشو والعجز ؛ فاصطلاح العروضيين : أن الصدر هو التفعيلة الأولى من المصراع ، والعجز لتفعيلة الأخيرة وما بينهما حشو ، ولو كانت تلك التفعيلة كلمة وبعض كلمة أو كلمتين .

وأما عند علماء البديع فالكلمة الأولى من المصراع صدر ، والأخيرة عجز وما بينهما حشو[4] .

(ج) ما كان فيه شبه المشتق الآخر فى آخـر المصراع الأول كقول الحريرى :

ومضطلع بتلخيص المعانى   ومطلع على تخليص عانى

مضطلع : مفتعل من قولهم : اضطلع بالأمر : إذا نهض به .

ومطلع من أطلع على الشيء : إذا أشرف عليه .

(د) ما كان فيه شبه المشتق الآخر فى صدر المصراع الثانى كقول الآخر :

لعمرى لقد كان الثريا مكانه   ثراء فأضحى الآن مثواه فى الثرى

ويلاحظ فى جميع ما تقدم : أن الكلمة التى تقع آخرا هى دائما عجز

---

(1) الحرائب : المطيات جمع حريبة . (2) العزاء بالتشديد : الشدة .

(3) الخصر محركة : البرد . (4) حاشية الدسوقى — ٤ — ٤٤٣

المصراع الثانى ، فإن لم تقع كذلك فليس معدوداً من هذا الباب كقول زياد الأعجم :

ونبئتهم يستنصرون بكاهل   ولِلؤم فيهم كاهل وسَنام

وقول الأفوه الأودى :

وأقطع الهوجل مستأنسا   بهوجل عيرانة عنتريس

فهذا ليس من رد العجز على الصدر وإن كان جناسا[1] .

ولكن العسكرى[2] عد من رد الأعجاز ما يقع فى حشو النصفين كقول النمر بن تولب :

يود الفتى طول السلامة والغنى   فكيف يرى طول السلامة يفعل

وقول الآخر :

رأت نضو أسفار أميمة واقفا   على نضو أسفار فجن جنونها

فلم يشترط أن يقع اللفظ الآخر عجز المصراع الثانى .

ويلاحظ : أن الخطيب لم يشر إلى ما يقع فيه « اللفظ الآخر » فى حشو المصراع الثانى ، والقسمة العقلية تقتضيه فيكون له صور أربع كما مر .

وقد ذكر ابن السبكى أنه جدير بالطرح لأنه إن عدم الفاصل بينهما فى إطلاق « رد العجز » عليه بعد .

وإن وجد فالمسافة بينهما قصيرة ، وقد يتعذر ذلك كما فى المنهوك أو المشطور أو المجزوء[3] .

وأيضا لا يصدق عليه الاسم ؛ لأنه لا صدارة لحشو المصراع الثانى بالنسبة لعجزه أصلا بخلاف الأول[4] .

ويقول شارح المفتاح : ما وجدت له نظيرا فى كلامهم .

وقد وجد له المرشدى نظيرا فى بيت الثعالبى المتقدم :

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها   فانف البلابل باحتساء بلابل

---

(١) المرشدى ٢ — ١٥٣   (٢) الصناعتين — ٣٧٧

(٣) عروس الأفراح — ٤ — ٤٣٥   (٤) حاشية الدسوقى — ٤ — ٤٣٥

فإنه يصلح أن يكون مثالا لهذا القسم بالنسبة إلى لفظ البلا بل الثانى مع الثالث(1)

وقد ذكر السكاكى(2) هذا القسم لأن تعريفه لرد العجز على الصدر يقتضيه ، وهو : أن يكون إحدى الكلمتين المتكررتين أو المتجانستين أو الملحقتين بالمتجانس فى آخر البيت ، والأخرى قبلها فى أحد المواضع الخمسة من البيت ، وهى صدر المصراع الأول وحشوه وآخره وصدر المصراع الثانى وحشوه كما إذا قلت :

مشتهر فى علمه وحلمه ... وزهده وعهده مشتهر

فى علمه مشتهر وحلمه ... وزهده وعهده مشتهر

فى علمه وحلمه وزهده ... مشتهر وعهده مشتهر

فى علمه وحلمه وزهده ... وعهده مشتهر مشتهر

فى هذه الأبيات جميع الصور التى تضمنها تعريفه ، وعلى هذا الاعتبار تبلغ صور رد الإعجاز على الصدور عشرين صورة .

والعجيب من السكاكى على فضله كيف يتكلف مثل هذا الشعر العجيب ليمثل لما ليس من الضروى أن يوجد فى رد الأعجاز ! كأن البلاغة مسائل حسابية وتقسيمات نظرية عقلية ! وفى هذا شرح لنظرة المتأخرين إلى البلاغة وكيف استحالت على أيديهم صناعة محضة لا صلة لها بمناهج الفطرة .

وقد قسم ابن المعتز التصدير إلى ثلاثة أقسام(3) :

١ — ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول مثل قول الشاعر :

يلفى إذا ما الأمر كان عرمرما ... فى جيش رأى لا يفل عرمرم

٢ — ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقول الأقيشر الأسدى :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعى الندى بسريع

---

(1) المرشدى على العقود — ٢ — ١٥٣ (2) المفتاح — ٢٢٨

(3) البديع — ٩٣

٣ — ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :

عميـــد بنى سُليم أقصدته سهام الموت وهى له سهام

وقد اعترض ابن أبي الإصبع على التعريف فى القسم الثالث فقال : إنه مدخول .

وأيده الحموى فى ذلك فقال : وقد صدق ابن أبي الإصبع ؛ فإن ابن المعتز قال : فى أى موضع كان : يريد قوله السابق : « بعض ما فيه »

والكلمة إذا كانت فى العجز لم تسم تصديرا ؛ لأن اشتقاق التصدير من صدر البيت فلا بد من زيادة قيد فى التعريف يسلم به من الدخَل بحيث يقول : بعض كلمات البيت فى أى موضع كانت من صدره[1] .

وهذا الرأى يطابق رأى السكاكى فضلا عن مطابقته رأى الخطيب .

أما ابن أبي الإصبع والحموى فمذهبهما : أن الرد لا يصح أن يتجاوز المصراع الأول تمشيا مع اسم « التصدير » .

ولم ينظم أصحاب البديعيات إلا من القسم الذى يوافق آخر كلمة فى أوله وهو القسم الثانى من أقسام ابن المعتز .

وقد قسم صاحب بديع القرآن رد العجز إلى قسمين :

١ — لفظى ؛ وهو ما سبق ذكره .

٢ — معنوى ؛ وهو ما رابطته معنوية كقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم » .

فإن معنى صدر الكلام يتقاضى معنى عجزه[2]

وزاد ابن أبي الإصبع قسما رابعاً[3] ذهب عن ابن المعتز ؛ وهو أن يأتى فيما الكلام فيه منفى باعتراض فيه إضراب عن أوله كقول الشاعر :

فإنك لم تبعـــد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد

---

(١) خزانة الأدب — ١٤٤

(٢) الرشدى — ٢ — ١٥٣ — عروس الأفراح ٤ — ٤٤٤

(٣) خزانة الأدب — ١٤٤

ومن التصدير نوع سماه عبد الكريم[1] : المضادة وأنشد للفرزدق :

أصدر همومك لا يقتلك واردها   فكل واردة يوما لها صدَر

ويرى ابن رشيق[2] : أن التصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي ترد على الصدور ، فلا تجد تصديرا إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين وإن لم يذكروا فيه فرقا ، والترديد يقع في أضعاف البيت إلا ما ناسب قول ابن العميد المتقدم :

فإن كان مسخوطا فقل شعر كاتب   وإن كان مرضيا فقل شعر كاتب

ويرى العلوى : أن رد العجز على الصدر والاشتقاق متقاربان ، وأن الأول أعم من الثاني ؛ لأن رد العجز على الصدر كما يرد في مختلف اللفظ فقد يكون واردا في التساوي ، بخلاف الاشتقاق ، فإنه يكون واردا فيما اختلف لفظه وبينهما جامع الاشتقاق[3] .

قيمة التصدير .

أفصح العسكرى عن قيمة التصدير بقوله : فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظا تقتضي جوابا ، فالمرضى : أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها كقول الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

ثم ساق كلاما لبعض الكتاب ورد على غير هذا النمط وهو : من اقترف ذنبا عامدا ، واكتسب جرما قاصدا ، لزمه ما جناه وحاق به ما توخاه .

وعنده : أن الأحسن أن يقول : لزمه ما اقترف ، وحاق به ما اكتسب ليكون من باب رد الأعجاز على الصدور .

ثم عقب على هذا بقوله : وهذا يدلك على أن لرد الأعجاز على الصدور موقعا جليلا من البلاغة ، وأن له في المنظوم خاصة محلا خطيرا[4] .

ويقول فيه ابن رشيق : فيدل بعضه على بعض . . . . ويكسب البيت

---

(١) العمدة — ٢ — ٦   (٢) المصدر السابق ٢ — ٤

(٣) الطراز ٢ — ٣٩٢   (٤) الصناعتين — ٣٧٥

الذى فيه أبهة ، ويكسوه رونقا وديباجة ، ويزيد ما ئيته وطلاوته[1] .

ويقول الوطواط : يعتبر من العلوم المختارة والصناعات المحببة المقبولة فى باب البلاغة[2] .

ويقول الحموى : والتصدير : ما برحت السهولة نازلة بأكناف أذياله ؛ فإنه سهل المأخذ[3] .

هذه بعض أقوالهم فى التصدير ولم يوفوه حقه .

ورأيى : أن وجوه الحسن فيه ترجع إلى أشياء منها :

١ — أنه ممهد السبيل ميسر المسالك ذلول المأتى ؛ لمساوقته الطبع وجريه على سنن الفطرة ؛ فلا يلجأ صاحبه إلى ركوب التعسف واستكراه الألفاظ واجتلاب العبارات ، لأنه ترديد لكلام سابق اقتضاه إحكام الصنعة ودعم البناء وتجميل الصيغة ؛ ولهذا كان من النادر أن تشوبه المعاظلة ويلحقه الوهن ويعتريه اللبس والغموض ، فالمئونة فيه خفيفة والكلفة مفقودة ، ومتى كان كذلك فلا يعزّ تناوله على متعاطيه ولا يطول الشوط على من يجرى فى ميدانه .

٢ — هذه الإعادة لا تخلو من تقرير الحكم وتوضيحه وإقناع السامع به حينا وإفحامه حينا آخر بكلام من جنس كلامه يفحم بقوة الجدل وشدة العارضة وسرعة الخاطر ؛ فقول الحسن ابن سهل : لاسرف فى الخير لمن قال له : لا خير فى السرف يتضمن كل ما ذكرناه ، وما قاله الحسن لا يمكن أن نأخذه قضية مصدقة لمصادمتها الآثار ؛ فإن السرف لا يعد محموداً حتى فى العبادة ؛ وحسبنا قول الرسول الكريم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة ربك فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

---

(١) العمدة — ٢ — ٤ (٢) حدائق السحر — ١١٠

(٣) خزانة الأدب — ١٤٤

ولكنك لا تستطيع إلا أن تسلم بهذه القضية التى أوردها الحسن ، وتذعن لها فى مقام الجدل على الأقل ، متأثرا بخلابة المنطق وسحر البيان !

٣ — هذا الضرب من الكلام فى أكثر أحواله لا يكون ترديدا خالصا فحسب ، ولكنه كثيرا ما يتضمن حكمة بالغة أو مثلا سائراً أو تعليلا جميلا تفيده من هذه الإعادة ، كقول أبى الأسود الدؤلى :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه   وما كل مؤت نصحه بلبيب

وقول ابن الأسلت :

أسعى على جل بنى مالك   كل امرىء فى شأنه ساعى

وقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل ربابه   وماذاك إلاحب من حل بالرمل

وقول عمر بن أبى ربيعة :

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

٤ — اتصاله بهذه النشوة التى تسيطر على النفس ، وهذا الروح والبشاشة التى تغمر القلب ، وتهدهد الأعصاب ، وتفيض عليها الهدوء والقرار ؛ فإننا حين نسمع كلاماً يونقناً مستمعه نتمنى استعادته أو الاستزادة منه ، فإذا ثنى علينا فى هذه الصورة البديعة المتجددة ، تضاعف حظنا من اللذة والبهجة والطرب !

٥ — هذا إلى أن مزية البليغ الكبرى قدرته على أن يجذب معه القارىء أو السامع فى رفق وهدوء إلى الغاية المرجوة ، ويحمله على متابعته إلى المدى المراد من كلامه دون أن يتخونه الملل أو يعتريه الفتور ، وأنت لا شك تشعر فى هذا اللون البلاغى أنك تسير مع صاحبه جنباً إلى جنب حتى لتعرف أين ينتهى الكلام وكيف ينتهى مصداقا لقول الشاعر :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب
صدورها عُرفت منها قوافيها

وإن كنت فى شك من ذلك فاستمع إلى قول عمرو بن معديكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه — وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول مسلم بن الوليد :

تبسم عن مثل الأقاح تبسمت — له مزنة صيفية فتبسَّما

وقول أبى تمام :

إن ينج منها أبو نصر فعن قدر — ينجى الرجال ولكن سله كيف نجا

وقول البحترى :

سُلبوا وأشرقت الدماء عليهم — محمرة فكأنهم لم يسلبوا

وقول منصور بن الفرج :

شريف لا ترى قولا وفعلا — ولا خلقا له إلا شريفا

وقول البندنيجى :

تقاصرت همم الأملاك عن ملك — أمسى الرجاء عليه وهو مقصور

فكل هذه الأبيات وغيرها تعرف فيها نهاية البيت من بدئه كما تعرف الكتاب من عنوانه ، فتملؤك الغبطة لصدق حدسك ، ويفعمك الزهو لشعورك أنك تشرك الشاعر فى شعوره وشعره .

وقد أشار ابن المقفع إلى ذلك فى قوله : وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر : البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته[1] .

ويلاحظ أن المولدين أكثر عناية بهذه الأشياء وأشد طلبا لها من القدماء ، وهى فى أشعارهم أوجد[2] .

وقد وقع منه المعيب كقول ذى نواس البجلى :

يتيمنى برق المباسم بالحمى — ولا بارق إلا الكريم يتيمه

يريد : ولا كريم إلا يتيمه البارق .

---

(١) البيان والتبيين — ١ — ١٠٩ (٢) العمدة — ٢ — ٦

وهذا قد جمع على غثاثته بابين من بديع الكلام وهما : هذا الباب ، وباب الاستعارة .

وقول منصور بن الفرج :

زدناك شوقا ولو أن النوى نشرت بسط الملا بيننا بعدا لزرناك[1]

وهذا أيضا قد جمع معنيين من البديع وليس بشيء[2] .

وقوله أيضا :

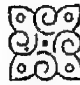
إذا احتجب الغيث احتبى فى نديه فيضرب أغيانا له إن تحجبا

وهذا البيت على غاية الغثاثة[3] .

ويعد ابن رشيق بيت أبى نواس المتقدم :

رقت ورقت مذْقه من مائها والعيش بين رقيقتين رقيق

بعيدا من إحكام الصنعة التى يدخل بها فى هذا الباب على أنه غاية فى ذاته ، لأن أكثر العادة أن تعاد اللفظة بنفسها[4] .



---

(١) الملا : الفلوات ذات حر وسراب جمع ملاة .

(٢) البديع — ١٠٠

(٣) الأغيان : الغيم جمع غين .

(٣) الصناعتين — ٣٧٨

(٤) العمدة — ٢ — ٦

الفصل الرابع والعشرون

الجناس فى الأدب الحديث*

ربما وقر فى الأذهان أن أدبنا الحديث قد تخلص من الجناس كما تخلص من أكثر المحسنات البديعية فى ظل النهضة العلمية والأدبية التى عمت الشرق العربى، وأحدثت فيه تغيرا ملحوظا تناول شئون الفكر والسياسة والاجتماع ولكن ترديد النظر فى آدابنا العصرية يخلف هذا الظن ، ويدل دلالة واضحة على أن النثر فقط هو الذى استطاع أن يفلت من هذا القيد الذهبى بحكم أنه لسان الحياة وترجمانها ، وضرورة من ضروراتها ، هذا إلى أنه أسبق نهضة من قسيمه الشعر وأفسح صدرا القبول التأثيرات الطارئة منه ، وأما الشعر فى جملته فلا يزال آخذا بنصيب من هذه الحلية اللفظية يقل ويكثر تبعا لاختلاف الشعراء فى بيئتهم ومزاجهم ومناهل ثقافتهم .

ومهما يكن فإنك تستطيع أن تحكم مطمئنا على أنه قلّ أن يوجد شعر عصرى خال من شيات جناسية مهما أوغل صاحبه فى التحرر والانطلاق من أغلال الماضى !

فالشعراء الذين ضربوا بسهم وافر فى التجديد كمطران والعقاد وعلى محمود طه وناجى ورامى ومحمود حسن إسماعيل وغيرهم من شعراء الشقيقات العربيات لم يعطل شعرهم من هذه الحلية وإن قل حظه منها .

بل أعجب من ذلك أن شعراء المهجر من سوريين ولبنانيين الذين انتهى إليهم التحرر يطالعنا الجناس فى أشعارهم بأشكال ملحوظة ، وحسبنا فى ذلك ديوان الشاعر القروى « رشيد سليم خورى » من شعراء المهجر

(*) انظر الفصل العاشر فى الجزء الأول من فن الأسجاع ص ١٦٠ ففيه تفصيل مستوعب للحلى البديعية فى عصر النهضة الحديثة .

البرازيلي ؛ فإن هذا الديوان الضخم الذي يبلغ عدد صفحاته تسعمائة صفحة يندر أن تخلو منه قصيدة أو مقطوعة من لون جناسي أو عدة ألوان لا تعدم أن يكون منها الجناس التام ، وهو أصعب هذه الضروب وأعزها مسلكا وأكثرها تكلفا ، وليس ذلك بمنكر ولا غريب، إذا عرفنا أن بعض أنواع الجناس كالاشتقاق وشبهه والناقص والمحرف واللاحق ، يعد وقوعه في الكلام أمرا طبيعياً لا معدى عنه في أكثر الأحوال ، كوقوع السجع والازدواج في الخطب الحماسية ، وفي النثر الذي تسيطر عليه العاطفة والوجدان ا ولكن يمكن أن يقال إجمالا : إن الجناس في عهدنا الحاضر لا يأتي مقصوداً للشاعر ولا كثيرا كما تراه في شعر الساعاتي والدرويش والليثي مثلا ، بل يسقط في مواضع مختلفة تفاريق دون تعمد لأن بنية القصيدة ، وصياغة العبارة وتلاحم نسجها يقتضيه ويستدعيه .

على أنه من البين الواضح : أن الأدب العربي منذ أواخر عهد إسماعيل أخذ يتخفف تدريجا من تلك الحلى البديعية على اختلاف أنواعها تحت تأثير عوامل كثيرة ، حتى إذا وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وتلاها شبوب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وانفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية ، واشتداد الوعي القومي في كل عناصر الحياة أخذ الأسلوب البديعي في الانحسار سريعا ، وهان شأن الزخرف والتصنيع ، وأصبح الشأن كله للمعاني الدقيقة تصب في قوالب عربية جميلة سهلة قوية واضحة ، لا تكد الذهن ولا تضيع الوقت ولا تسئم القارىء ولا تجافي روح العصر ، روح السرعة والإيجاز .

على أنه مما ينبغي أن يعرف : أن الجناس يوجد بكثرة في شعر الشعراء النابتين في صدر النهضة الأدبية ، أو الذين يستلهمون الماضي ويعجبون بالأساليب العربية السلفية ويصبون على قوالبها ، أو النابتين في معاهد تعنى بدراسة النصوص الأدبية القديمة وفنون البلاغة دراسة دقيقة كالأزهر ودار العلوم .

فالبارودي يتفشى الجناس بشعره حتى لا تكاد تبرأ منه قصيدة ، وله كثير من المقطعات وقع كلها أو جلها مجنسا ، مما يدل على أنه كان يتعمده ويجتلبه في كثير من الأحيان ، ولا يستغرب ذلك منه ؛ فقد كان يترسم خطا الأقدمين في مناهجهم ويتأثرهم في أساليبهم ، هذا إلى أنه كان على صلة بعهود الضعف والتهافت ، وحسبه منزلة وفضلا أنه نجا من هجنتها وإسفافها وتخطى الحدود والسدود واستمد مباشرة من الينابيع الأولى الصافية الرقراقة .

ثم هو كثير في شعر صبري وشوقي لعنايتهما بالترف اللفظي وأناقة الصياغة وجمال الأسلوب وتوشيه الديباجة ، ولقد يهولك كثرة الجناس في شعر شوقي حتى لتعده معرضا لكل ألوانه ، ولكن جناسه يمتاز من جناس البارودي بخفة الظل وقلة التعمل وعدم مجيئه على التتابع والولاء .

وهو أكثر في شعر عبد المطلب لكثرة مصاحبته للأدب القديم طالبا وأستاذا ، ثم لإعجابه بالشعراء البادين ووفرة محصوله من نتاجهم حتى لقب بحق شاعر البادية .

وأود بعد ذلك أن أعرض عدة نماذج لعدة شعراء وجدت دواوينهم مصادفة بين يدي ، فلا يعني ذكرهم أنهم عندي أفضل من سواهم وإن كان بعضهم يحل الصدر غير مدافع ولا منازع !

وهذه النماذج تعطينا فكرة واضحة عن مكانة الجناس في الشعر العصري ، وبها يمكن أن نصرح بأن الجناس — وإن دالت دولته — لا تزال بعض أنواعه تندس إلى شعرنا الحديث فتلقى الترحيب والتأهيل !

١ — في شعر البارودي :

هي نظرة فامنن علي بأختها ... فالخمر من ألم الخمار شفاء

كلف تناقله الحمام عن الصبا ... فصبت إليه الغيد والشعراء

ميدان سبق للخلاعة أشرقت ... فيه الكميت بغرة غراء[1]

---

(١) الكميت كزبير : الخمر فيها سواد وحمرة .

فلا تلمني على دمع تحدر في   سفح العقيق فلي في سفحه أرب
كأن غرتها من تحت طرتها   فجر بجانحة الظلماء منتقب

يا من رأى الشادن في سربه   يتيه بالحسن على تربه

لا الباز ينجو من الحمام ولا   يخلص منه الحمام والخرب(1)

فقلبي تحت السرد كالنار لافح   ودمعي فوق الخد كالماء سافح
منازل حل الدهر فيها تمائمي   وصافحني فيها القنا والصفائح

فلو تأملتني والكأس دائرة   خلتني ملكا يختال من مرح

إذا لم يكن للمرء عقل يقوده   فيوشك أن يلقى حساماً يقده

فلا عين إلا وهي عين من البكا   ولا خد إلا للدموع به خد

فهم بين مقتول طريح وهارب   طليح ومأسور يجاذبه القيد
أراك الحمى شوقي إليك شديد   وصبري ونومي في هواك شريد

أتسألني لبس الجديد سفاهة   وأثوابنا ما قد علمت حديد

وفي الحي ظبي إن ترنمت باسمه   تنمر واشيه وهاج حسوده

إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه   وإن رق أزرى بالعقود فريده

إذا ما احتساها كريم هدى   وإن عب فيها لئيم هذى

غمامان فياضان هذا بأفقه   يسير وهذا في طباق الثرى يسري

أقول بطبع لست أحتاج بعده   إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا صلت كفت الدهر من غلوائه   وإن قلت غصت بالقلوب صدور

فلا أنا إن أدناني الوجد باسم   ولا أنا إن أقصاني العدم باسر

ياطير نفرت عني طيف غانية   قد كان أهدى لي السراء حين سرى

---

(1) الخرب محركة : ذكر الحبارى .

إن دام هذا أضاع الرشد كافله   فيما أرى وأطاع الغىّ زاجره

وما كل من ساس الأعنة فارسا   ولا كل من ناش الأسنة قسورا

بين جوّ مع الغمائم سار   وفضاء مع الجداول جار

فاسرحا وامرحا فقد آذنتنا   نسمات الصبا بخلع العذار

فإذا تغزل فالنفوس نوازع   وإذا تحمس فالقلوب نوازى

خلّ المراء لفتية الدرس   واعكف على صفراء كالورس

فذو الحزم يرعى القصد فى كل حالة   وذو الجهل إما مُفرط أو مُفرّط

سكرت بخمر حديثك الألفاظُ   وتكلمت بضميرك الألحاظ

متى أنت عن أحموقة الحى نازع   وفى الشيب للنفس الأبية وازع

فلا السيف مفلول ولا الرأى عازب

ولا الزند مغلول ولا الساق ظالع

ورقت لى قلوب الناس حتى   بكى لى كل ساق فوق ساق[1]

أسَاةّ سيف أم عقيقة بارق   أضاءت لنا وهنا سماوةَ بارق[2]

٣ — فى شعر صبرى :

وإلى متى ذا الصد عن مضنى الهوى   عودى ليورق بالتواصل عودى

واستأنفى موصول عائد أنسنا   فالقرب عيدى والبعاد وعيدى

يا عاذلى أقصر وكن عاذرى   ولا تطل لومى على سهدى

عذابى به عذب كمذب رضا به

وعذرىَ أضحى واضحا فى الهوى العذرى

كم ذا أراك تميل عن   مضناك يا غصن الأراك

---

(١) الساق الأول : ذكر الحمام .   (٢) سماوة بارق : اسم مكان .

هل البـــدائع إلا ما جلوت لنا
من نفثة السحْر أو من نفحة السحَر

إذا كنت يا «زين» زين الأدب   فإن كتابك زين الكتب

يابن الأُلى رسخت أقلامهم ورست
إذا الأكفُّ مجانين مهاويس

معشر القبط يا بنى مصر فى السراء م قد كنتم وفى الضراء

إنى ليعجبنى وقوفى سائلا   إذ كنت أنت السيد المسئولا

ولا زالت السحب منهــلة   وأنت لأذيالهــا تسحب

تخُمد بالخـــد حشا صبها   وكل ما يشكو من الخد

مرحباً بالمديح آيات صدق   لم يخالط رُواءهن رياء

صـــدودك أشجانى وهيَّج لوعتى
وأوجد وجدى حين أعدمنى صبرى

أنت فى الحان فى أمان وسلم   وهو فى مَعمعان حرب وضرب

قد هيَّم الشعراء الثغر والريق   وشاقهم كأس صهباء وإبريق

من جنة الخلد فياض على ترع   تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا   وإنمـــا هى أرزاق وأرباح

٣ — فى شعر شوقى :

داء الجماعة من أرسطاليس لم   يوصف له حتى أديت دواء

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى
ويقضَم بعض الأرض بعضا ويقضب

وإن المجد فى الدنيا رحيق   إذا طال الزمان عليـــه طابا

قبلت جهودهم البلاد وقبّلت   تاجاً على هامتهم معقـــودا

وتُحس ثَمَّ العلم عند عُبابه تحت الثرى والفن تحت عُجابه

أم القِرى إن لم تكن أم القُرى ومثابة الأعيان والأفراد

فيارب وجه كصافى النمير تشابه حامله والثمر

فى كل عام أنت نزهة روحه ونعيم مهجته وراحة باله

فيها النعيم لقوم والشقاء لهم وبؤس ساع ونعمى قاعد سال

غال فى قيمة ابن بطرس غالى علم الله ليس فى الحق غالى

وطن بالحق نؤيده وبعين الله نشيده

يُرعن للبصر السامى ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالعنم

تواريا بجناح الله واستترا ومن يضمّ جناحُ الله لا يُضَم

لولاه لم نر للدولات فى زمن ما طال من عمد أو قرّ من دعم

قد مات فى السلم من لا رأى يعصمه

وسوت الحرب بين البهم والبُهَم

فيم التخاذل بينكم ووراءكم أمم تضاع حقوقها وتُضام

نادِ الشباب فلم يزل لك ناديا والمرء ذو أثر على إخوانه

قد خط شعرى على الشِّعرى له جدثا

وخاط من لمحات الشمس أكفانا

وأين ماضية فى الظلم قاضية وأين نافذة فى البغى نجلاء

اختلاف النهار والليل يُنسى اذكرا لى الصِّبا وأيام أنسى

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسّى

غرقت حيث لا يُصاح بطاف أو غريق ولا يُصاخ لحس

الضاحيات الضاحكات ودونها   ستر الجلال وبُعد شأو المطلع

ألقت إليك بنفسها ونفيسها   وأتتك شيقة حواها شيّق

خلعت عليك حياءها وحياتها   أأعزّ من هذين شيء ينفق

والذر والصخرات مما كوّرت   والفيل مما صورت والخِرنق

وأنت من المحاسن في مثال   فديتك قالباً فيه وقلبا

هم أغضبوك فراح القد منثنيا   والجفن منكسرا والخد متقدا

وباكٍ ولا دمع وشاك ولا جوى   وجذلان يشدو في الربى ويشيد

قف باللواحظ عند حدك   يكفيك فتنة نار خدك

جار الشبيبة وانتفع بجوارها   قبل المشيب فما له من جار

قلب يذوب ومدمع يجري   يا ليل هل خبر عن الفجر

ما لرب الجمال جار على القلب   كأن لم يكن له القلب جارا

وأنت معين العاشقين على الهوى   تئين فنصغي أو تحِن فنسمع

أو فابتغى فلكا تأوينه ملكا   لم يتخذ شركا في العالم الفاني

أهلَ القدود التي صالت عواليها   اللهَ في مهجة طاحت غواليها

أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم   في قصف أنواء وعصف رياح

سر رويدا في فضاء سافر

ضاحك الصفحة كالفردوس ضاح

لو أشارت جاءها ساحله   في حديد وعديد منتصر

اجعل رثاءك للرجال جزاء   وابعثه للوطن الحزين عزاء

وإذا ما سقمت أو سئمت   طاف كالشمس عليها والقمر

أســـد تجول بغير ظفر م   أو تصول بغـــير ناب

هناك وقفت أسائلك اتئادا   وأمسك بالصّفات وبالصّفاة

ممات فى المواكب أم حياة   ونعش فى المناكب أم عظات

أصمّ عن غضب من حوله ورضا   فى ثورة تلد الأبطال أو تئد

هانوا وكانوا الأكرمين وغودروا   بالقفر بعـــد منازل وديار

أجلٌ وإن طال الزمان موافى   أخلى يديك من الخليل الوافى

فى كل سهل أنة ومناحة   وبكل حزن رنة وعويل
ألا فى سبيل العلم ذاك الدم الغالى   وللمجد ما أبقى من المثل العالى

ونظام الأمور عقل وعدل   فإذا وليا تولى النظام

وحنت نواقيس ورنت مآذن
ورفت وجوه الأرض تستقبل السلما

٤ ـ فى شعر حافظ :

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل   لقد ظفر الإسلام منك بأفضل

كثير الأيادى حاضر الصفح منصف
كثير الأعادى غائب الحقد مسعف

من الأوانس جلاها يراع فتى   صافى القريحة صاح غير نشوان

قصرت عليك العمر وهو قصير   وغالبت فيك الشوق وهو قدير

أنتم الأسبقون فى كل مرمى   قد بلغتم من كل شىء مراما

فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة   لتنظر ما يصمى ويدمى ويؤلم

كم خفت فى الله مضعوفا دعاك به   وكم أخفت قويا ينثنى تيها

وتيمّنى بقـــدومه وترفقى   عند الزحام فسلمى وتفرقى

لا يصبرون على ضيم يحاوله باغ من الإنس أو طاغ من الجان

سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها بلاء مضطلع بالأمر معوان

فترى المعــــانى الفارسية م في مغــــانى الأسطر

هي أم النار والنور معا هي أم الريح والماء الـمعين

أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور

بالكاس أو بالطاس أو باثنيهما أو بالدنان فإن فيه شفائى

فهبوا إلى خمــــارة قيل إنها قصيدة خمر تمزج الروح بالراح

وقالوا لها إنا أتينا على ظما نحاول ورد الراح رغما عن اللاحى

أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب

فأضحى لآمالنا منعشا وأمسى لآلامنا مرقدا

يا سعد إن بمصر أيتاما م تؤمل فيــــك سعدا

إن كنتم تبذلون المال عن رهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغب

والحرب في لهب والقوم في حرب قد مد نقع المنايا فوقهم طنُبا

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعراء حيالى

زرتها والشقاء يجرى ورائى وشعاع الرجاء يسرى أمامى

لكنها قــــد فارقته م فراق معذور وعاذر

راعنى من نفوسكن جمال يتجلى في هالة من جلال

وغدا القوت في يد الناس كالياقوت

م حتى نوى الفقـــــير الصياما

لا تلم كفى إذا السيف نبا صحَّ منى العزم والدهر أبى

ورُدوا على الإسلام عهد شبابه ومدوا له جاها يرجى ويرهب

فكم طلبوا منا أمانا فأمنوا

وأمسى لهم فى الشرق مسرى ومسرب

والمستشار مكاثر برجاله ومهاجز ومناجز ومحزّب

وما الشركات السود فى كل بلدة سوى شرك يلقى به من تصيّدا

إذا ما هاجهن أسى جديد هتكن سرائر القلب الجليد

مُشبع الموت من لحوم البرايا ومجيع الجنود تحت البنود

علم الله أن عهد رشاد خير فأل برد عهد الرشيد

تلك عقبى كل جبار طغى أو تعالى أو عن الحق تعاما

فشهدنا ظلمـــا يقال له العدل وودا يسقى الحميم الحميا

سكتُّ فأصغروا أدبى وقلت فأكبروا أربى

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مرتهب لله مرتقب

ما لهـــذا النجم فى السحر قد سها من شدة السهر

بكى عالم الإسلام عالِم عصره سراج الدياجى هادم الشبهات

ماذا على السارى وهن منائر لو سار بين مجاهل وقفار

ورماهما بمجلّدين رموهما فى رتبة الأصفار لا الأسفار

منفّر النوم سباق لغايته آثاره عَمَم آماله أُمم

وأيقنت أن الدين لله وحده وأن قبور الزاهدين قصور

وعدا القضاء على القضا ء فصابه فى المقتل

فعلى الراحل الكريم سلام كلما غيب الثرى ليث غاب

لم يهبه أن تجنى دهره   رب جد حاد عن مجراه جد

آهي الثرى أم أعزى الورى   لقد فاز هذا وهذا خسر

عيون القصائد مثل العيون   وشعرك فيهن مثل الحور

ويهضم حق الأديب الأريب   ويطمس فضل النبيه الأغر

واعتراف التاميز يا سعد مقيا   س لما نال نيلنا وأصابا

فكم صفحت عن الجانى ولم تره   وكم غرست وكان المعوز الجانى

٥ — فى شعر عبد المطلب :

كلما يممت على اليم نهجا   صافحتها بالأمن أيدى الصحاب

وكم صانوا كرامة ذى إباء   وكم صاغوا لبائسة حجابا

حىّ المنازل هذا بعض ما يجب   واستحى قلبا على ذكر الحمى يجب

من كل بيضاء تَزهاها شمائلها   والدّل يقضى بما لا يقتضى الأدب

بنى أمنا أين الخميس المدرّب   وأين العوالى والحسام المذرّب

أفى سكنات الليث للهر مطمع   وهل فى عرين الصيد للسيد مأرب

فاسألوهن عن حديث حديث   لبنيها يعد فى المعجزات

سافرات ولسن أهل سفور   حاسرات من شدة الحسرات

بنى النفر البانين ركن سرائهم   على ذى قلال باذخ وسَراة

وكنا نرى أم اللغى قبل عاطف   فريسة عاث بالمعارف عاتى

حياة ورثناها بيانا مفصلا   بها يُنطق الذكر الحكيم ويفلج

فقدنا فى شمائله رياضا   لنا من طيبها روح وراح

هلا نهى القلب عن غى الغرام نُهى   جرى على نهج أشياخ أماجيد

وبرق يلوح وطـــير ينوح   وحاد له فى المطايا نشيد

شمائل لو أن الشّمال سرت بها   على الروض حيّا نوره كل رائد

مع الله فى ركب السلامة ياسعد   يسايره باليمن طالعك السعد

لله من أبنائنا نفـــــر   طوعا إلى آجالهم نفـــروا

وما الدهر إلا دولة ثم صولة   فذا مقبل يسعى وهذاك مدبر

وبكى المكس إذ تذكر ماسيم   م بنو مصر من هوان ومكس

فى مسرح الأمن ومسرى الحيا   مذ كنت لم أشك ولم أفجع

وتلهو بمخضر العباب كما لهت   سَوام بمخضل من النبت أمرعا

لا يُضيع الكريم عهد إخاء   نفحات الوفاء فيـــه تضوع

تحكى الجوارح ما تلقى الجوانح من   جوى إذا حل فى طود يزعزعه

يا أبا المعجزات وهى قواف   ساحرات البيان غير خوافى

تُقضّىَ ليال بين ظلم وظلمة   طريد الكرى فى جوف أغبر مطبق

فقضيتِ منى بالدلال مُنى الهوى   وقضيتُ منك لبانة المأفوك

وذليل من لا يؤيده الشعب   م وإن حلّ منه أسمى محل

ومعاهد نشر الحياة بها الحيا   فالعيش أخضر والنعيم ظليل

فالعلم مقروح الحشا ساهم   يندب فيه العـــالم العاملا

لطيف بمكسال اللّحاظ إذا رنت   رمت فأناب الليل وهو ذليل

تبشر آمالى بحســـن مآلى   كأن الليالى آذنت بزوال

فكم ليلة قضّيتها وجوانحى   صواد على جمر السهاد صوالى

أمامِ ، وهل أمامى غير كأس   تدور بها الندامة لا الندامى

أغرى بك الشرق بعد الشيب والهرم

سار طوى البيد من نجد إلى الهرم

تلك أيامى بأكناف الحمى لا أرى غير الحمى إلا الحماما

فقلبى مفرد وطرفى مسهد ونومى مفقود وصبرى فانى

ناع بكى ، ملأ البلاد أنينا ينعى لمصر وللشآم «أمينا»

يعارضهم بالآى وهى مبينة فيعرض عنها معشر جهلاء

ظنوه من هجر المقام تصابى فسقوه من هُجر الملامة صابا

مصر لنا إن جار أو عدل الورى من عهد سام فى الأنام وحام

كره العيش بين أبناء دنيا خلقوا من تنافر وتنافى

٦ — فى شعر الجارم :

سفرت به البشرى فطاح قناعها عمدا وطار مع الهواء خمار

كلما خار أجزأت بسمة منه م فسد الخطا حثيثا وجدّا

عصفت به هُوج غفر مغفرا وجنى عليه الحين قبل جناته

واليعربية أندى ما بعثت به

شجوا من الحزن أو شدوا من الطرب

تهفو إليه بنات الحى معجبة والحب ينبت بين العُجب والعجب

ليس الذى ينفق من يسره مثل الذى ينفق من عسره

كانت أحز من المدى وأحد من غرب الظبا يسللن يوم طراد

محيي القضاء رماه فى ريعانه سهم القضاء فما له من فادى

من لى بذاك الوجه بين غضونه أسطار أسرار الحياة بوادى

فقال : قضى قلنا : قضى حاجة العلا
فقال : مضى قلنا : بغير ضريب

وليس تراب الأرض غير ترائب   وغير عقول حطمت وقلوب

٧ — فى شعر الأسمر :

كنز بناه «جوهر» فيه الجواهر والدرر

كأن بنى التاميز «خوفو» أباهم   وجَدُّهم «مينا» وليسوا هموا منّا

شد ما نلقاه فى مصر فلا   سبَدٌ نملك فيها أو لبَد

تلك الحروب وهذه أهوالها   فمتى يزول وباؤها ووبالها

وجيش مر بالوادى لهُـام   به ماشئت من شُوش وشمس

ما أفدناه حين طرنا وغصنا   غير أنا صرنا وحوشا وجنا

فلا رجعت تلك الليالى التى دجت   على كل أرض بالغواشى الغواشم

كالشيب أعيا على من راح يصبغه
فلاح يلمع مثل الفجر ناصله

من رُبا النيل إلى دار السلام   وإلى دجلتها ألف سلام

شاعر هام بالجمال قديما   ثم عاداه ثم عاد فجنّا

بتنا بها نأكل أكلا لمّا   وما شكونا بشما ألمّا

مواقف الذل أولى أن يظل بها   من ليس يعصمه علم ولا عَلَم

إن لاح خير قرّبوه ويسروا   أو لاح شر باعدوه وعسروا

عشت معافًى يا أبا مرتضى   مؤتلقا كالصارم المنتضى

حسبت يا «خاطر» أن الذى   جئت به لم يجر فى الخاطر

مات من كنت لديه   واحدا من والديه

ستدركنا المنون ولو ركبنا   جناح البرق أو متن البُراق

يرخّص فرط الحزن فى الدمع بعدها
ويرخُص منـه كل ماكان غاليا

أين التى إن يدع داع للهدى   لاحت أمام الناس وهى إمام

تعاليت لم تدركك أبصارنا وما   بعدت ولكن أدركتك البصائر

الحوت نصطاده من قاع لجته   والتوت نقطفه من فرعه العالى

هذا إلى غير هذا لست أذكره
وكيف حصرىَ ما يفضى إلى الحصَر

ومصطفى مثل اسمه مصطفى   يجمع بين الحسن والحسنى

يا أبا شامل وفضلك فينا   شامل كل ما لدى الفضلاء

وأشرف ما يسعى له المرء غاية   مغانمها محمودة والمغـارم

٨ — فى شعر محمود غنيم :

طحنت فريقيها الحروب بضرسها   لا غالبا رحمت ولا مغلوبا

يضفى على هذا الوجود وجوده   ظلا ويكشف عن بنيه خطوبا

أمست ومتعة كل عين حورها   وحوارها للروح خير متاع

الشرك فى الأوطان شرك آخر   وطن الكريم الحر غير مشاع

كيف الغوانى والمغانى بعدما   طمس المغير بجيشه آثارها

الشط داج والسكون مخيم   ما بال ثغر الثغر لا يتبسم

ليس الولاة بأرباب مصضرة   يارُب مولى سواد الشعب مولاه

وأطيب ساع الحيـاة لديَّا   عشيـة أخلو إلى ولديَّا

فأنسى عِذارى وأنسى وقارى   وأحسب أنىَ عدت صبيا

نشر القضية وهى سر غامض حتى أحسّ لها الوجود وجودا

هكذا العمر والحياة زوال سنوات تمر مثل سِنات

فى بهو فرعون بل فى ساحة الحرم ترنحت ثم مالت صفحة الهرَم

جناية قتل أنت بعض جناتها لك الله مجنيا عليه وجانيا

غدت تصهَر الناس مثل الجليد ولكنّ فى مصر شعبا جليدا

بالأمس هنأته بالعقد إذ عُقدا واليوم شيَّعته بالدمع إذ فقِدا

حيَّيت فى شخص « الجمالى » بلدا حوى شطر الجمال[1]

بغداد تحكم فى الورى حكم الموالى فى الموالى

هذا العصامىّ العظامىّ الذى أكبرت فيه تقابل الأضداد

حمَّلت الإسلام سيرة أحمد فخلتها للناس لغزا مبهما

يحكى عصا موسى إذا ألقيته ألفيته فوق الصحيفة أرقما

وأرانى إذا أصابك سوء أبذُل النفس والنفيس فداءك

قناعة بائس وعفاف عاف وما أحلى العفاف من العُفاة

٩ — فى شعر الدكتور ناجى :

قمت مذعورا وهمت قبضتى ثم مُدت ثم ردت من خوَر

يا فؤادى رحم الله الهوى كان صرحا من خيال فهوى

أهرب من بأسى لكأسى التى أدفن فيها أملى الحيّا

إنى على يأسى وكأسى كابى وعلى سرابى عاكف وشرابى

غال الزمان ضبابها وحبابها وتبخرت أحلامها ورؤاها

(١) الجمالى : الأستاذ فاضل الجمالى العراقى .

حان الفراق وآن للمحزون م أن يتبسما

أين منى مجلس أنت به   فتنة تمت سناء وسنا

قف يا فؤاد على المنازل ساعا   فهنا الشباب على الأحبة ضاعا

فى لحظة يقفز فيها دمى   وتعقد الدهشة فيها فمى

كأن فراشا حائرا فى الدجى   فى نورها أو نارها يرتمى

فكل ما قيل وما لم يقل   عن فضلك الجم الغفير الوفير

غيث على القفر حيانا وأحيانا   يا شاعر الجيل كان الجيل ظمآنا

أنت إن تؤمنى بحبى كفانى   لا غرامى ولا جمالك فانى

مُنًى نلتها كانت لأنفسنا منى   تلفت تجد مصرا بأجمعها هنا

كيف يبكى منكم الباكى على   عَلَم لُفَّ شهيدا فى علم

رجل أرى بالله أم حشره   سبحان من بعيده حشره

وبه شتّى لحون من أسى   وحنين وأنين وتمنى

أتمعن فى الهجر حتى ترانا   بكينا دما واحترقنا فما

فإذا رأيتك كنت أنت الناس م والأعمار والآباد والآمادا

قدَّم الروح إليها ومشى   ثابت الخطوة جبار القدم

ويرف مثل الزهر وهو ندى   ويخف مثل عرائس الحلم

اسقنى واشرب على أطلاله   وارو عنّى طالما الدمع روى

وأنا أقتات من وهم عفا   وافى العمر لناس ما وفى

قلت للنفس وقد جزنا الوصيدا   عجلى لا ينفع الحزم وئيدا

هيا فما فى الأرض من مطمح   ولا أرى لى بعدها شيئا

سعيت فى ساحة موسومة بدم منقوشة بندوب الحب والندم

١٠ — فى شعر رامى :

ضاع نشرى وضاع فى الجو لم يتنشقـه إلا لوافح تذوينى

وعبَّ فى كل جـار عذب من الأنهـار

إنما يجمل الصباح ويحلو بأنين من شـدوها وحنين

وذوى قدها الرطيب وقد كان حليـا بزهره فينانا

من غرام مبرح وشقاء فى حياة ميسورها معسور

أسكوت والكون جم المعانى وسكون والنفس فى ثوران

آه لو أكشف المخبأ من أمرى وأدرى الخلاص مما عنانى

حزن على الماضى وخوف عاجل مما يخبىء آجل الأعوام

كلهم فاقد وأنت فقيد وحد الحزن فى اختلاف الشقاء

أصون كرامتى من قبل حبى فإن النفس عندى فوق قلبى

وسفحت أسراب المدامع من دمى والدمع والدم منحة الأحباب

أحيا حياة أنت مجلى حسنها وأنا مجال الهم والأوصاب

رنة العود شدوها وصداها حنة الناى أو أنين الكمان

وجرت دمعة فكانت شفاء للمعنَّى ورحمـة للعانى

ونبصر بدر الدجى زاهيا يرصع أعطـافه بالبِدَر

غرة كالصباح رفت عليها طرة فى سواد جنح الليالى

فى سكون الماء والبحر ساج والسحاب النثير فى الجو سار

سميتها أحلام من طول ما ناجيت فى دنياى أحلامى

أو ساهرا تحت الدجى ساهدا أردد الشكوى بأنغامى

هل كنت فى الدار على مسمع وانهل من فرط الشجى مدمعى

ومن بين الممالك لا يبالى بهدم العرش أو هدب اللواء

واجمل سماء المغانى تدوى بعذب الأغانى

لست أدرى أدلالا كان منها أم ملالا

والتقينا لا سلام نتهادى أو كلام

وأنا قلبى حنّا أرسل الشكوى وأنّا

رنّم الدوح ورن الجدول وسرت فى الجو أنفاس العبير

فتذكرت الذى كان راحا حين أفنيناه أنسا ومراحا

وبكى قلبى مما ذع فى الكون وشاع

١١ ــ فى شعر الشاعر القروى « رشيد سليم خورى » :

يا لها من دقيقة دق فيها عنق الظلم واستقام النظام

يا قالبى عرش المظالم قلبنا ما زال فى رمضائه يتقلب

ترمى اللظى فى جوفها هازئا يا لك من محترق محتقر

كالغيث فى استقلاله وسخائه والليث فى وثباته وثباته

طرقت ضياعها غدرا فشمنا ضياع الأمن فى تلك الضياع

إلهى رد مالك من أياد على وطنى ورد له الإيادا

فالبر من عصفها أطواده قصب والبحر من قصفها أغواره قمم

فابسطوا يا كرام يمنى ويسرى تملآن البلاد يمنا ويسرا

يحق لكم أن تستخفوا بهائم فما هو من يرضى بعيش البهائم

وصوادح الأطيار كم من معبّد — منها يسبح ربه في معبد

خففت لنجدة العانى سريعا — غضوبا لو رآك الليث ريعا

يبلغه مكان الفهم منكم — وصيغته كلوم لا كلام

أيها الخالد الله معنى — لم تزل بالذكر معنا

رب جفن من البكاء قريح — فوق جفن تحت التراب قرير

غلت الشفيق على أبيه وأمه — وهدمت فيه عماد بيت وعماده

سامى الحجا حلو الشمائل سائغ — مثل الشمول تعرضت للشمأل

أيا وطنى المنية فيك منّ — لذائقها والاستشهاد شهد

ونظل نخلق كل يوم طارقا — حتى تكف طوارق الحدثان

إذا حُم القضاء فلا سلاح — يرد الموت عنا أو صلاح

ذهب الزمان بهم وهم — يتهافتون على الذهب

يابنت خير أب ياأخت خير أخ — من بيت أشهر معروف بمعروف

أين البلابل من إنشادها سحرا — من شاعر عربى إن شدا سحرا

عاطيته الحب أنقى من مشاربه — والمبدأ الحر أبقى من رواسيه

حزت على الفقر فيه مالا — يحوزه من يحوز مالا

من عنب فاخر وتين — عافية القلب والوتين

الفجر من أبوابه والدهر من — حجابه والزُّهر من حُجاجه

ما أهل الهلال إلا ببشرى — تملأ الأهل والمنازل بشرا

أتاك كتابك يا هائمه — ونفسى بليل الأسى هائمه

يا عروس الجمال كونى وديمه — واكلئى الحسن فهو فيك وديعه

١٢ — فى شعر على الجندى :

وإنى لمغرى بالمكارم مغرم　　بكل سنىّ الفضل جمّ محامده

كيف تشكو وأين منك حسين　　ذلك الملهم الأريب الأديب

ومن جدول خفيف الظل　　م لا يدرى ولا يفرى

يا حبيب الفؤاد لست بندّ　　« لحبيب » فى نظمه العقيانا

لا تخفنا على الحسان فإنا　　قد وجدنا هوى الحسان هوانا

النبل فى وجهه يلوح　　والمسك من عطفه يفوح

هان القريض على ذى ثروة نزق

لا يعرف الفرق بين الضرب والضرَب

نالوا الثراء بحرب لا ضمير لها

جرّت على الصيد ذيل الويل والحرَب

أفى كل يوم للكنانة عَولة　　على ليث غاب غاب فى الحُفُرات

لو كان يعرف من يأويه منزله　　هز عطفيه من عُجب ومن عجَب

رفيقك فى عسر الجهاد ويسره　　رمته يد ترمى من الأفق النسرا

يا هلال السماء ما حاجة الأر　　ض إلى النور وهى شعلة نار

يا زكى الأخلاق يا زاكى الغر　　س أدلا هجرتنا أم نفارا

والتياع للبين بين ضلوعى　　يتلظى نارا ويذكو أوارا

وما ساس بالإحسان إلا مجرب　　وإن سام عنفا فائل الرأى ذاهبه

وسالمه تنفح بالكرامة كلها　　وخاشنه تلفح بالهوان وتزدرَى

من ذا يباهيك بالعلياء مفتخرا　　ومن يباريك فى الهيجاء مُقتحما

وريحان لصاحبه وراح ... وقرة ناظر وشفاء غلة

إذا ضلوا الطريق رأوا «نجاتي» ... منار الأمن مشكاة النجاة

في كل داجية في كل عادية ... مشى «أبو علم» يختال بالعلم

وإذا ما احتويت شعري فشعري ... حَبَاب الكرم بالزلال النمير

وثنينا العنان عن منهل الرا ... ح إلى منهل القَرَاح الطهور

إن غاب عنه أن مشتاقا ... م وإن وافاه غنى

هذه السيقان مُجمـا ... ر ذكا في القلب جمرا

وكلانا قد خبر الصبابه ... وجرب الحب وذاق صابه

ولم أر في عسر مقترا بذلة ... ولا ساحبا ذيل المخيلة في يسر

لنا الشعر والشعرى لنا كل باسق ... من السؤدد العاديِّ والحسب البكر

دع عنك ما عتقت قُطْرُبُّل فهنا ... حلا الورود وحل السُّكر والسكَر

امدحه أو فاحمده ليس عليك من ... حرج فإن الحمد من أسمائه

إن للباطل المهين اعتلاء ... هو من بعده كثيب مهيل

يوم حِطّين حط كل رفيع ... منهم طاول السماك سناؤه

الحجج البيض حين ترسلها ... كالبيض منسوبة إلى اليمن

وهل بلغت المنى لما بلغت مِنى ... ونلت سؤلك بين السفح والعلم

مصر فيها أضاء نجم السعود ... بإمام الجزيرة ابن سعود

على أن للبيض الحسان مواقفا ... تحدث عنها ألسن البيض والسمر

بني مصر قد جدّ النزال فجددوا ... عزائمكم وابغوا السبيل إلى النصر

فإن أنتم قلمتمو ظفر بطشهم ... ظفرتم وإلا فالسلام على مصر

وقد تسفر الأحداث عن طيّب المنى
ويا ربما عسر تكشّف عن يسر

وتشبث بالستر والتزم البا ب وعذ بالحمى ولذ بالمقام

أبا الحسنى أبا الحسن نعمت بخلقك الحسن

أرى الدول الكبرى لها الغنم وحدها
وقد عادت الصغرى على رأسها الغرم

عتاب رق كالزهر البسيم وراق كأنه صفو النعيم

وأميلى على عطفك عطفاً أتفيأ ظل الغصون الرطاب

لو يدرك المأمول بالأدب أدركت ما أملت من أرب

أستغفر الأخلاق ما حسبي يرضى الدنية لى ولا نسبي

وما صدقوا فإن الحرب قامت عليهم بالنُّضار وبالنَّضارة

ولا «سمحون» حين رجوت سمح ولا «حمودة» عندى حميد

يا حديثا فى المسرة لقن القلبَ المسرة

لم تلدها حواء بل هى حورا ء جِنان قد أفلتتها الجنان

على أنه روّى غليل جوانحى وروّح أحشائى وأنعم بالى

فلله دَرّى حين أُغضى مهابة لرب جمال زارنى وجلال

كيف حالت حالى فلا الوُرق فى الأو راق تشدو ولا الهزار يغنى

تم وكمل بحمد الله

فهرس الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

العقد الفريد لابن عبد ربه

تحرير التحبير لابن أبي الإصبع

الحماسة لأبي تمام

ديوان أبي فراس

النثر ومذاهبه للدكتور شوقي ضيف

إقامة الحجة للحضرمي

ديوان الشريف الرضي

ديوان كشاجم

نهج البلاغة للإمام علي

مصارع العشاق للسراج

الملاحن لابن دريد

المحاضرات للراغب الإصفهاني

هبة الأيام للبديعي

وفيات الأعيان لابن خلكان

الأمالي للمرتضى

المواهب الفتحية لحمزة فتح الله

المزهر للسيوطي

الأمالي للقالي

المراجع التى مر ذكرها فى الكتاب

مرتبة على حسب ورودها

المثل السائر للموصلى
جنان الجناس للصفدى
الأساس للزمخشرى
المصباح المنير للفيومى
شفاء الغليل للخفاجى
الصحاح للجوهرى
التهذيب الأزهرى
ذيل الفصيح للموفق البغدادى
القاموس للفيروزاباذى
التكملة لعبد اللطيف البغدادى
الكليات لأبى البقاء
عروس الأفراح لابن السبكى
حاشية المرشدى للمرشدى
شرح عقود الجمان للسيوطى
العمدة لابن رشيق
خزانة الأدب للحموى
الخصائص لابن جنى
البديع لابن المعتز
نقد الشعر لقدامة
الصناعتين للعسكرى
أسرار الفصاحة للجرجانى
المصباح لبدر الدين بن النحوية
الإيضاح للقزوينى
المفتاح للسكاكى
الإتقان للسيوطى
ديوان المتنبي
الطراز للعلوى
نهاية الإيجاز للرازى
كتاب الخطابة لأرسطو « ترجمة الدكتور سلامة »
مقدمة نقد النثر للدكتور طه حسين
مقدمة الإلياذة للبستانى
فن الأسجاع لعلى الجندى
الإتباع والمزاوجة لابن فارس
ديوان أبي تمام
الفلك الدائر لابن أبي الحديد
كشف اللثام للحموى
النقد المنهجى عند العرب للدكتور مندور
ديوان أبي نواس
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى
الأقصى القريب للتنوخى

معاهد التنصيص للعباسى
المقدمة لابن خلدون
الكشاف للزمخشرى
بلاغة أرسطو للدكتور سلامة
ديوان البارودى
ديوان حافظ
ديوان الأعشى
الموازنة للآمدى
الشعر والشعراء لابن قتيبة
بغية الإيضاح لعبدالمتعال الصعيدى
الموشح للمرزبانى
ديوان المعانى للعسكرى
ديوان عمر بن أبى ربيعة
المقامات للحريرى
سلافة العصر للمدنى
الشوقيات لأحمد شوقى
حافظ وشوقى للدكتور طه حسين
ديوان البحترى
زهر الآداب للحصرى
سقط الزند للمعرى
رسائل البديع
نفح الطيب للمقرى
البيان والتبيين للجاحظ
ديوان زهير بن أبى سلمى
ديوان الأخطل
شرح هبة الأيام لمحمود مصطفى
تفسير القرآن للفخر الرازى
ديوان مسلم بن الوليد
الوساطة للقاضى الجرجانى
حدائق السحر للوطواط
حسن التوسل للحلبى
صرخة فى واد لمحمود غنيم
ديوان صبرى
ديوان الأسمر
ديوان ابن الرومى
ديوان عبد المطلب
حاشية الدسوقى
مواهب الفتاح للمغربى
ديوان امرىء القيس
تزيين الأسواق للأنطاكى
شرح الفوائد الغياثية للمولى عصام
ديوان ابن النبيه
» البهاء زهير
» الشاب الظريف
اللزوميات للمعرى
حياة الحيوان للدميرى
ديوان ابن نباتة
كنز البلاغة للسكاكى
ديوان حسان
» النابغة
» ابن الأحنف
مناهج التوسل للبسطامى